

إعلموا أني فاطمة

(الجزء الثاني)

عبد الحميد المهاجر

الطبعة الثانية

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

علي صراط الحق



مقدمة

لخطاب الزهراء عليها السلام

اعتراف أخضر

.. سيدتي أيتها الزهراء.. يا أم أبيها.. وأم الحسن والحسين.. لقد
جئتكَ متأخراً عن الموعد الأخضر كثيراً.. كثيراً.. إذ كان عليّ أن أسبقَ
النجوم إلى باب دارك.. ألتمس النور والرحمة والغفران..

كان عليّ أن أسبق الفجر إلى أعتابك.. أَلثَمها وأمرُغ ناصيتي بنورها
وترابها.. بل كان عليّ أن أباري الرياح وأسبق الأيام لكي أعطر يراعي
بالأريج الفواح من روض الطهر ودوح الإشراق وأيكِ النور..

ولكنَّ المعاناة التي نكابدها في هذا الزمن الصعب الكنود.. من
استبداد الظالمين الذين يفتالون الحروف ويسرقون الأحلام ويقتلون
الشوق ويفترسون الفرح.. أخذتُ بعنقي.. وحالت بيني وبين الإبحار
إلى شواطئك الكريمة وسواحل جُودك وكرمك..

فعذراً.. إذا وصلتُ متأخراً.. لأنَّ الكتابة عنك وإليكِ رحمةٌ وسلامٌ..
فما أحلى الساعات، معكِ تمضي.. وما أسعد الكلمات، عنكِ تحكي..

سيدتي.. يا ابنة النبوة وأمَّ الإمامة.. إنَّ الكلمة التي كنتِ تملكين
زمامها لتقف اليوم خجلى لأنها تسلك مسلكاً وعرأ.. والبيان الذي كان
يقطر منك سحراً ليقرَّ اليوم بعجزه وهو يخوض مخاضاً عسيراً
ويجشَّم نفسه غمراً..



فعذرك يا سيدتي إذا قصر البيان.. وعذرك إذا نبا الكلام.. فأنت
أعظم وأروع وأشرف من البيان ومن الكلمات، وها أنا ذا أعترف
بتقصيري، فلقد تأخرت عنك عشرين حولاً.. إذ كانت فكرة هذا
الكتاب المتواضع تراود مخيلتي وتدغدغ أحلامي وتثير فيّ الشوق منذ
قراءة عشرين عاماً..

وها أنذا جئتُك منيباً.. معترفاً.. لا أجد مفرّاً من الاعتراف
بالتقصير في حقكم.. يا أهل بيت النبوة والرحمة.. وموضع الرسالة
ومختلف الملائكة..

فهل تقبلين.. يا أكرم سيدة وطئت قدمها التراب.. كاتباً مبتدئاً..
يعطر كلامه باسمك الكريم.. ويروض قلمه لكي يخوض في لجج
فكرك الحضاري العظيم.. ويهدي إليك هذا الكتاب الذي ما أردته
بحثاً تقليدياً، في ترتيب عناوينه وفصوله، كما جرت به العادة لدى
معظم المؤلفين والكتاب.. وإنما أردته بستاناً فيه ما لذ وطاب من ثمر
يانع متشابه وغير متشابه على وفرة وتنوع.. وأردته روضاً فيه ما يلذ
العين ويريح الأنف من شميم فواح ومنظر خلّاب..

أردته مسرحاً لكل فراشة يهرها النور ويجذبها الألق ويفريها
البريق.. وأردته مرجاً لكل نحلة تسعى خلف الرحيق لكي يستحيل في
معملها شهداً فيه شفاء للصدور والعقول..

بل أردته أيكة تترنح فوق أفنانها أسراب الطيور وأفواج البلابل
وجماعة الشحارير..

فيه لأهل البيت ^{عليهم السلام}، وما يتصل بهم، مساحة تتسع لكل العقول



الظمأى، ولكل النفوس المؤمنة، التواقة للعيش في رحاب القرآن الكريم، وفيه لأهل الإيمان والتقوى شذى يحكي طهر سيرتك المباركة.. وعطرٌ يتضوُّع حضارةً تثير العتمة للسائرين على دروب الإسلام.. إنه فكرك الذي يمتد بين الأرض والسما.. وحديث حضارة هي صبغة البناء الإسلامي الشامخ الذي «ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير».

فإننا في حقك مقصرون.. مقصرون.. مقصرون..

إن كل كلام الأرض.. بكل اللغات واللهجات.. وبكل المقاطع والحروف.. وبكل النبرات والقراءات.. يقف أمامك يا سيدتي ويعترف أنه عاجز عن بلوغ ما يريد ويشتهي.. ومتى استطاع الجزء أن يبلغ الكل؟.. ومتى غدا الحرفُ جملةً مفيدة؟.. ومتى كان اليوم دهرًا؟.. ومتى غدت الحصاةُ جبلًا والقطرة بحرًا؟..

لذلك ليس لي إلا أن أقدم العذر.. ولي أسوة بالمتبى عندما سئل لماذا لم يقل شعراً في أمير المؤمنين عليه السلام، فقال:

وتركتُ مدحي للوصي تعمداً إذ كان نوراً مُستطيلاً شاملاً
وإذا استطال الشيءُ قام بنفسه وصفاتُ ضوءِ الشمسِ تذهبُ باطلاً
وإذا كنتُ يا سيدتي قد قصَّرتُ في الوصول على الموعد.. وقصَّرتُ في أن أفيكِ بعض حقك علي.. فإنني لن أقصِّر في الرجاء والدُّعاء والأمل..

إنَّ الأرض سوف يتغيَّر اسمها.. والماضي سوف يعود.. وسواد الليل سوف يمضي.. والتاريخ سوف يبرأ من العقم وسنعيش في ألقٍ دائم..



فقدأ.. من خلف مرمى الشمس.. سوف ينبج الضوء ويخترق أيامنا
كالسهم اللامع على صهوة الإعصار.. وسوف يغدو الغروب فجراً..
وسوف يقترب الرجاء ويدنو.. كما صلاة الفجر.. في ليلة القدر..
فيزهر الأمل، وتخضر الأرض.. ويسير فيها الناس ﴿لِيَالِيَّ وَأَيَّامًا
آمِينَ﴾^(١).. بعد أن تكون قد سادها العدل والإنصاف بظهور ولدك
المهدي قائم هذه الأمة، عجل الله تعالى فرجه الشريف..

وبعد.. فإنك يا سيدتي.. أهلّ لكلّ كرم وجود.. وسماحة وفصاحة..
أنتِ منهل النور، وينبوع الإيمان والتقوى، ومصدر كل خير وفضيلة..
فرحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت وسلامٌ منه ورضوانٌ.. عليكِ
وعلى أبيك.. وبعلك وبنيك.. وعلى السرّ المستودع في شخصك
العظيم.. يا فاطمة الزهراء.. يا سيّدة نساء العالمين.. ورحمة الله
وبركاته.

خادمك

عبد الحميد

(١) سبأ/١٨.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاطمة فطمت شيعتها من النار، وفطمت أعدائها من الجنة، فلا شيعتها يرون النار، ولا أعدائها يدخلون الجنة.

فاطمة فطمت شيعتها من الجهل، وفطمت أعدائها من العلم، فلا أحد من شيعتها يرتع في الجهل، وليس في أعدائها من هو عالم، لذلك تقول: أيها الناس اعلموا أني فاطمة، وأبي محمد ﷺ أقول حقاً عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فأن تعزوه وتعرفوه، تجدوه أبي دون نساءكم وأخا ابن عمي دون رجالكم، فلنعم المعزي إليه فبلغ الرسالة، صادعاً بالندارة ماثلاً عن مدرجة المشركين ضارياً ثبجهم آخذاً باكظامهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام وينكت الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، وحتى تفرى الليل عن صبحه.. الخ.

إذاً: فهي تقول: اعلموا أني فاطمة عليها السلام ومعنى ذلك أن معرفتها تحتاج إلى علم، والعلم يحتاج إلى التقوى والخشية من الله عز وجل لأن العلم بغير التقوى لا ينفع شيئاً ولا يؤدي إلى هدف، إذ أننا نعرف أن العلم يكشف الطريق ويوضح لنا الهدف فنراه أمامنا يلمع كما تلمع الأشياء في ضوء الشمس، ولكن من الذي يحركنا من الداخل لننتقل إلى الهدف، أو بتعبير آخر: ما هي القوة التي تدفعنا إلى المضي والإنطلاق في الطريق حتى نصل إلى الهدف؟ لا شك أن العلم لا يدفع أحداً إلى الهدف وإنما العمل والحركة وبذل الجهد هي وحدها تدفع



الإنسان للمواصله والمتابعة، فأنت تعرف -من خلال العلم- موقع مكة المكرمة مثلاً، وإنك تعرف موقع كربلاء المقدسة من الخارطة ولكن الوصول إلى كربلاء يستدعي منك حركة وعمل ومواصله وهذه كلها تحتاج إلى التقوى لذلك نجد الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، قالت: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١) ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٢)، ثم بعد ذلك مباشرة قالت: أيها الناس اعلموا أني فاطمة، وكأنها تشير إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (٣).

فالعلم لا بد له من التقوى والتقوى لا تقوم على غير الإيمان ومن هنا كانت هذه النعم متلازمة متعانقة يأخذ بعضها بعنق البعض الآخر وهي: أربع نعم من بحور النعم التي لا يحصيها إلا الله عز وجل لأن الإنسان لم يعد في وسعه ولا في مقدوره أن يعد نعم الله ويحصي آلاءه: ﴿وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (٤).

وهي على الشكل التالي:

نعمة الوجود ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥).

وبذكر الأبصار والسمع والأفئدة دليل على أن النعمة التي تلي نعمة الوجود هي نعمة العقول فلولاً للعقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف

(١) آل عمران/ ١٠٢.

(٢) فاطر/ ٢٨.

(٣) البقرة/ ٢٨٢.

(٤) النحل/ ١٨.

(٥) النحل/ ٧٨.



من الإنسان، هذا في مجال الأدب والشعر، ولكن في مجال الفكر والمعرفة نسمع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقول: إن لله حجتين - وهما نعمتان على ما يظهر من كلام الإمام صلوات الله وسلامه عليه - حجة ظاهرة وحجة باطنة.. ثم يشرح ذلك ويفسره لنا، بأن الأنبياء والرسل وأئمة الحق هم الحجة الظاهرة في حين أن الحجة الباطنة تتمثل بالعقل، ولا شك أن نعمة العقل من النعم التي لو عمر الواحد منا مدى الأحقاب على أن يؤدي شكر هذه النعمة لما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكيف يستطيع أن يشكر نعم الله والشكر هو نعمة تستحق شكراً على حد تعبير الإمام زين العابدين عليه السلام، أما النعمة الثالثة فهي نعمة الإيمان لأن العلم لا ينفع بغير الإيمان ومن هنا كان القول الفصل في ذلك للحق سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١)، فنجد الميزان الذي يرفع الإنسان، إنما هو العلم مع الإيمان وليس العلم وحده، على أن هناك ملاحظة لا بد من الإشارة إليها وهي أن العقل لا يقال له عقلاً إلا بعد أن يستكمل الشروط الأساسية التي تجعله عقلاً كاملاً وهي العلم لأنه يتغذى به، ثم الإيمان لأن الإيمان يضيء العلم، ثم الولاية لله وللرسول ولالإمام الحق من أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، فقد جاء في الكافي أن الله عز وجل عندما خلق العقل استنطقه ثم قال له: اقبل فاقبل ثم قال له: ادبر فادبر، فقال له: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا اكملتك إلا فيمن أحب بك أثيب وبك أعاقب.. الخ^(٢). وهذا

(١) المجادلة/ ١١.

(٢) الكافي/ ج: ١ ص ١٠ كتاب العقل والجهل.



الحديث يضع أيدينا على كنوز من المعرفة كما يفتح أمامنا آفاقاً من العلم والثقافة والفقه فما دام العقل لا يكتمل إلا عند الذين يحبهم الله عز وجل، فهذا يعني أن العقل الكامل، لا يوجد إلا عند المؤمن فقط، ويمكن أن نقرب ذلك بالصورة التالية:

الإنسان مكون ومؤلف من صورة وعقل، ولا خير في الصورة إذا لم يكن معها عقل يضيئها وينير الدرب أمامها.. وعلى هذا يظهر أن:

كمال الإنسان بالعقل، وكملا العقل بالدين، وكمال الدين بالولاية.. ولاية الله والرسول وأولي الأمر منكم وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام من علي أمير المؤمنين عليه السلام والحسن والحسين والسجاد والباقر والصادق والكاظم عليهم السلام ومروراً بالرضا والجواد والهادي والعسكري، وانتهاءً بالإمام صاحب العصر والزمان المهدي المنتظر صلوات الله عليهم أجمعين، وهؤلاء هم أئمة الحق الذين ذكرهم الله في آية الولاية والإمامة والطاعة، وأوضح أسمائهم وأشخاصهم رسول الله ﷺ إلى العالم كله في أحاديث صادقة صحيحة ليس عليها شك ولا غبار أبداً وقد ذكرها المسلمون كافة كما سيأتي الحديث عن الإمامة ومواصفات الإمام في فصل من الفصول القادمة في هذا الكتاب الذي يستمد عظمتة من سيدة نساء العالمين الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

إذاً: فحين تقول: اعلموا أنني فاطمة، فإنها إنما تريد أن تقول أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، واعلموا أنني فاطمة لأن الجاهل الذي لا يخاف الله ولا يخشاه ليس في مقدوره أن يعرف مقام فاطمة ومنزلتها ومكانتها في الإسلام.



ولتوضيح هذه المسألة بالذات المتعلقة بمعرفة فاطمة عليها السلام، اسوق لكم بعض الأمثال التي تقرب المعاني -معاني الكلمات- إلى الأذهان، وذلك أن الكلمات لها معاني تتفاوت في أذهان الناس، وفي قلوبهم، فبمقدار معرفة الإنسان بتلك الشخصية، أو تلك الكلمة يكون المستوى المعنوي للكلمات وللشخصيات وهذا هو الواقع، فكلمة العطش -على سبيل المثال- يكون مستواها، ومعناها بمقدار احساس الإنسان بها، أي بالعطش، فأنت تعطش في النهار وفي العمل، وتعطش في شهر رمضان وأنت صائم، والذي ينهل الصحراء ويحدو وراء الإبل يعطش هو الآخر في البيداء، كل هؤلاء يعطشون، ولكن لكل واحد منهم مستوى معيناً يبلغه في معرفة كلمة العطش هذه، فالصائم يدرك كلمة العطش أكثر من الذي يعطش وهو غير صائم والذي ينهل الصحراء يعرف قيمة أكبر لكلمة العطش، والذين كانوا مع طالوت وهم جنود مؤلفة قد ضربهم العطش فقال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (١).

أقول: هؤلاء الجنود الذين كانوا مع طالوت وتحت قيادته هم أيضاً يعرفون كلمة العطش غير أن معرفتهم تفاوتت بين الذين شربوا وسبحوا في النهر وبين الذين اكتفوا بغرفة واحدة من الماء، إذ لا شك أن الذين اكتفوا بغرفة واحدة من الماء هؤلاء كانت معرفتهم بكلمة العطش أكبر وأقوى وأوقع وأكثر فاعلية من الذين لم يصبروا على العطش والقوا بأنفسهم في أحضان الماء حين رأوه صافياً عذباً يلمع

(١) البقرة / ٢٤٩.

الحصى' من تحت ثنياه ولذلك نجدهم قد سجلوا انتصاراً ساحقاً على أعداء الله وأعداء الإنسانية جالوت وجنوده، حيث صمموا على الوقوف بوجه الظلم والطغيان وقالوا رغم قتلهم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١) وأكبر من هؤلاء الرجل البطل الذي يقف على نهر الفرات أو شاطي العلقمي وربما سمي بالعلقمي لعذوبته وحلاوته كما نسمي الأعمى بصيراً، والملدوغ سليماً وان كان المثال يحتاج إلى شيء من التبسيط ولكن أكتفي بهذا القدر فأقول: إن هذا البطل العظيم الذي لم يشهد التاريخ له مثيلاً من غير المعصومين لأن الحسين عليه السلام وقف هو الآخر على شاطيء الفرات ولم يشرب من الماء وكان العطش قد صنع بينه وبين السماء مثل الدخان، غير أن العباس عليه السلام يظل هو النموذج الذي قدمه الإمام الحسين عليه السلام إلى العالم كله نموذجاً يتفجر مواساة وإيثاراً وعدالة وحقاً، وشجاعة واريحية ليس لها مثيل ولا نظير في كل ما كتب التاريخ عن الأبطال والأصحاب والشهداء، لذلك كانت للعباس بن علي منزلة عند الله تعالى يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة، وهذا دليل آخر على أن للكلمة مستويات من المعرفة تختلف من شخص إلى آخر، ومن عقل إلى عقل..

إذاً: فالكلمة واحدة وهي العطش ولكنها تفاوتت في وزنها وثقلها ومعرفتها بين هؤلاء الناس الذين جرى ذكرهم في هذا المجال، اقصد الناس كافة، أما في كربلاء وموقف أبي الفضل العباس عليه السلام فإنه شكل آخر، ووجهة فريدة من نوعها.. وما يقال في كلمة العطش يقال

(١) البقرة/ ٢٤٩.



في غيرها من الكلمات أيضاً فالجوع تتفاوت معرفته بين أفراد النوع الإنساني، وكذلك كلمة الدعاء كل واحد منا يدعو ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(١)، غير أنه لا يصل أحد منا إلى المستوى الذي وصله يونس بن متى في معرفة هذه الآية وهو يتلوها في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وكأنه جنين يقبع في ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، وقل: ظلمة الغطاء الذي يمنع الحرارة عن الجنين، وظلمة الغطاء الذي يمنع النور عنه، وظلمة الغطاء الذي يمنع الصوت عن الجنين وذلك لتتخلق وتتشكل أعضائه وسمعه وبصره دون أن تؤثر الحرارة على البدن، والنور على العيون والصوت على الأذن، والمهم أن يونس قرأ هذه الآية وتلى هذا الدعاء وهو تحت تلكم الظلمات، فهل يستطيع أحد من أن يدعي أنه يصل إلى نفس مستوى الإحساس الذي بلغه يونس بن متى وهو في بطن الحوت؟ طبعاً هذا بالنسبة لسائر الناس وليس للأنبياء وأهل البيت فقطعاً وبالتأكيد أن الآية هذه بالذات يقرأها الإمام صاحب العصر والزمان بين الركن والمقام. على أن الآية التي قرأها يونس في بطن الحوت إنما هي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) وقد استجاب الله له وانقذه من ذلكم الحبس الرهيب ببركات التسبيح الذي كان يمارسه فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون أي أنه لولا التسبيح والدعاء لطال مكوثه ومكثه في تلكم الظلمات.

(١) النمل / ٦٢.

(٢) الأنبياء / ٨٧.



فاطمة متى تظم شيعتها من النار ،

ومن الجهل ومن لكل ذنب وسوء ؟

للأسماء أبعاد أربعة إذا تكاملت أعطت ثمارها، وإذا نقصت لم تعط الثمار المنتظرة منها، فهناك بعد ذهني أنا أذكر الماء في ذهني ولكن ذكر الماء لا يرويني، ثم أقول ماء أذكره بلساني ولكنني لا ارتوي عند ذكر الماء بل لعل العطش يزداد عليّ شدةً واكتبه بيدي غير أن العطش لا يرتفع لأن هذه الأبعاد تظل ناقصة وبحاجة إلى البعد الرابع الذي تكتمل به الصورة وهو البعد الحقيقي أي أنني أمسك الماء أو اغترف غرفة من الماء واشرب فارتوي وأصل إلى الارتواء الذي يقتل العطش ويرفعه عني، هذا في الأشياء المادية التي تخص البدن، مثلها في ذلك مثل كل ألوان الطعام والشراب وما أعد الله للإنسان من نعمة في الحياة فإنها لا تكتمل إلا بشرط أساسي ألا وهو البعد الحقيقي أي مباشرة الفعل بلا واسطة في الأكل والشرب والنوم وكل حاجات البدن ولكن تعالوا معي إلى حاجات الروح والعقل فإنك لو أخذت أسماء الله الحسنی مثلاً على ذلك فإنك تجد أن هذه الأسماء تترك أثرها بكل الأبعاد في ذكرها على لسانني وفي كتابتها وفي ذكرها في ذهني وخاطري، فإنها تترك أثراً تربوياً على نفس الإنسان، وكما في الأسماء الحسنی كذلك في أسماء الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، لأن الله اشتق لها أسماءاً من أسماء الحسنی فهو الفاطر، وهي فاطمة كما وردت بذلك روايات صحيحة وأحاديث نبوية شريفة تؤكد هذا



المعنى بالذات، ومن هنا كان ذكر هذا الاسم يحدث حالة نورانية في العقل والقلب والروح والنفس، بل حتى في وجه الإنسان وبدنه حيث يترك اسم فاطمة نوراً في وجه من يحبها ويعتقد بها ويحمل اسمها شعاراً للحق والعدل والحرية والإيمان، فقد أكدت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أن لهذا الاسم بالذات (فاطمة) مقاماً رفيعاً عند الله كما هو الشأن في بقية أسماء فاطمة الزهراء عليها السلام، فقد ورد عن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: لفاطمة - الزهراء بنت محمد - صلى الله عليها وعلى أبيها وبعليها وبنيتها - عند الله عز وجل تسعة أسماء:

وانقل لكم النص الكامل لهذا الحديث: عن يونس بن ظبيان قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

لفاطمة عليها السلام تسعة أسماء عند الله عز وجل: فاطمة، والصديقة، والمباركة، والطاهرة، والزكية، والراضية، والمرضية، والمحدثّة، والزهراء.

ثم قال عليه السلام أتدري - يخاطب الراوي - أي شيء تفسّر فاطمة؟ قلت: أخبرني يا سيدي، قال: فطمت من الشر، قال: ثم قال: لولا أن أمير المؤمنين عليه السلام تزوجها لما كان لها كفو إلى يوم القيامة على وجه الأرض، آدم فمن دونه. ^(١)

والناس في العادة يعلمون ظاهراً في الحياة الدنيا وهم عن الحقائق غافلون لأنهم يعيشون في غطاء عن ذكر الله عز وجل، ومن هنا فلا

(١) بحار الأنوار - جلد ٤٣ - صفحة ٩٢ - باب ٥ - تزويجها صلوات الله عليها... ص: ٩٢.

يصل إلى معرفة هذا الاسم إلا ذو حظ عظيم، رغم أن الله عز وجل زود الناس بآلات وأدوات يدركون بها الحق ويعرفون أهله، غير أن الناس ركبوا طريقاً ذا عوج لا يؤدي بهم إلى خير، واجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل، رغم البصر والبصيرة التي يتمتع بها الإنسان إذا عرف كيف يوجهها... إنه -أي الإنسان- ينزل من بطن أمه مزوداً ببصر لرؤية الأشياء، وبصيرة لرؤية الحقائق، غير أنه كما لا يستطيع رؤية الأشياء إلا بنور الطبيعة، كذلك لا يستطيع رؤية الحق بغير نور الإيمان، وهذا هو الواقع، لذلك نجد الإمام الصادق عليه السلام يطرح هذه الأسماء العظمى التي هي أسماء أمه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام على الملأ من الناس ليعرفوا قدرها لأن من عرف قدرها فقد أدرك ليلة القدر.

قال في تفسير معنى فاطمة «أنها فطمت من الشر»^(١)، وفي حديث آخر «أنها فطمت ذريتها وشيعتها من النار»^(٢)، «وفطمت بالميثاق من الطمث»^(٣)، ثم قال لولا أن أمير المؤمنين عليه السلام أي الإمام علي عليه السلام تزوجها لم يكن لها أو ما كان لها كفو على وجه الأرض آدم فمن دونه، وهذا الكلام يفتح آفاقاً من المعرفة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. فهي فاطمة أي أنها بلغت مرحلة لا يمكن للإنسان أن يعرفها إلا إذا جاء ربه بقلب سليم وعقل كامل يموج بالعلم والإيمان والمعرفة فقد ورد في بعض الأخبار أن معنى فاطمة أي أن الخلق

(١) بحار الأنوار- جلد: ٤٣- ص ١٦ - باب ٢ .

(٢) بحار الأنوار- جلد: ٤٣- ص ١٢ - باب ٢ .

(٣) بحار الأنوار- جلد: ٤٣- ص ١٣ - باب .



فطموا عن معرفتها ولا غرابة في ذلك أبداً فهي قلب النبي ومهجته وروحه التي بين جنبيه، ولو استعرضنا مدى القوة في هذه الأمور لعجز العقل عن احتوائها ومعرفتها، فالخيال مثلاً أبعد من مرمى النظر، والعقل أبعد مدى من الخيال، والقلب أبعد من العقل، والروح أبعد وأكثر اتساعاً من الجميع، هذا كله يظهر الحقيقة من خلاله، خصوصاً إذا عرفنا أن النبي ﷺ يرى 'شجرة طوبى' وسدرة المنتهى بعينه وبصره وهو في الأرض كما ورد ذلك في الدعاء والزيارة والأحاديث، وقد مرت الإشارة إلى هذا المعنى في القرآن الكريم حول قوة بصر إبراهيم الخليل عليه السلام حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١) فإذا كان إبراهيم يرى ملكوت السموات والأرض فالنبي الأعظم محمد ﷺ أولى وأعظم من ذلك، ومن هنا نجد جبرئيل يصل إلى سدرة المنتهى ويقف عند حدودها فلا يتجاوزها أبداً حتى في ليلة الاسراء والمعراج في حين أن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يبلغ إلى مكان ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، والكلام الذي نقوله هنا: هو إذا كانت شجرة طوبى في مرمى عين النبي وبصره، فألى أين يصل خياله، وإلى أي مدى يبلغ عقل النبي، وإلى أي مستوى يصل قلبه، ثم إلى أين يمكن أن تصل روحه؟ إنها تصل إلى موضع دنى فتدلى. فإذا كانت روحه هذا مداها وأكبر، فالسيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وهي قلب النبي ومهجته وروحه إلى أي مدى يمكن أن نعرفها ونستوعب معاني كبيرة تكمن في

(١) الأنعام / ٧٥.



اسمائها^(١) وخصوصاً في كونها فاطمة عليها السلام، ولذلك يقول الحديث: إنما سميت فاطمة لأن الخلق فطموا عن معرفتها، وطبعاً المعرفة المطلقة التي لا حدود لها، ويدخل في هذا المجال قول النبي لعلي: يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت وما عرفني إلا الله وأنت وما عرفك إلا الله وأنا.

أقول: لعل هذا الحديث يشير إلى هذا الجانب الخفي المستور عنا في شخصية النبي وأهل بيته عليهم السلام.

على أن الناس -في العادة- يتعاملون مع ظاهر الأشياء دون الولوج إلى باطنها فتراهم ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وآله ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢) أي أنهم، كانوا يرون الحكمة -حسب موازينهم ومقاييسهم- أن ينزل الكتاب على النبي وهو لا يملك مالاً كما يملكه أحد الرجلين في مكة والطائف.. وهذه نظرة مادية بحتة ومحضنة، تقيس الناس بالمال وتوزنهم بالعقار والملك المادي، أما الأخلاق فلا مكان لها عندهم على الرغم من أنهم كانوا يطلقون صفات الخلق العظيم على رسول الله -قبل البعثة وحتى بعدها-، فهم ينادونه بالصادق الأمين، ويودعون عنده أماناتهم وودائعهم الثمينة بكل صدق وأخلاق، فهم لا يثقون بأحد من شباب مكة ورجالها كما يثقون بالنبي لذلك ينادونه بهذا الاسم صادق وأمين، وحتى أن ودايعهم بلغت مرحلة أن تكون عند النبي حتى وهو يغادر مكة في هجرته إلى المدينة، فيأمر الإمام علياً عليه السلام الذي بات على فراشه يوصيه باداء الأمانات

(١) بحار الأنوار- جلد: ٤٣- ص ١٦ - باب ٢ .

(٢) الزخرف/ ٣١.



إلى أهلها، ورد الودائع إلى أصحابها، فيقف الإمام سلام الله عليه وينادي برفيع صوته:

من كانت له عند محمد أمانة فليأت لأخذها، ومن كانت له عند محمد وديعة فليأخذها فهذه كل الودائع والأمانات بين أيديكم.. وإنما قال ذلك لأنهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ فأراد أن يلقي عليهم الحجة بهذا الفعل العظيم الذي يكشف عن اصالة في المواعيد، وصفاء في النفس وقوة في اليقين وحزماً في العمل، ليحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

أعود إلى أصل البحث فاقول:

إن معاملة الناس مع الظاهر دون الغوص إلى أعماق الأشياء والحقائق لا يلغي كون الأشياء تعرف باضدادها وبواطنها وإلا فإن موسى عليه السلام حين دخل على فرعون هو وأخوه هارون استخف بهما فرعون لأنه رآهما وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي، لذلك تراه يقول: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ.. الخ^(١) فرأى أن البرهان العظيم على النبوة أن يخرج النبي إلى الناس وهو غارق بالذهب والفضة والديباج والحرير، أما أن يأتي النبي الناس بهذه المدارع الصوفية القليلة الثمن فإن ذلك لا يعطي دليلاً قاطعاً للطفاة على أن هذا نبي وذاك رسول يحمل رسالة للعالم، وهذه مشكلة العالم اليوم حيث أن الحضارة المعاصرة على رغم التقدم الذي حققته في عالم التكنولوجيا والتقنية إلا أنها

(١) الزخرف / ٥٢-٥٣.



ظلت عاجزة عن معرفة الإنسان، ومتأخرة في مجال حقوق الإنسان، فالنساء يزدادون فقراً، وقهراً وظلماً وجوراً يوماً بعد يوم، كل ذلك سببه أخذ القانون من غير عند الله وغير عند الله يكون من عند الإنسان والإنسان لا يستطيع أن يشرع لنفسه لأنه ليس في إمكانه أن يقرر نوع العقيدة، ويختار الدين والإمامة، أبدأً، إن الله عز وجل ضرب لنا مثلاً في موضوع الاختيار الذي سوف نتكلم عنه كثيراً في الفصول القادمة، ضرب لنا مثلاً في موسى بن عمران عليه السلام حيث اختار سبعين ألفاً لميقات الله واختار من السبعين ألفاً سبعة آلاف ومن السبعة آلاف سبعمائة ثم وقع اختياره على سبعين رجلاً فقط وهؤلاء كانوا زبدة المخض وخلاصة الخلاصة ولكنهم عندما وصلوا إلى الميقات قالوا أرنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة، وهذا الحادث يدل على أنهم كانوا منافقين وإن اختيار موسى رغم أنه كان من أولي العزم قد وقع على المنافقين ومن هنا كانت الحكمة تقضي بأن الله هو الذي يختار لعباده وليس العباد هم الذين يختارون لأنفسهم ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (١).

وفي آية ثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٢).

إذاً: فالنتيجة لهذا البحث تتلخص في الاختيار لله لا للبشر، على أننا سوف نتعرض لهذا الموضوع في محله من هذا الكتاب بشيء من التفصيل وتبسيط الضوء أكثر فأكثر.

(١) القصص / ٦٨.

(٢) الأحزاب / ٣٦.

المهم أن فرعون رفض الاعتراف بموسى وهارون لأنهما لم يرتديا الذهب والدر، وإنما كان عليهما مدارع الصوف، وفي هذا يقول الإمام علي عليه السلام وهو يصف هذه المسألة بقوله:

(ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي، فشرطا له - إن أسلم - بقاء ملكه، ودوام عزه، فقال: «ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز، وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر، والذل، فهلاً ألقى عليهما أساوراً من ذهب؟» اعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولُبْسِهِ! ولو أراد الله سبحانه لانبيائه، حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقبان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء، ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحت الأنبياء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزممت الأسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين في حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى.

ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تُرام، وعزة لا تضام، وملك تُمدُّ نحوه أعناق الرجال، وتشد إليه عقد الرجال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة والحسنات مقسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصة، لا

تشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل^(١).

وتفسير ذلك واضح لمن يصغي بسمعه، ويستمع بلبه، فالأنبياء والرسل جاؤوا إلى البشر بقوة الإيمان والكلام والمعجزات، لا بقوة السلاح وكثرة المال، ولو كانت قوة السلاح وقوة المال عند الأنبياء لسارع الناس إلى الإيمان بهم رغبة بالمال، وخوفاً من السلاح وهذا معناه تعطيل العقول والقلوب، لأن القلب منطقة حرة لا تعرف التعامل مع المال والسلاح وهنا يسقط الثواب والعقاب لأن القدرة على تلقي الامتحان والاختبار تسقط من الإنسان الراغب في المال أو الخائف من السيف، والله عز وجل لا يريد اعناقاً خاضعة وإنما يريد قلوباً خاشعة بالإيمان والتقوى، إذ أن خضوع الأعناق للمال والسلاح لا يفتح مجالاً للحوار الحر، ولا يدع متسعاً من الوقت لدخول الإيمان في القلوب، والعلوم في العقول، والتربية والأخلاق في النفوس، وكشاهد على ذلك اقرأوا إذا شئتم قصة موسى، وفرعون بالحق كما انزلها الله عز وجل على رسوله الكريم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله أجمعين حيث يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢) وقبل ذلك قال الحق: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِبحُ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣) إلى آخر الآيات التي وردت في سورة القصص وكلها

(١) نهج البلاغة خطبة رقم ١٩٢ وتسمى القاصعة ص ٢٨٥.

(٢) القصص/٥.

(٣) القصص/٤.



تؤكد هذه الحقيقة وهي أن الله عز وجل لحكمة بالغة جعل السلاح والسلطة عند فرعون والمال والثراء عند قارون، في الوقت الذي كان يملك موسى فيه قوة يخضع له فيها كل شيء في الوجود، فهذا هو البحر الذي خضع لأمر موسى فكان موسى يقود البحر، كما يقود الغنم بعصاه، حتى أنه ضرب فرعون وجنوده بالبحر، وهذه هي القوة المعجزة التي لم يحلم بها الطغاة أبداً، فصحيح أن الله لم يجعل المال والسلاح بقوته عند الأنبياء ولكنه أعطاهم قوة تهز الجبال والقلوب ويهابهم كل جبار عنيد إذا يسمع آيات الله تتلى ولي مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم.



نصرة الحق في معرفة النعم

أهم شيء في العقيدة أن تعرف الحق ثم تتصره، لأنك إذا لم تعرف الحق ضيعت نفسك وإذا عرفت الحق ولم تتصره، ضيعت دينك وفي ضياع الدين خسارة الدنيا والآخرة، ومن هنا فإن عدم المعرفة بالحق تؤدي إلى التفريط به وبأهله، وفي التفريط بالحق تأخر وحرمان وعذاب..

فتحن -على سبيل المثال- لا نعرف قدر العمر فنفرط به حتى يضيع العمر من بين أيدينا وتفرق الغاية من وجودنا ونحن نتفرج عليها وهي تتطفاً في الغرق.. وكذلك نحن لا نعرف قدر العبادة فنفرط في شعائر الله حتى نأثم وتضيع الشعائر مخلفة وراءها غبار الخطايا يغطي رؤوسنا علماً أننا حين نقرأ القرآن الكريم نجد الحق سبحانه يقسم بالعمر في سورة العصر، وما العصر إلا العمر الذي نحياء ونعيشه لأنه الوقت والزمن، فيقول: والعصر إن الإنسان لفي خسر.. وهذا لكل الناس ثم يستثني من الناس الذين هم يتمتعون بثقة الإيمان والعمل الصالح فيقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾^(١)، وهذا هو الواقع، يجب أن نتواصى بالحق وبالصبر، لأن الإيمان يحتاج إلى الحق، والعمل الصالح يحتاج إلى الصبر.. إذاً: فالقرآن يقسم بالوقت في حين أننا نفرط في الوقت ونفرط في الصلاة وفي كل شيء -مع الأسف- ترانا مفرطين، ولا نتتظر المفرط

(١) العصر/ ٣.

غير الحسرة والزفرات التي يقول عنها القرآن: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾^(١) ويوم الحسرة هو اليوم الذي يتحسر فيه كل الخلائق الذي عمل سوءاً والذي عمل حسناً لأن الذي عمل العمل الصالح يتحسر بسبب عدم الزيادة في عمله وذاك الآخر يتحسر لأنه لم يعمل أصلاً وشتان بين الحسرتين فحسرة المؤمن تنقله إلى الجنة ويزداد فيها حسناً وترتفع درجاته بينما حسرة الباطل الذي لم يعمل ترميه في لهوات العذاب وتلقي عليه مسؤولية في الحساب ثقيلة.

لذلك يجب علينا أن ننفض غبار الكسل وننطلق في مدرسة أهل البيت عليهم السلام في الفقه واللغة والتفسير والآداب، لأن الفقه يجعلنا نفقه كلامهم -صلوات الله عليهم أجمعين- وقد ورد عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله: أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا. لأن للكلمة معنى يتفاوت الناس في فهمه وإدراكه لأن الفهم والإدراك يعتمدان على الشفافية والصفاء في الروح والقلب والعقل، وهذه كلها لا تحصل إلا بالإيمان واليقين، والخلق الحسن.. ثم بعد التفقه في الدين يأتي دور اللغة لأنها تفك مبهمات الأمور في الكلام، وتفك الإشارات المحيرة للفرد، ومن هنا كانت اللغة في المرحلة الثانية بعد التفقه، وليس من باب الاعتبار أو العبث أن تكون اللغة تحتل مرتبة ثانية في خلق الإنسان كما نقرأ ذلك في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(٢) لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي له فضيلتان -كما قال أمير المؤمنين

(١) مريم / ٣٩.

(٢) الرحمن / ١-٤.



علي عليه السلام - العقل والمنطق، فبالعقل يستفيد، وبالمنطق يفيد، ولا خير في الحياة إلا لرجلين: عالم ناطق ومستمتع واع، وهذا هو الحق لأن الناس ثلاثة: فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق وهؤلاء هم الذين يشكلون خطراً على سلامة المجتمع، ثم يأتي دور التفسير بعد الفقه واللغة، والتفسير هو الذي يؤخذ من مدرسة الزهراء فاطمة صلوات الله وسلامه عليها لأنها هي روح النبي وقلبه وبضعته ومهجته وهي التي إذا مشت حكمت كريم قوائمه، وإذا تحدثت أفرغت عن لسان أبيها رسول الله ﷺ ثم يجيء بعد ذلك دور الآداب بعد الفقه واللغة والتفسير، لأن الآداب منهج تربوي متكامل نأخذه من بيت فاطمة عليها السلام ذلكم البيت الذي ذكره الله في آية النور وفي سورة النور حيث يقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾^(١)... الخ.^(٢) وإذا المشكاة في تأويل القرآن وتفسيره فاطمة الزهراء سلام الله عليها لأنها هي التي عكست نور الله في الوجود واضاءت بطلعتها السموات والأرض والمسألة واضحة فهي مشكاة لنور الله الذي أضاء الكون كله، وهذا هو التفسير الصحيح القويم الذي ينسجم مع روح الدين والإيمان والعقيدة، أما أن تفسر المشكاة بأنها كوة غير نافذة في جدار فهذا نوع من الكلام الذي لا يقبله العقل ويرفضه الذوق السليم والحس العلمي العميق، فأَي كوة تلك التي تستطيع أن تتقل نور الله العظيم إلى السموات والأرض وهي في جدار متهالك يريد أن ينقض على صاحب هذا التفسير البعيد عن

(١) النور/ ٣٥.

(٢) بحار الأنوار - مجلد: ٣٦ - صفحة: ٣٦٣ - باب: ٤١.



الحق، ومن هنا كان الذهاب إلى أهل البيت عليهم السلام لمعرفة المشكاة أمراً ضرورياً ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(١) وما هم أئمة الحق يكشفون لنا عن هوية هذه المشكاة وعمقها في الوجود وأنها هي البضعة الطاهرة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء سلام الله عليها، وما دام الأمر كذلك فيجب علينا أن نمشي في ظلال هذه الخطبة العظيمة التي ألقتها الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام في حشد من المهاجرين والأنصار ورموز الإسلام وقد كان لهذا الخطاب وقع على القلوب وفي العقول لا ينساه الأحرار في العالم أبداً، لأنها وجهت خطابها هذا لكل الناس وذلك من خلال افتتاح خطابها الذي قالت فيه أيها الناس اعلموا أنني فاطمة وأبي محمد أقول حقاً عوداً وبدواً أو بدءاً ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم وأخا ابن عمي دون رجالكم فكما هو -أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أخ لعلي بن أبي طالب ابن عمها - فكذلك هو أب لفاطمة دون غيرها، لأنها قالت: أبي دون نساءكم، وفي هذا دلالة واضحة أن فاطمة الزهراء هي البنت الوحيدة لرسول الله وليس له غير فاطمة من بنات أبداً، فقد دلت الدراسات على أن زينب ورقية وأم كلثوم إنما هن ربائب النبي ولسن بناته، فقد تبين أنهن بنات هالة أخت خديجة، يدل على ذلك أنهن كن أزواجاً لرجال كفار مشركين عبدة أوثان، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يزوج بناته من مشركين كفار حتى قبل البعثة، علماً إذا قلنا أنه زوجهن قبل المبعث وهن بناته فإننا

(١) الأنبياء / ٧.



نقع في مشكلة كبيرة وهي أن التاريخ يؤكد أن ذرية النبي إنما بدأت بعد نزول الوحي وهذا موضوع سوف نتناوله في حينه وفي وقته ونظهر صدق كلام الزهراء وهي الصديقة الطاهرة روعي فداها.. أقول: إذاً: فتعالوا نمشي في ظلال خطبتها التي خاطبت فيها الناس جميعاً، ولست أعجب أبداً أن يكون عدد المواقع التي تتحدث عن فاطمة الزهراء في الانترنت يفوق العشرين مليون موقعاً ويكفي لمن يريد التأكد من صحة هذا الموضوع أن يضرب على الانترنت كاتباً أسم فاطمة والزهراء والبتول وبعض اسمائها صلوات الله وسلامه عليها، لتظهر له الحقيقة على الشاشة واضحة غير مبهمة ولا غائمة أن عدد المواقع أكثر من عشرين مليوناً وهذا يعني أن كلامها: أيها الناس اعلموا أني فاطمة انطلق في الآفاق لأنها صاحبة ولاية تكوينية سلام الله عليها، هذا أولاً، وثانياً أنها حجة الله ليس على البشر والناس الذين هم دون مرحلة العصمة فقط، وإنما هي حجة حتى على أبنائها البررة من أئمة الحق، بل أنها مفروضة الطاعة على كل الأنبياء والخلق من الجن والإنس والطير والملائكة والأنبياء والرسل، وويل لمن يستكثر هذا على الزهراء أو أن ينكر مثل هذا العلم الصادر من معادنه الأصلية، أقول: إنه لكي نعرف عظمة هذه المرأة لا بد أن نصغي لها في خشوع واخبات وتفقه لأنها هي باب الحق بل هي الإيمان والحق والدين كله ولو كره الظالمون والمشركون والكافرون.

والآن انظروا إليها وقد اقبلت من بيتها في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، وهذا منتهى التركيز على الحجاب والحياء والعفة، ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله ﷺ فقد كانت في حياتها

تجسيداُ حياً لأبيها النبي العظيم ليس فقط في منطقتها وبيانها وعلمها وفكرها، بل حتى في مشيتها واسلوبها في الخطاب، وفي هذا بيان للناس يوضح أن السيرة النبوية الشريفة، إنما تجدونها عند أهل البيت عليه السلام فلا تأخذوا سيرة النبي من غير أهل بيته، وهل يمكن لمن يريد المعرفة عن شخص أن يذهب إلى الجيران والأبعدين يسألهم عنه، أم يذهب إلى أهله والأقربين يسألهم عن سيرته، وهذا هو الحق.. فقد جاءت الزهراء عليها السلام بعد أيام معدودة من رحيل أبيها النبي وفقده، إلى المسجد لتلقي خطاباً هناك تهتز له القلوب والجبال والأجيال وحتى عرش الرحمن يهتز له لأنه حق وصدق وإيمان.. فجلست من وراء ملاءة ثم هاجت بها الأحزان لأنها أول مرة تدخل المسجد بعد وفاة أبيها رسول الله ﷺ ولأول مرة تدخل المسجد فتراه خالياً من أبيها تنظر إلى محرابه وإلى منبره وإلى الذين صعدوا هذا المنبر وهم لا يملكون القدرة وليس لهم القابلية التي تمكنهم من الصعود على المنبر.. لقد تذكرت في لحظة واحدة كل شيء حول أبيها رسول الله ﷺ تذكرت كيف كان الحسين عليه السلام وهو في عامه الأول يدخل المسجد فيرى جده الرسول الأعظم ساجداً فيركب على ظهر جده الحبيب فيطيل السجود إكراماً للحسين، لقد تذكرت كل ذلك.. تذكرت الحسن والحسين وهما يدخلان المسجد وجدهما رسول الله فوق المنبر وهما صبيان صغيران يمشيان ويعثران فيقطع الرسول الخطاب وينزل لاحتضانهما ودموعه تجري على خديه ليقول: أيها الناس إن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة.. الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا، الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا.. وتذكرت يوم ينادي الرسول في المسجد وأمام الملاء من الناس: فاطمة بضعة مني يغضب

الله لغضبها ويرضى لرضاها.. أجل: لقد تذكرت يوم يدخل النبي عليها مودعاً لها إذا أراد السفر فتكون آخر شخص يودعه إذا أراد السفر، وأول شخص يسلم عليه عند رجوعه من السفر.. لقد تذكرت كل ذلك في لحظة حزن عميق لذلك هاجت بها الأحزان فاطلقت أنه حزينه واحدة أجهش القوم لها بالبكاء، وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على قوة شخصيتها ومنزلتها في النفوس حيث كانت لها هيبة وجلالة وحرمة، فويل لمن هتك حرمتها وتعدى على مقامها واشعل النار في دارها، ويل لهم ثم ويل لهم ثم ويل لهم من عذاب أليم في الآخرة يسبقه خزي في الدنيا ولعنة إلى الأبد.. ولهذا كله عندما دخلت المسجد جلست ثم أنت أنت أنه أجهش القوم لها في البكاء فامهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم أفتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على أبيها رسول الله، فأعاد القوم في بكائهم فأمهلت حتى إذا سكتوا عادت في كلامها فقالت: (الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن وآلاها جم عن الاحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمددها، وتفاوت عن الإدراك أبددها وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق باجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها).

الكلام عند أهل البيت رغم وضوحه إلا أنه يحتاج إلى إعمال الفكر والتأمل لأنه عميق المعاني كما قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: أن لكلامنا نوراً وأن عليه لحلاوة، هذا معنى الحديث لا نصه وذلك أنه عليه السلام أراد أن لكلامهم فكراً وعمقاً وفقهاً ومعرفة لأنه كلام يصدر من

قلوب ملئت علماً وإيماناً ومعرفة يضاف إلى ذلك جمال البلاغة والفصاحة والأسلوب وهذا معنى قوله: إن لكلامنا نوراً، لأن النور هو العلم والإيمان والهداية والخير كله، في حين أن الحلاوة هي حلاوة التعبير وجمال الأسلوب والطريقة التي انفرد أهل البيت بها في مخاطبة الناس.

ومن هنا فإننا نقف أمام بحر من المعاني لأن كلام السيدة الزهراء الصديقة الطاهرة هو كلام الله عز وجل بمعنى أنه ليس في كلامها خطأ ولا في فعلها شطط ولا غلط كما أكدت ذلك في قولها: أقول حقاً عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً، وهذا هو الواقع لأنها معصومة وبها تمت كلمة الله صدقاً وعدلاً كما سيمر علينا ذلك وقد يظهر المعنى أكثر عندما نسلط الضوء على الآيات التي تتحدث عن كلمات الله مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١) أو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ..﴾^(٢) وكل ذلك يكشف عن حقيقة كلامهم حيث لا منتهي لمعانيه ولا حدود لمعرفته، غير أننا نكتفي بالقدر الذي تتحمله عقولنا، وتستوعبه أفكارنا وإلا فالمسافة بعيدة جداً بين ما يعلمه أهل البيت وبين ما يعلمه البشر، اللهم إلا أن يمن الله على قلب شديد الولاء وعقل مضاعف بالعلم في شخص امتحن الله قلبه للثقوى، فإنه تنفتح أمامه آفاق واسعة من المعرفة.. ولذلك ورد عنهم عليه السلام أن

(١) الكهف/ ١٠٩.

(٢) لقمان/ ٢٧.



حديثاً صعب مستصعب.. الخ إنما أقول ذلك لندرك أننا أمام بحر من العلم والإيمان والطاقة، ولكن تعالوا نصغي بقلوبنا قبل آذاننا لما يلقيه هذا الخطاب من معاني عظيمة في قلوبنا وعقولنا وأرواحنا.. فهي تبدأ هنا بذكر الحمد لله تبارك وتعالى رغم ما نزل بها من آلام وخطوب فإنها هنا تسلم أمرها إلى الله عز وجل وتتطلق في خطابها موضحة مبادئ الإسلام وأركان الدين وحقوق أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن بينت حق الله وحق أبيها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم تفسر للناس معنى كلمة التوحيد، وكيف يكون العبد حامداً لله شاكراً لأنعمه، فتقول: (الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ألهم والثناء بما قدم).

تأملوا هذه العبارة بدقة وتفكر عميق.. النعمة تأتي من الله، ولكي تبقى لا بد لها من شيئين رئيسيين -كشرطين- الحمد أولاً، والشكر ثانياً، لماذا الحمد والشكر؟ الحمد لاستكمال واستتمام النعمة كما قال الإمام علي عليه السلام: (أحمد الله حمداً استتماماً لنعمه).

إذاً: فالحمد لاستتمام النعمة إذ أن النعم إنما تتم وتكتمل بالحمد والثناء على الله تعالى فهذا شرط أساسي لم يلتفت إليه الناس في الغالب، أما الشرط الثاني الذي يُبقي النعم ويحفظها من الضياع والنفور، فهو الشكر، لأن الشكر يوصل النعمة بالنعمة وتتصل النعم كلها بالشكر، ومن هنا ورد أنه بالشكر تدوم النعم وبالكفر تزول: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾^(١) وأعود فأكرر عليكم

(١) إبراهيم/ ٧.

هذه الجملة أحبتي: النعمة تتم بالحمد، وتدوم بالشكر، وكأن هذه الحقيقة تكشف عن علم يجهله أغلب الناس ولذلك تراهم يتركون الحمد، وينسون الشكر، فتذهب النعم منهم غير راجعة إليهم، وقلما نفرت نعمة ثم عادت إلى أهلها، لأنها سريعة الفوت بطيئة العود في انعدام الحمد وفقدان الشكر.. ودائماً نقراً: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم... ولأن الإسلام من أكبر النعم على البشرية ويحتاج إلى الحمد والشكر لإكماله وابقائه فقد بدأت الزهراء سلام الله عليها خطابها بذكر الحمد، والشكر المتعلقين بنعم الله وآلاءه عز وجل.

على أننا عندما نمشي مع الزهراء في خطابها فإننا نسمعها تذكر الناس المسرعة إلى قبل الباطل التاركة الحق المبين، تذكرهم بأن أمامهم أياماً يشيب فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه، فتقول لهم: «ثم ابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم وأنا بكم انلزمكموها وأنتم لها كارهون».

وكأنها تتحدث عن محنة العالم الإسلامي اليوم وفي هذه الأيام بالذات.

إذاً: فلكي نحفظ النعم والآلاء وننتفع بها، ونستفيد منها، فإنه لا بد لنا من التركيز على ذكر الحمد لله رب العالمين، وعلى الشكر لله عز وجل، علماً بأن كلمة الشكر توحى بالعمل المتواصل كما قال الحق: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١) فهذه النعم الممتدة

(١) سبأ/ ١٣.

من الخلق وتركيب هذه الأجهزة والآلات والأدوات في بدن الإنسان كل ذلك ليقوم الناس بالقسط واشاعة روح الإيمان والحمد والشكر لهذه النعم، أقول: هل تذهب هذه النعم سدىً بلا نفع ولا فائدة؟

كلا .. بل لا بد من الانتفاع بها، والانتفاع بالنعم معناه بناء الحياة الطيبة.. معناه الخلاص من الظلم والجور، والعذاب.. معناه الخلاص من الاغلال والقيود التي وضعها أعداء الله في الأيدي والأرجل وعلى الأعناق حتى ذهبت عزة الإنسان وكرامة البشر تحت وطأة الظلم والقهر.. وهنا تريد الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام أن توقظ الأمة وأن تفتح أمامها أبواب الحقيقة وآفاق الوعي والرشاد حتى لا تسقط هذه الأمة كما تسقط الورقة اليابسة أيام الخريف، فلا زال أمام الأمة متسع من الوقت أن هي أرادت العودة إلى الحق، والرجوع إلى مركز الثقل في الإسلام بيت علي وفاطمة بعد رحيل الحبيب المصطفى محمد ﷺ هذا البيت الذي أذن الله له أن يرفع ويذكر فيه اسمه وقال في محكم كتابه: ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(١).

بخلاف الناس الذين كانوا يتركون النبي في صلاته واقفاً يدعوا ربه، ويسرعون إلى اللهو، أو إلى التجارة فكأن اللهو والتجارة جذبتهم من العبادة وابعدتهم عن الصلاة حتى لو كان الإمام الذي يصلي بهم في

(١) النور / ٣٦-٣٧.



المسجد هو رسول الله ﷺ وقد مرت الإشارة إلى هذا الموقف في سورة الجمعة ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾^(١) وهذا نص صريح أن بعض أصحاب النبي كانوا يتركون الصلاة وينفضون منها إلى التجارة وإلى اللهو، في حين أن أهل البيت لا يعرفون هذه الصفات فقد ذكرهم الله بأحسن الذكر في بيت فاطمة حيث يقول: في بيوت أذن الله أن ترفع - إلى أن يقول - يسبح له فيها بالغدو والآصال - أي في الصباح والمساء - رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة (- لماذا - لأنهم) يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.. الخ. وهؤلاء الذين يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار يقول الله عز وجل عنهم أنهم هم الذين أطعموا المسكين واليتيم والأسير الطعام: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا^(٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا^(١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا^(١١)،

إذاً: فهؤلاء الذين يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار هم علي وفاطمة والحسن والحسين أصحاب سورة الدهر التي مرت علينا بعض آياتها آنفاً فوجدناهم يطعمون الطعام، ويخافون يوماً عبوساً قمطريراً.. وهل بعد هذا الوضوح في الرؤية وضوح أكثر منه؟ لا أعتقد.

وعلى فكرة: في بيوت أذن الله أن ترفع أقول لكم: إن الارتفاع

(١) الجمعة / ١١.

(٢) الإنسان / ٨-١١.



نوعان: ارتفاع بالبدن لرؤية الأشياء وارتفاع بالروح لرؤية الحقائق، وكما أن البدن لا يرى الأشياء بالعين من دون نور الشمس والطبيعة، فكذلك الروح لا ترى الحقائق بالبصيرة بغير نور الإيمان واليقين والمودة لأهل هذا البيت الطاهر.. وهنا نجد الارتفاع والنور في بيت فاطمة عليها السلام، فالارتفاع في قوله: في بيوت أذن الله أن ترفع.. والنور في قلوبنا مثل نوره كمشكاة والمشكاة فاطمة وهي تضيء بنورها الكون كله من هذا البيت الطاهر.. على أن الحق في بيت فاطمة واضح وضوح الشمس وأكثر لا يعيش عنه إلا من كان في هذه الدنيا أعمى وهو في الآخرة أعمى، لأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.. وهذا التدفق في المعرفة يجعلنا قادرين على متابعة خطاب الزهراء سلام الله عليها وهي تخاطب الناس حتى يعرفوا الحق وينصروه.

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم.. وقد ذكرنا في مكان من هذا الكتاب أن النعم ليس في الإمكان عدها، ولا إحصائها غير أننا نذكر أربع نعم منها وهي متصلة على الشكل التالي: نعمة الخلق، ونعمة العقل، ونعمة العلم ونعمة الإيمان والولاية، فإله يقول: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾^(١) أي كان شيئاً غير مذكور أو ربما يكون معناها كما ورد في كتب التفسير والحديث لم يكن شيئاً مذكوراً على الإطلاق، وهذا كان قبل عالم الذر، وإلا فنحن البشر نمر في عوالم متعددة منها عالم الذر وفيه يؤخذ الميثاق منا على الإيمان والولاية، ليس منا نحن البشر

(١) الإنسان / ١.



العاديين فقط بل وأيضاً يؤخذ الميثاق من الأنبياء والرسل كما ورد ذلك في سورة آل عمران في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١).

وهذه الآية صريحة وواضحة في دلالتها على أن الله عز وجل كان قد أخذ الميثاق والعهد من الأنبياء والرسل كافة لحبيبه المصطفى محمد ﷺ يتعهد الأنبياء والرسل من خلال هذا الميثاق بنصرة النبي محمد ﷺ في أممهم وتبليغهم والتبشير به واعلام الأمم بحياة رسول الله ﷺ وأهل بيته وما يصيبهم من أذى وما تجري عليهم من مصائب وذلك واضح لمن يلقي نظرة على القرآن الكريم خصوصاً في سورة مريم وطه والأنبياء حيث يجد القارئ أن الله عز وجل قد تكفل بذكر الأنبياء وقصصهم وما جرى عليهم في ماضي الزمان وغابره، وقد مرت آيات تشير إلى ذلك حتى أنها -أي الآيات- تسجل تدويناً كاملاً لكل ما يجري على الإنسان من اتراح وأفراح ومصائب كل ذلك في كتاب أي أن لكل مصيبة كتاب ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ (٢) فإذا كانت المصائب الواقعة على الناس مكتوبة ومدونة في كتاب من قبل أن يبرأها الله ويخلقها فما

(١) آل عمران / ٨١.

(٢) الحديد / ٢٢-٢٣.



بالكم بأعظم مصيبة في تاريخ الوجود وهي مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، ومصيبة فاطمة الزهراء عليها السلام ومصيبة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بأهل بيته لأن هذه المصائب التي مر ذكرها إنما هي مصائب النبي أولاً وقبل كل شيء ولعل قوله: (ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت) فيه إشارة إلى هذا الجانب بالذات مع بقية الجوانب لأن النبي هو المعزى بهم وهو صاحب العزاء.

فتحن إذاً: نمر بعوالم شتى ومتعددة ومنها عالم الذر الذي جرت فيه صفقة البيع والشراء بين العبد أو العباد وبين الله، فאלله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بثمن الجنة، وهم باعوه أياها، أي باعوا ربهم أموالهم وأنفسهم في ساحات الجهاد والقتال وبذل المال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١) ولماذا اشترى الأنفس والأموال؟ لأن الإيمان قائم على هذا الأساس من التضحية فلولا تضحيات المؤمنين بأموالهم وأنفسهم لما حفظ الحق ولا انهارت دعائم الإسلام وتحولت الحياة إلى سجن مظلم كما قال الإمام المظلوم أبو عبدالله الحسين عليه السلام: «أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وتنكرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلا صباغة كصباغة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا شقاءً وبرماً»، وهذا هو الواقع بعينه.

(١) التوبة/ ١١١.

على أننا حين نرجع إلى صفقة البيع والشراء في عالم الذر والملكوت نجد أن المؤمن تظهر عليه خصلتان من خصال الخير والإيمان، وهما: الشجاعة والكرم، فلا يكون المؤمن جباناً، ولا بخيلاً، أبداً لأن الإيمان ضد البخل والجبن، أن البخل والجبن والحرص والطمع غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله عز وجل كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام.

ومن هنا فإن المؤمن يحتاج إلى صفة الكرم والسخاء لبذل المال والإنفاق، ويحتاج إلى الشجاعة للتضحية بالنفس من أجل نصرة الحق. على أن المسألة الجديرة بالاهتمام هي أن الزهراء سلام الله عليها كانت قد ركزت في خطابها العظيم هذا على هاتين الصفتين: الشجاعة والكرم، لبذل من أجل الحق بالمال والنفس وإلا فما قيمة المعرفة للحق من دون نصرته؟ وبالمثل أن هؤلاء الذين كانوا في المسجد واستمعوا إلى خطاب فاطمة، كانوا يعرفونها ولكنهم خذلوها ولم ينصروها، فعاد خذلانهم عليهم وبالأوبؤساً وشقاءً وخزياً في الدنيا والآخرة، وإلا ماذا تراهم يقولون أمام رب العالمين يوم يجمع الله الأولين والآخرين ويناشدهم من منكم نصر فاطمة ومن منكم خذلها ولم ينصرها؟ أجل أن هناك يوماً يعرض فيه الظالم على يديه ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾^(١) وذلك يوم مجموع له الناس ويوم مشهود، وفيه مشهد من أشد المشاهد حرارة وألماً وحسرة بحيث يحشر في ذلك اليوم الظالم الأول الذي ظلم

(١) الفرقان / ٢٧.



فاطمة وتسبب في قتلها وقتل جنينها المحسن وساعده على ذلك صاحب له اسمه فلان كما يذكره القرآن الكريم، في يوم يقف فيه النبي محمد ﷺ يرفع الشكوى إلى الله عز وجل يشكو قومه لأنهم لم يعملوا بالقرآن وهجروه وقتلوا عترة الهادي الأمين وهاكم اقرأوا هذه الآيات إذا شئتم من سورة الفرقان ما دمنا نتحدث عن العوالم التي تمر بها والتي ذكرتها الزهراء في خطبتها هذه فهاكم هذه الآيات الكريمة فاستمعوا لها وانصتوا بقلوبكم وأذانكم لئن المشهد مؤلم وحزين يقف فيه رسول الله حزينا يشكو مظلوميته ومظلومية أهل بيته، ثم يحضر الظالم الأول الذي أوقع الظلم على هذا البيت الطاهر وأحرقه بالنار وتعدى على مقام الزهراء فاطمة عليها السلام التي يرضى الله لرضاها، ويفض بلفضها.. ولكن هناك حيث تتكشف الحقائق يعرض الظالم الأول على يديه حيث لا ينفع الندم ولا الحسرة ولا هم يستعقبون:

﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (١).

وهناك يفتح المشهد على الحق فإذا هي شاخصة أبصار الظالمين، ويتقدم هنا رسول الله ﷺ في موقف لا يعلم مداه إلا الله عز وجل في

(١) الفرقان / ٢٥-٣١.



ذلك اليوم الذي تجيء فيه فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها
 فينادي المنادي من بطنان العرش: ألا يا أهل المحشر غضوا أبصاركم
 حتى تجوز فاطمة بنت محمد فتأتي تحمل قميص الحسين مضمخاً
 بالدماء، وتبدأ بعرض ظلاماتها ورسول الله ﷺ يشكو ويقول: يا رب
 إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وذلك أنهم لم يعملوا به ولم
 يطبقوه وإنما تركوه وراء ظهورهم كما قالت لهم فاطمة في خطبتها:
 (وهذا كتاب الله أموره ظاهره وأحكامه زاهرة رغبة عنه يريدون أم غيره
 تحكمون بئس الظالمين بدلاً ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه
 وهو في الآخرة من الخاسرين) وهي اليوم في ساحة المحشر ترى أباهما
 رسول الله على الحوض وبعلمها أمير المؤمنين إلى جانبه وهما يسقيان
 الناس فيرتوي الناس من العطش باستثناء الذين ناصبوهم العدا
 ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ
 إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾^(١) وهؤلاء العاملة
 الناصبة^(٢) -يعملون ولكنهم ينصبون العدا لأهل البيت- تراهم اليوم
 يقفون وهم - ناكسون رؤوسهم- ينظرون من طرف خفي كل ذلك
 يحصل في ذلكم اليوم الحق، وهنا يعرض الظالم على يديه -وهذا
 الظالم هو أول ظالم لآل محمد وقد ورد ذكره في زيارة عاشوراء (اللهم
 ألعن أول ظالم ظلم حق محمد وآل محمد وآخر تابع له على ذلك،
 اللهم العن العصاة التي جاهدت الحسين وشايعت وتابعت على قتله،
 اللهم العنهم جميعاً) أقول: ورد ذكر الظالم هذا الذي وقف يلفه الخزي

(١) الفاشية / ٣-٧.

(٢) الكافي: ج ٨ - ص ٥٠.



والعار والنار تراه من بعيد فتزأر ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا...﴾^(١) تكاد تميز من الغيظ كل ذلك وأكثر يظهر على النار أنها هي أيضاً تغضب لغضب فاطمة بل كل شيء في الوجود يغضب لغضب فاطمة ويرضا لرضاها، أليس الله عز وجل هو الذي يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها؟ فقد ورد في الحديث أن لفاطمة وقفة على النار، تزفر النار فيها زفرة لا يبقى أحد إلا انخلع قلبه من فزعها وهولها وسيأتي الكلام عنها في وقت لاحق من هذا الكتاب، المهم يفتح هذا المشهد الرهيب الذي تقشعر له القلوب والأرواح في يوم الجمع ذلك يوم التغابن، ويوم الحسرة ويوم يعرض الظالم فيه على يديه، وهو يردد قوله: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، أي سبيل الحق، سبيل ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي جرت البيعة فيها يوم الغدير، وكان هذا الظالم حاضراً في ذلك اليوم لأنه كان مع النبي يدل على ذلك قوله: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً.. فقد بايع هناك وقال: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، هذه المقولة قالها غير واحد من الذين شهدوا يوم الغدير، غير أن الظالم هذا يبقى صاحب الشهرة التي لا يرقى إليها الشك في أنه هو الذي ظلم آل محمد بل هو أول ظالم تعدى حدود الله، ولم يحفظ رسول الله في أهل بيته، ثم يواصل المشهد أمامنا والظالم لا زال عاضاً على يديه يردد كلماته في حسرة وندامة وخزي وعار: ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً، وفلان هذا هو من أصحاب النبي ﷺ لكنه من المنافقين الذين صورتهم سورة المنافقون في آياتها وحروفها وكشفت نياتهم السيئة

(١) الفرقان/ ١٢.

وسرائرهم الخبيثة ثم وصفتهم بأنهم أشر خلق الله على الإطلاق، وها هو واحد منهم يتلوى فزعاً من شدة هول الموقف ويلقي باللائمة على خليله فلان (ليتني لم اتخذت فلاناً خليلاً) إن الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.. وهذا هو الحق والواقع فالشيطان عدو لنا جميعاً، ويجب أن نتخذه عدواً لا خليلاً، فالذي يتخذ الشيطان خليلاً فقد ساء خليلاً وقريناً وعاقبة وجحيماً.

على أن القرآن بيّن في وضوح في نفس هذا المشهد، أن الظالم هذا إنما هو من كبار المجرمين الذين كانوا يؤذون النبي وأهل بيته، ثم يؤكد القرآن ذلك بأن هذه سنة الله في الوجود فما من نبي إلا وله عدو من المجرمين لأن الأنبياء أصحاب حق ورسالة وأصحاب الحق يجب أن يواجههم أهل الباطل، لأنه في النهاية فريق في الجنة وفريق في السعير، وفي هذا عبرة لمن كان له قلب يفكر فيه -يقول الحق في ذلك ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(١) وكان الظالم هذا الواقف في ساحة المحشر يعرض على يديه هو السبب المباشر في أن يهجر القوم القرآن ويتخذوه مهجوراً، أي أنهم عاملوا القرآن بالهجر غير الجميل، ثم يستمر الخطاب واصفاً هذا المشهد موضحاً أن لكل نبي من الأنبياء ولكل رسول من الرسل جعل الله عدواً من المجرمين، فالله لم يجعل هذا العدو المجرم جبراً ولا قسراً ولا كرهاً وإنما هي سنة الحياة فهناك تقابل ومواجهة بين الحق والباطل

(١) الفرقان / ٣٠.



وبين النور والظلام، وبين الصلاة والارتداد، وبين العلم والجهل وحسب هذا القانون الذي تجري من خلاله الأشياء والحقائق يكون هناك أعداء للأنبياء والمرسلين وأعداء الأنبياء يتعاضم شرهم وأذاهم بقدر عظمة ذلكم النبي الذي يحاربونه، وقطعاً في خاتم الأنبياء والمرسلين يكون الأمر قد بلغ مداه وأقصى عقابه، لأنه كلما عظمت القلوب وكبرت النفوس كلما زاد عدد الأشرار ضد هؤلاء الأبرار الأخيار.

يقول الحق سبحانه موضحاً هذه الحقيقة التي ليس عليها غبار بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (١).

وأعود بكم إلى أصل الحديث فأقول: إذاً: فإن فاطمة الزهراء سلام الله عليها، دعت الناس إلى معرفتها ونصرتها غير أنهم بدل أن ينصروها، عدوا عليها فخذلوها واجتمعوا على قتلها وإحراق دارها وكان لها ذلك الموقف العظيم في ساحة المحشر في يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سراييلهم من قطران وتغشى وجوههم النار.

إذاً: فقد أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسل أن ينصروا النبي وأهل بيته، وفي الأخبار أن الله أخذ الميثاق منهم لنصرة فاطمة الزهراء إذ كانت طاعتها مفروضة على الخلق كافة كما سيمر هذا البحث علينا في المستقبل القريب في هذا الخصوص.

(١) الفرقان / ٣١.



أجل كنا نتقلب في عوالم شتى في عالم الذر ثم انتقلنا إلى عالم الأصلاب -أصلاب الآباء- ثم عالم الأرحام، ثم عالم الحياة الدنيا، ومنها سوف نرتحل إلى عالم الآخرة وهو ليس عالماً واحداً، وإنما هو عوالم متعددة ومنها عالم القبر والبرزخ وعالم الحساب والصراط، وعالم القيامة، وعالم الآخرة وعالم الجنة والنار بل يمكن القول أن العوالم في الآخرة بعدد نفوس الخلائق يجمعها عالم واحد هو عالم المعاد، على أننا لم نذكر هنا عالم الرجعة والكرة من الآخرة إلى الدنيا وذلك في ظهور الوعد الحق، في خروج صاحب الحق، صاحب العصر والزمان، صاحب الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فهذه أيضاً تدل على عالم اسمه عالم الرجعة وقد ذكره القرآن الكريم في آيات عديدة وهي قضية مسلمة وثابتة في عقائدنا شيعة آل محمد ليس عليها غبار ولا شك ولا ريب، وهي من أصول العقيدة فقد ورد في الأخبار: ليس منا من لم يؤمن برجعتنا.. وفي الزيارة التي نزور بها الإمام الحسين عليه السلام نخاطبه بهذا الخطاب: إني بكم مؤمن وبإيابكم موقن بشرائع ديني وخواتيم عملي وقلبي لقلبيكم سلم وأمري لأمركم متبع.

عودة على بدء:

إذاً: فالنعم التي لا يمكن عددها، ولا احصائها نأخذ منها أربع نعم فقط كما مر علينا وهي على التوالي نعمة الوجود، ومر الكلام عليها ثم نعمة العقول لأنه لولا العقول لما استطاع الواحد منا أن يستثمر وجوده وينتفع بعمره وحياته، ولأن العقل لا يعمل بغير علم فان العلم يعد النعمة الثالثة بهذا الترتيب المذكور من هنا كان العقل أول شيء



خلقه الله - على أن اثبات الشيء لا ينفي ما عداه - ثم استتطقه فقال له: اقبل فاقبل ثم قال له: ادبر فادبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب.. إلى آخر الحديث أخذنا موضع الحاجة وهو موجود في أول كتاب الكافي^(١).

على أن الملاحظة الجديرة بالاهتمام في هذا الحديث قول الحق له: (ولا أكملتك إلا فيمن أحب) أي أن العقل لا يكتمل إلا في رؤوس الذين يحبهم الله عز وجل وهذا شرف عظيم، ومنصب خطير يمكن أن يصله الإنسان المؤمن، ولك أيها القارئ أن تقرأ وتعد وتحسب الذين يحبهم الله عز وجل، هذا بقطع النظر عن الأنبياء والرسل، والنبى الأعظم وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، فإنك تجد علامات يستدل بها على الصالحين الذين أكمل الله عقولهم لأنه أحبهم بشروط وعهود فحققوا تلك الشروط ووفوا بتلك العهود، ومنها على سبيل المثال مودة أهل البيت التي ذكرها الله في آية صريحة في القرآن الكريم تتلى آناء الليل وأطراف النهار ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١) فلما أذهب عنهم الرجس وطهرهم أمرنا بمودتهم ومحبتهم - علماً أنهم بعيدون عن كل شيء يشير أو يحكي الرجس في الحياة لأنهم خلّقوا من نور عظمة الله عز وجل وكانوا أنواراً بعرشه محققين، ولكن مع هذا كله نقول: إن الله عز وجل لما أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بعلمه الذي لا حدود له، أمر الناس بمودتهم

(١) الكافي - مجلد: ١ صفحة: ١٠.

(١) الأحزاب/ ٣٣. (بحار الأنوار - مجلد: ٢٥ - ص ٢١٢ - باب: ٧).



ومحبتهم وولايتهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (١).

وفي آية ثانية.. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢) فكانوا هم السبيل إلى الله، وهم الطريق الذي يوصلنا إلى الحق وإلى رضوان الله تبارك وتعالى وهذا هو الحق الذي لا لبس فيه واليقين الذي لا يخامره شك ولا ريب.

إذاً: فبالمودة لآل رسول الله تكتمل العقول وبغيرها تظل ناقصة غير كاملة ولا فاعلة.. ومن هنا عندما تسمع أن الله يحب من أحب فاطمة لأنه يغضب لغضبها ويرضى لرضاها، تدرك أن حب فاطمة يكمل العقل، بل أن العقل لا يكتمل إلا بحبها وحب أبيها وبعلمها وبينها، بل حتى عندما تقرأ الحديث المشهور: حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا، فإنك تدرك على الفور أن حب الحسين ينفع الناس في إكمال عقولهم والعقل الكامل هو العقل الذي يدخل صاحبه الجنة ويمنحه السعادة في الحياة الدنيا حيث يعيش حياة طيبة، ومن هنا كان البكاء على الحسين لإحياء القلوب وإكمال العقول وهذا هو النجاح بعينه، فما من دمة تفيض بها العين على الحسين إلا وهي عامل كبير لإكمال الفكر والوعي والرشد والعقل.

إذاً: فهذه النعمة العقلية التي يذكرها الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام على أنها تشكل حجة كبيرة لله مع الأنبياء

(١) الشورى/ ٢٣. (بحار الأنوار - مجلد: ٢٣ - ص: ٢٥١ - باب: ١٣).

(٢) الفرقان/ ٥٧.



والرسل والأئمة فيقول: إن لله حجتين: ظاهرة وباطنة ثم يفسرها بالعقل والأنبياء والأئمة، أقول: إنما كانت هذه النعمة -نعمة العقل- عاجزة عن الوصول إلى كمالها بغير العلم المنبعث من دار فاطمة من بيت علي وفاطمة عليهما السلام وذلك أن العقل يتغذى بالعلم، والعلم هو الآخر يحتاج بدوره إلى نعمة الإيمان إذ لولا الإيمان لتحول العلم إلى نقمة ومصيبة كبيرة إذ لو كان في العلم من دون التقى شرف لكان أشرف خلق الله إبليس.. فهذا العلم الممزوج بالإيمان هو الذي يرفع الناس درجات ودرجات ومنازل ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١) وهذا الارتفاع الذي سببه العلم والإيمان لا يتحقق إلا ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾^(٢) وهذا البيت هو بيت فاطمة الزهراء عليها السلام.

ومن هنا كانت نعمة الإيمان تحتاج إلى ولاية أهل البيت عليهم السلام، وخلاصة القول: إن الولاية هي الأساس في هذه النعم لأنها لا تتم إلا بها وقد قال الحق سبحانه في محكم كتابه يوم الغدير:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣) فالدين لا يكتمل إلا بالولاية والولاية هي التي تجعل النعم تامة وكاملة.. إذاً: فكل النعم تعتمد على الولاية فإذا تمت الولاية تمت النعم كلها: وأتممت عليكم نعمتي - بولاية علي أمير المؤمنين صلوات الله

(١) المجادلة/ ١١.

(٢) النور/ ٣٦.

(٣) المائدة/ ٣.

وسلامه عليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره
واخذل من خذله، وادر الحق معه حيثما دار.

إذا: فالزهراء عليها السلام عندما تفتتح خطابها بذكر النعم فإنها تريد
النعم الكاملة والآلاء التامة التي لا تتم إلا بمعرفة أهل البيت ومحبتهم
ومودتهم ونصرتهم، وإلا فالدين يظل باهتاً سطحياً ليس فيه عمق ولا
نور تخترقه الشياطين كل حين لأنها تنزل على كل أفاك أثيم، يسمع
آيات الله تتلى ثم يصبر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم.

إلى هنا وصلنا إلى إعطاء صورة واضحة عن أربع نعم من نعم الله
التي لا تحصى.. ونواصل البحث في شرح وتفسير خطبة الصديقة
الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.



مدرسة الوعي عند الزهراء عليها السلام

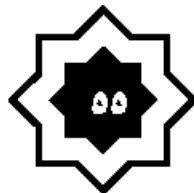
﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

ومن يتأمل هذه الآية تطلع عليه الأفكار التالية:

أولا - الفقه والتفقه في الدين لا في غيره من المسائل الثانوية والجانبية، وإنما هو تفقه في الدين، وإذا صار التفقه في الدين، فإن ذلك معناه التفقه في الأصول أولاً وقبل كل شيء، أي التفقه في التوحيد على غرار خطبة الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، والتي يصف فيها معالم التوحيد بأنها هي الطريق الواضح الذي يوصل الانسان إلى بر الأمان، وشاطئ السعادة، ومروج الحرية والانعقاد، لأن الحرية لا تتطلق الا من العبودية الصحيحة المخلصة، وهذه تعتمد على كلمة التوحيد التي ملئت اخلاصا وعملا وصدقا، ففي هذا السياق تقول الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها: (وأشهد ألا اله الا الله وحده لا شريك له كلمة جعل الاخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وانا في التفكير معقولها، الممتنع من الابصار رؤيته ومن الالسن صفته ومن الاوهام كيفيته).

ولعلني لا أعدو الحقيقة، اذ قلت اني لم أصادف في حياتي طوال أيام دراستي واهتمامي باخذ العلم وحمله ونشره، كلمة جمعت التعبير

(١) التوبة/١٢٢.



كله في معنى التوحيد مثل هذه الكلمة، وان كان اثبات الشيء لا ينفي ما عداه، ففي مدرسة أهل البيت من أمثال هذه الكلمة يوجد الكثير ولكن ليس في قوتها وجمعها لمعاني التوحيد كله، ففي قولها: كلمة جعل الاخلاص تأويلها، نجد أنها جعلت العمل تأويلاً وترجمة لكلمة التوحيد لان الاخلاص لا يظهر الا بالعمل، يضاف الى ذلك ان الاخلاص انما تجسيد حي للأشياء وللحقائق فمن دونه لا تظهر حقيقة ولا يعرف من الكذب ولا الحق من الباطل ولا الليل من النهار وهذا مثال جرى على لساني وقلمي وبياني، لاوضح فيه حقيقة ربما تغيب عن اذهان البعض وهي أن لكل فكرة تجربة عملية تظهر حقيقتها، لان الفكرة تظل مغلقة لا تتفتح اسرارها الا بالعمل والتطبيق، ومن هنا كانت كل مشكلات الارض، انما تنشأ من أحد شيئين أو من كليهما وهما: مجال الفكر، ومجال الفعل، فاذا وقع خلل في مجال الفكر ادى الى صنع المشكلة في ذلك المجال، وكذلك إذا وقع خلل في الفعل والعمل والتطبيق ظهرت المشكلات تعصف في حياة الناس جميعا، وربما اجتمع العاملان: خلل في الفكر وخلل في التطبيق كما هي الحال في ما يجري اليوم فوق الكوكب الحزين المتهالك تحت ضربات البغي والعدوان، والظلم والجور.

هذا من جانب ومن جانب آخر، فانه لا علاج ولا معالجة للأرض ومستقبلها الا بالعودة الى حديث الثقلين الذي هو تأويل حي وتجسيد فعلي وعملي لكلمة التوحيد التي ذكرتها الزهراء عليها السلام فاوضحت ان هذه الكلمة تتمتع بخصوصية بالغة وهي أن تظهر آثارها على القلب والعقل واللسان، والجوارح والافعال، بل يجب أن يظهر اثر هذه الكلمة، - كلمة التوحيد - على كل آلة نقلها، وكل جارية نحرها، وكل أداة



نتصرف فيها، وذلك ان لكلمة التوحيد حضوراً شاملاً ونوراً يخرق الحجب ويسقط كل الموانع والأغلال والقيود، لذلك قالت الزهراء عليها السلام مبينه هذه الآثار العجيبة لكلمة التوحيد: كلمة جعل الاخلاص تأويلها أي أن الاخلاص الذي هو العمل وكل العمل إنما يظهر من خلال هذه الكلمة المعجزة، فلا اخلاص في باطل، ولا اخلاص في الكفر، ولا اخلاص في شرك، لان الاخلاص حالة معينة تنشر نورها على القلب فيخشع، وعلى العقل فيتفكر ويتأمل وعلى النفس فتستكين على الحق، وعلى الجوارح فتسعى الى العمل من أجل اثبات هذا الحق، وعلى الآلات والأدوات فتأخذ طريقها الى الحق والصدق والسعادة والحرية والانعتاق، والتواء في هذا الطريق الواضح العظيم.

على أن فاطمة عليها السلام أعطت ها هنا أبعاداً لا يحيط بها الخيال لكلمة التوحيد هذه اذ جعلت لها أجنحة من القوة الفكرية تجوب بها آفاق القلوب، والعقول والأنفس والجوارح، لأن الله عزوجل جعل الأشياء والحقائق والمبادئ والقيم وكل الشعائر والمناسك منقادة لكلمة التوحيد، وتابعة لها، لذلك قالت الزهراء عليها السلام هذه الكلمة القيمة الذكية: أشهد الا اله الا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الاخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وانا في التفكير معقولها الخ.

ونلاحظ ها هنا آثار القوة في هذه الكلمة، فهي تنطلق من القلوب الحرة السليمة فتضيء العقول بالتفكير والافكار العظيمة الصائبة، ثم تخرج من الافواه والالسن لتضيء الدروب والطرق أمام الإنسان الحر الأبى الرافض للإستغلال والعبودية والذل والهوان، فهو دائماً يصرخ قائلاً.. : وهيئات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله، والمؤمنون.. ثم

تبدأ الجوارح تعمل بوحي هذه الكلمة، ومن هنا وردت الأحاديث عن الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

تصور الكلمة هذه بالشجرة التي تثبت بالقلوب ثم تنشر أغصانها وأوراقها على الجوارح والعقول في خطة حكيمة ونظام بديع ليس له نظير، ولا فيه خلل ولا غلط.

على أن القرآن الكريم قد أشار الى هذه الحقيقة حينما صور الكلمة الطيبة، وهي كلمة التوحيد، بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها الخ.. أي ان عطاءها من ثمرات العلم والنور والمعرفة والأخلاق، وكذلك عطاءها من الخير والبركة والرحمة عطاء لا ينقطع أبداً ولا ينضب لا في الليل ولا في النهار، بل هو متدفق في تغذية الفطرة والإنسان والكون والشيعة والحياة كل حين وكل لمحة من البصر.

إذن: فآية التفقه التي وردت في القرآن الكريم وذكرناها في اول هذا المبحث، لا تريد تعلم المسائل الفقهية هذه فقط وانما المراد بالتفقه ايجاد حالة وتكوين نفس وقورة، خائفة، مع قلب خاشع لله رب العالمين، وهذا هو الحق يقول الشهيد الثاني في منية المريد:

ان مجرد تعلم هذه المسائل المدونة ليس هو الفقه عند الله تعالى، وانما الفقه عند الله تعالى، بإدراك جلاله وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى، ومعرفة الصفات المخوفة فيجتنبها والمحمودة فيرتكبها ويستشعر الخوف ويستثير الحزن كما نبّه الله تعالى عليه في كتابه بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ



لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٥٩﴾ والذي يحصل به الانذار غير هذا العلم المدوّن، فان مقصود هذا العلم حفظ الاموال، بشروط المعاملات وحفظ الابدان بالاموال، وبدفع القتل والجراحات، وانما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق الى الله تعالى، وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة، وهي الحجاب بين العبد، وبين الله تعالى، فاذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله تعالى ومن ثم كان العلم موجباً للخشية).

وفي هذا الخصوص يقول أمير المؤمنين علي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام في معرفة الفقيه الجامع للشروط: (الا انبئكم بالفقيه حق الفقيه من لم يرخص الناس في معاصي الله، ولم يقنطهم من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه).

وفي هذا المجال نوّكد مرة أخرى ان التفقه في الآية ليس المراد به تعلم المسائل الفقهية المألوفة فقط وانما المراد بالتفقه في الدين، معرفة كلمة الاخلاص وكلمة التوحيد، وأصول الدين وشرائعه، على أن هنا أيضاً ليس هو المطلوب بذاته وانما المطلوب خلق حالة في النفس تبعث على الخشوع والتواضع والمعرفة والتأمل والتدبر والتفكر، وهذا هو الذي أشارت اليه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها أفضل الصلاة وأزكى السلام بقولها: أيها الناس اعلموا أني فاطمة! حيث قدمت قبل هذا الإعلان نموذجاً رائعاً في التقوى، والعلم والمعرفة، اذ قالت: فاتقوا الله ولا تموتن الا وانتم مسلمون، ثم قالت: (فانه) انما يخشى الله من عباده العلماء، ثم بعدها مباشرة قالت: أيها الناس



اعلموا اني فاطمة، ومعنى ذلك ان معرفتي - والقول لفاطمة عليها السلام -
تحتاج الى علم ودراسة ومعرفة تسبقها تقوى وخوف من الله واخلاص
في العبادة، لان العلم لا ينشأ بكثرة النعم وانما هو نور يقذفه الله في
قلب من يحبه، وفي قلب من يشاء الله له ان يصبح عالماً ويكون فقيها
متحدثاً ناطقاً بالحق، ومن هنا فانه ليس في مقدور كل أحد معرفة
الزهراء عليها السلام بل إن الخلق فطموا عن معرفتها ولكن لا بأس بالمعرفة
الاجمالية لا التفصيلية حيث انها ممتعة أبداً على كل الخلق باستثناء
الرسول ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين..

إذن: فالتأمل في آية التفقه هذه يفتح أمامنا آفاقاً واسعة من العلم
والمعرفة حيث تظل لهذه الآية خصوصية تتفرد بها دون بقية الآيات
التي وردت في العلم والحث على دراسته وطلبه، وكون هذه الآية
الوحيدة التي اظهرت ان التفقه انما هو في الدين اولا قبل ان يكون في
الفروع، فانها تجعلنا امام مسؤولية كبرى، وتضع انفسنا في موطن
الرغبة في العلم، والعزيمة على المعنى في هذا الطريق الواضح اللذيذ.

ومن هنا كان الفقهاء الذين سبقوا عصرنا هذا يتفقهون في الدين
قبل ان يتفقهوا في أبواب الفقه المعروفة والمألوفة لدى الحوزات العلمية
الكريمة، فتراهم يتفقهون في آية التطهير وطهارة القلوب والارواح قبل
ان يتفقهوا في آية المياه وطهارة الماء والارض والشجر، وما على ذلك
من أشباه يمكن ندرجها ها هنا في هذا السجل.. فالشيخ الكليني في
الكافي كان فقيها في كتاب الحجة والامامة وكتاب العقل والعلم قبل ان
يكون فقيها في كتاب الفروع، وكذلك الصدوق حيث كان فقيها في
اكمال الدين واتمام النعمة، قبل ان يكون فقيهاً في من لا يحضره



الفقيه، وما يقال في الكافي والصدوق يقال في الشيخ المفيد الذي كان فقيها في مباحث الامامة وقضايا الولاية قبل ان يكون فقيها في فقه المقنعة، وما ينطبق على هؤلاء الفقهاء ينطبق على العلامة الحلي الذي كان فقيها في الالفين قبل ان يكون فقيها في التبصرة والتذكرة وأخيرا اقول لكم لقد كان العلامة المجلسي في البحار فقيها في مجالات الامامة والولاية، قبل ان يكون فقيها في مسائل الفقه من الطهارة الى الديات، واخر عالم رايته على هذا المنوال هو السيد عبدالحسين شرف الدين، الذي كان فقيها في المراجعات والنص والاجتهاد والفصول المهمة، واجوبة مسائل جار الله قبل ان يكون فقيها في المسائل الفقهية التي طبعت اكثر من مرة، واذا شئتم فأضيفوا الى هؤلاء الشيخ المظفر صاحب كتاب احقاق الحق ونهج الصدق الذي هو عبارة عن تبيان وتوضيح لمقام امامة سيدنا ومولانا علي أمير المؤمنين عليه افضل الصلاة وازكى السلام.

على اننا نستطيع ان نخرج بفائدة من كل ذلك مفادها: ان الفقيه كل الفقيه هو الذي حفظ دينه وصان نفسه واطاع مولاه وعصى هواه، فالذي يعصي الهوى ويطيع المولى، ويصون الدين، ويحفظ النفس أو انه يصون النفس ويحفظ الدين انما هو الذي يعصى الهوى ويطيع المولى وهذا هو الورع النقي الذي تساعده التقوى على الاجتهاد، ويعينه الورع على السداد، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: ولكن اعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد، وذلك ان العفة تؤدي الى السداد وفي القول والعمل، والورع ينتهي الى الاجتهاد لان الحرام يسد منافذ القلب ويجعل العقل أسيرا بأيدي الهوى، ومن هنا كان أكل الحرام يسبب عدم القدرة



على التفقه في الدين، فالذين ملئت بطونهم من الحرام لا يمكن لهم ان يتفقهوا في الدين، وهذا - لعمري - حكم ينتشر في القلوب والارض جميعا، فاذا كان الحرام يسد العقول، ويسلب التوفيق على فعل الخير، وعن الفقه، فماذا تقولون ايها الأحبة بأرض ملئت ظلماً وجوراً، فهل يمكن ان يصل فيها احد على مشارف الفقه والتفقه في الدين، ولقد خاطبهم الامام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بقوم (فلقد ملئت بطونكم من الحرام وطبع على قلوبكم) والذي يطبع على قلبه لا يمكن أن يفقه او يتفقه، والويل كل الويل لمن يأكل اموال الناس بالباطل، والويل كل الويل لمن يأكل الحقوق بالباطل فيتعم بها في هذا المجال، في الوقت الذي يموت فيه الملايين فمن لهم الحق في هذه الأموال في الجوع والفقر، والذل والحرمان.. ولهذا الغرض بالذات أجد بعض الذين يزعمون ان لهم نظرة في الفقه، ويذا في الاجتهاد، اجدهم أبعد الناس عما اظهروا للناس انهم فقهاء في هذا المجال، وفي هذا المشوار، وخذ على سبيل المثال مسألة فقهية يذكرها البعض وهي خاصة بحدود حرم الإمام الحسين عليه السلام وحدود الحائر الحسيني بالنسبة لما يخص الصلاة قصرا او تاما، فنجد مسائل متعددة في هذا المجال ولكنها تنقسم الى قسمين:

قسم يجعل الحائر الحسيني في حدود أمتار من القبر إلى الصحن الشريف، وقسم آخر يجعل الحائر ممتدا على بعد خمسة فراسخ من اربع جهات القبر، وهذه الروايات كلها موجودة في أصح الكتب ومنها كامل الزيارات الذي لا يقبل سندا ومن لا يحضره الفقيه والتهذيب والاستبصار، بل أن بعض الواعين من اهل الفقه والدراية يرفعون

الكامل هذا درجات فوق الكتب المذكورة، وإن كان اثبات الشيء لا ينفي ما عداه، اقول : فالفقيه الواعي هو الذي يأخذ الرواية التي تنطبق على الواقع الخارجي، لا الرواية التي تضد الواقع الخارجي، فالواقع الخارجي هو ان كربلاء المقدسة يؤمها في كل عام الملايين من البشر في مسيرات ومواكب ليس لها نظير ولا مثيل في الارض ففي يوم واحد وهو يوم الاربعين، الواقع في العشرين من شهر صفر من كل عام يؤم كربلاء من الزائرين قرابة عشرة ملايين زائر، ولبعض العارفين ان يقول: ان العدد اكثر من اربعة عشر مليوناً من الناس يقصدون كربلاء مشياً على الاقدام من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال والولدان، في مسيرة يراها العالم كله ليس فيها مبالغة، ولا تجاوز على الحدود، على ان الغرابة تذوب تذوب ها هنا عندما نعلم ان كربلاء المقدسة انما هي ارض من أطهر بقاع الجنة وافضلها، لذلك فهي آخر مثل الارض ولكنها ليست مثل الارض في خصائصها وفضائلها ومواصفاتها، فهي من خصائصها انها ارض لا تضيق باهلها وزوارها ابداً انها تستوعب عشرات بل مئات الملايين من الناس ولمن شاء ان يتفكر فما عليه الا ان يوازي بين كربلاء وما يقصدها من زوار وبين الكعبة وما يقصدها من حجاج ففي الكعبة لا يزيد عددهم على الثلاثة ملايين ومكة تضيق بهم ذرعاً في حين أن كربلاء يزيد عدد زوارها على العشرة ملايين وهي لا تضيق بهم ذرعاً أبداً، سوى ما يصنعه الانذال والحاقدون الذين يضيقون على زوار الحسين بقطع الماء والتيار الكهربائي وباحداث وافتعال بعض الحوادث التي تقطع عليهم الطريق غير انهم مع ذلك كله، يواصلون مسيرهم وينطلقون باشعار واهازيج واصوات حزينة مرددين: يا حسين يا حسين يا حسين..



اقول: فالفقيه الواعي هو الذي يأخذ برواية الخمسة فراسخ من اربع جهات الحائر لأنها رواية تنطبق على الواقع الخارجي لوجود الحشود كلها داخله ضمن هذه الرواية مع مطابقتها للواقع في حين ان الاخذ برواية حدود الحائر في عشرين مترا او مئات الامتار لا يدخل رواية الفراسخ فيها فضلا عن ان هذه الروايات تخالف الواقع، وتخالف روح التفقه في الدين، ثم هي تكشف عن جهل بمعرفة المعاني لكلام اهل البيت عليهم السلام، حيث ورد عنهم: (انتم افقه الناس اذا عرفتم معاني كلامنا) وقد وقعت عيني على مسألة فقهية لاحد العلماء يعدد فيها كفارات الصائم او الاعمال التي تؤدي الى كسر الصيام مذنباً يجب عليه اعطاء الكفارة، ومنها الكذب على الله وعلى الرسول وعلى الانبياء والائمة عليهم الصلاة وأزكى السلام، ثم رأيت هذا الفقيه يقول: والاحوط الحاق فاطمة الزهراء عليها السلام بالأئمة!!

وأثارت هذه الفتوى عجبي واستغرابي، اذ كيف لا تكون فاطمة في مقدمة المعصومين، وهي التي قدمها الله في حديث الكساء فقال: هم فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها؟! وبقيت افكر اصحيح ما يقوله هذا الرجل صاحب هذا الكتاب الفقهي من ان فاطمة تلتحق بالأئمة من باب الاحتياط وليس من باب اليقين القاطع؟ ورحت اتساءل: هذه فاطمة عليها السلام التي هي روح النبي ومهجته وهي المعصومة التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها كيف صارت عند هذا الفقيه في درجة لا تصل بها الى مستوى اهل العصمة وهي التي يقول عنها الامام العسكري عليه السلام: (نحن حجج الله وأما فاطمة عليها السلام حجة الله علينا).



من كل ذلك نستفيد ان التفقه في الدين لا يتحقق بقراءة النصوص وحفظها، وقراءة القواعد وتدريسها، وانما يتحقق الفقه بالقلوب الواعية والعقول السليمة، والضمائر الحرة والبصائر الثاقبة التي تعرف من هم أهل البيت عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام.



رؤية فاطمة عليها السلام لمنزلة العالم الفقيه

قال أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام: حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، فقالت: إن لي والدة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء، وقد بعثتني إليك أسألك، فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك، فثنت فأجابت ثم ثلثت إلى أن عشت - أي أن الفتاة سألت الزهراء عليها السلام، عشر مسائل في الفقه وشؤون المرأة وقضايا العبادة والمعاملة - إلى أن عشت - أي وصلت المسائل كما قلنا إلى عشرة فأجابت الزهراء عليها السلام عن كل ذلك واحدة فواحدة - إلى أن عشت فأجابت ثم خجلت من الكثرة - أي أن الفتاة أحست بالخجل من كثرة المسائل التي طرحتها بين يدي فاطمة الزهراء عليها السلام - فقالت: لا أشق عليك يا ابنة رسول الله، قالت فاطمة عليها السلام: هاتي وسلي عما بدا لك، رأيت من أكتري يوما يصعد إلى سطح بحمل ثقيل، وكراه مائة ألف دينار، يثقل عليه؟ فقالت: لا.. فقالت: اكرتيت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً، فأحرى أن لا يثقل عليّ، سمعت أبي عليه السلام يقول: إن علماء شيعة يتاحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة عومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم، ألف ألف حلة من نور، ثم ينادي منادي ربنا عزوجل: أيها الكافلون لأيتام آل محمد عليه السلام الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتهموهم ونعشتهموهم، فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا، فيخلعون على كل



واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم حتى أن فيهم - يعني في الأيتام - من يخلع عليه مائة ألف خلة، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم، ثم إن الله تعالى يقول: أعيدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتى تتموا لهم خلعتهم وتضعفوها لهم فيتم لهم ما كان لهم من قبل أن يخلعوا عليهم، ويضاعف لهم، وكذلك من يليهم ممن خلع على من يليهم.

وقالت فاطمة عليها السلام:

يا أمة الله، إن سلكة من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة، وما فضل فإنه مشوب بالتغيب والكدر^(١).

وتفسر ذلك أن فتاة عربية مسلمة جاءت وحضرت عند فاطمة الزهراء عليها السلام تطرح بين يديها مسائل فقهية وأخرى اجتماعية، ومسائل لها علاقة بالحياة العائلية لأن لها والدة ضعيفة قد التبس عليها بعض الأمور في صلاتها وقيامها وقعودها وفي وضوءها وما شابه ذلك، فأجابت الزهراء على كل المسائل واحدة بعد واحدة، حتى بلغت المسائل العاشرة أي أنها سألت عشر مسائل وفاطمة عليها السلام تجيبها على كل مسألة، وهذا الخبر يرويه الإمام الحسن العسكري عليه السلام وهو الإمام الذي يقول: (نحن حجج الله على الخلق وأما فاطمة حجة علينا) فاسمعوه جيدا كيف يروي لنا هذه الرواية وهي نعمة من الله أن نأخذ ديننا وهذه من أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، فيقول: فأجابتها فاطمة عليها السلام، عن ذلك فتت أي طرحت المسألة الثانية، فأجابت

(١) فاطمة بهجة قلب المصطفى ٢٧٨/١ عنه البحار ٨/٢.

الزهراء عليها السلام، ثم ثلثت الى أن عشت، أي راحت الفتاة تطرح مسائلها الى المسألة العاشرة والزهراء عليها السلام تجيب عن ذلك حتى خجلت الفتاة من كثرة المسائل ومن خلال هذا النص: خجلت من الكثرة، يظهر في وضوح أن المسائل تجاوزت العشرة لأن عشر مسائل ليست كثيرة ولا توصف بالكثرة، وأن هناك مسائل أخرى طرحتها الفتاة على سيدة نساء العالمين فأجابت عنها يدل على ذلك أن العدد عشرة أوصلها الى حالة الخجل والاستحياء، أما المسائل فقد استمرت وهذا يكشف عن ثقافة الفتاة المسلمة لأن التي تسأل هذه المسائل تعد فتاة مثقفة واعية، ويبدو انها كانت تتردد على بيت فاطمة عليها السلام لأخذ العلم منها والتزود بالمعرفة من حديث الزهراء عليها السلام.

فقالت الفتاة: لا أشق عليك يا ابنة رسول الله، قالت فاطمة عليها السلام: (هاتي وسلي عما بدا لك) أي أن الزهراء كانت في قمة الرضى والسرور من أسئلة الفتاة لذلك شجعته على المضي في طرح أسئلتها ولم تصدها ولم تمنعها عن الانطلاقة هذه في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وأي مدرسة أعظم من هذه المدرسة التي تشرف عليها وعلى إدارتها فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها وعلى أبيها وبعلمها، وبنيتها والسر المستودع فيها؟

ثم انطلقت الزهراء روي فداها، تضرب للفتاة مثلاً على ذلك بمن يكري نفسه أي يؤجر نفسه على حمل أثقال في مقابل مبلغ من المال قدره مائة ألف دينار، هل يثقل عليه ذلك الحمل؟ وهل يشعر بثقل الحمل؟ كلا بالطبع لأنه ما أن يتذكر العطاء الجزيل، والأجر الكبير، حتى تزول عنه الأتعاب، وينقشع عنه ضباب الإرهاق، في مقابل ذلك



يجد الروح والراحة والريحان والسرور والأريحية تدفعه لأن ينطلق حاملاً ثقل على ظهره في محبة وود وسرور ورضى وغبطة.. فقالت الفتاة: لا.. أي أن الذي يحمل ثقلاً في مقابل هذا العطاء لا يجد تعباً ولا يشعر بالنصب أبداً، وهنا أوضحت لها الزهراء عليها السلام المراد من المثل الذي ضربته لها سلفاً، فقالت: اكرتيت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى الى العرش لؤلؤاً، فأحرى أن لا يثقل عليّ، - ثم تضيف الزهراء عليها السلام قائلة: سمعت أبي عليه السلام يقول: (إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف حلة، من نور).

وهنا لابد من التوقف لحظات للتأمل والتدبر في هذا الحديث المتموج بالعلم والإيمان والخلق الكريم، أنه الرسول عليه السلام الذي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١) هذا بالاضافة الى أن الناقل لهذا الحديث إنما هي فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، من الأولين والآخرين، وكفى بذلك قوة للحديث وفخراً لمن يستمعون إليه فيتبعون أحسنه لأن الله هداهم للحق وللإيمان، وزين العلم والإيمان في قلوبهم إذ ربطهم بحبل الولاء للبيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وهذا هو الحق لأنهم - أعني هؤلاء العلماء الذين هم فقهاء الشيعة قد تخرجوا من مدرسة أهل البيت التي جعل الله فيها الفقه واللغة والتفسير والآداب والعلوم الأخرى تنطلق منها كما ينطلق النور في الأفق، وكما تتبعث الحرارة من الشمس، والطيب من الورد.

(١) النجم/٣.



أقول: هنا ينبغي لنا أن نقف لحظات للتأمل في هذا النور العظيم المتألق في كلام فاطمة وأبيها صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعليها، وبنيتها والسر المستودع فيها، أنه أولا يبين أن العلماء انما هم شيعة لمحمد وأهل بيته، لأن في غير الشيعة لا تنشأ هذه الحالة الفقهية، فالفقيه كل الفقيه من زهد في الدنيا فلم يرغب فيها، ومن عرف قدره فحفظ نفسه وصانها من الابتذال والوقوع في الحرام أكلا وطمعا وممارسة، لأن الحرام يسد على القلب بحجب السفاهة لا الفقاهاة، وموانع الجهل، لا بحور العلم - كما قال سيد الشهداء حين وجّه كلامه لمن خرجوا لقتاله: (فقد ملئت بطونكم من الحرام فطبع على قلوبكم) وهذا - لعمري - نص حي تتفاعل معه القلوب والعقول والأرواح بشكل يستعصي وصفه على البيان والتعبير.

إذن: فكون هؤلاء فقهاء مكرمين مرحومين، لأنهم من شيعة الزهراء فاطمة عليها السلام، وإلا فغيرهم لا يمكن أن ينال من هذا العطاء حتى ولا ذرة واحدة، لأن شرط القبول ولاية أهل البيت، وشرط الولاية التقوى، وهي ميزان لقبول الأعمال.. «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»^(١) ثم يصف الحديث هذا، أيتام آل محمد وهم الذين انقطعوا عن المعرفة فلم تساعدهم الظروف على متابعة الدرس والتحصيل العلمي، لذلك فتراهم في أمس الحاجة الى من يكفلهم ويغذيهم بالعلم النافع لهم، ولا ينفع العلم إلا إذا خرج من بيت فاطمة عليها السلام الذي أذن الله له أن يرفع ويذكر فيه اسمه... الخ.

(١) المائدة/٢٧.



ولعظمة خلع الكرامة التي يتفضل الله بها على هؤلاء العباد الفقهاء تقيسها الزهراء عليها السلام بسلكة واحدة فيظهر ثمنها أكبر وأوسع من الدنيا وما فيها بل أكثر وأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة، والشمس طلوعها يحتوي الزمان والمكان، وهي - أي الشمس - ليست في مقدورها احتواء سلكة واحدة من تلك الخلع العظيمة، والسؤال هو: ماذا يريد العلماء أكثر من هذا العطاء والتكريم؟ لا شيء بالطبع.. ولكن انظروا إلى من يقف على باب دار فاطمة عليها السلام يتوسل إلى الله بحرمتها وحرمة هذا البيت العظيم أن يوفقه للعلم والعمل والإيمان في ظل مدرسة الزهراء عليها السلام، انه لاشك إنسان عظيم عرف حق أهل البيت بوعي وجهد ومعرفة، فانطلق يسعى في نصرهم ويحث الناس على بذل الجهد فيهم وفي طريقهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) فلا شك ولا ريب في ان الفقيه الذي يقف على باب الزهراء عليها السلام هو فقيه حافظ للسانته مقبل على شأنه، عارف بزمانه، وهو فقيه صائن لنفسه، حافظ لدينه مطيع لأمر مولاه، مخالف لهواه، وهذا هو الواقع وتلك هي الحقيقة التي لا تقبل النقاش ولا الجدل، لأنه بخلاف ذلك يظل الفقيه متسكعاً على أبواب الملوك وأعتاب السلاطين، وقد قال المصطفى محمد صلى الله عليه وآله (إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء، فنعم العلماء ونعم الملوك).

هذا مضمون الحديث وليس نصه، ممكن اني اذكر النص في موضع

(١) العنكبوت/ ٦٩.

آخر من هذا الكتاب إنشاء الله عندما يجري الحديث حول رسالة الفقهاء المسؤولين، في عصر الظلمات وعصور الانحطاط.

إذن: فهذه هي وجهة الزهراء في العلم، ورؤيتها للفقهاء والفقهاء حيث أوضحت بشكل لا لبس فيه ولا غموض مسؤولية العلماء، أمانة الفقهاء في عصور الانحطاط والتمزق، وفي ختام هذا الموضوع أود أن أشير هنا الى نقطة بالغة الأهمية وهي: أن الحكم الشرعي يقضي علينا أن نوجه الأموال ونبذل الجهود في بناء جيل عالم فقيه يحمل كلمة الحق على لسانه ويطلق معبرا عنها في كل الآفاق والأقطار، وخصوصا ونحن في طريق الإعداد لبناء جامعة كبرى باسم الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدسة، هدفها تنشأة جيل وتربية ثلة كبيرة من خيرة الشباب لحمل صوت كربلاء الى العالم، فإننا اليوم في أمس الحاجة لصنع هذا اللون من الشباب الملتزم بخط الإمام الحسين عليه السلام، على أن الواجب الشرعي يستدعي أن نعيد النظر في موارد صرف الحقوق الشرعية من الزكاة والخمس وغيرها من العطاء الذي يجري في هذا السبيل، لننفق بغير حساب على مشاريع ثقافية من مثل هذا اللون من المؤسسات وندعم كل مؤسسات كربلاء المقدسة والنجف الأشرف وسامراء المقدسة والكاظمية المقدسة وقم المشرفة ومشهد المقدسة وبلاد الحجاز وما فيها من المدينة المنورة والبقيع المقدس ومكة المكرمة، وكل العتبات المقدسة في مصر وبلاد الشام والغرب والشرق والمسجد الأقصى وما دار حولها من الأراضي التي بارك الله فيها وجعلها عامرة بالبركة وطافحة بالخير والسلام والأمن والطمأنينة كما ورد ذلك على لسان أحد أئمة الهدى عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام.

أقول: لا بد أن نصرف هذه الأموال في مثل هذه المؤسسات

الحضارية كما إنه لا يوجد شيء أعظم أجراً - طبعاً في هذا المضمار فقط - من أن نبذل المال في سبيل احتضان أساتذة أكفاء وخطباء علماء عباقره لينطلقوا في العالم اليوم لتوضيح رسالة أهل البيت، والانفتاح العالمي على مدرسة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي والحجة القائم المهدي، صاحب العصر والزمان وخليفة الرحمن وإمام الإنس والجان، عجل الله تعالى فرجه وسهل الله مخرجه وجعلنا من أنصاره وأعدائه وشيعته والمجاهدين بين يديه والذابين عنه، بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين، وهذه هي رسالة الزهراء عليها السلام للفقهاء الشيعة، الذين يصفهم الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: (أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء، ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاريها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز).^(١)

وفقه هذه الخطبة يحتاج إلى معرفة مفردات وردت فيها من قبيل:

أ - النسمة: محركة - الروح وهي في البشر أرجح، وبرأها خلقها.

ب - أراد بالحاضر هنا، من حضر من أهل البيعة والمعرفة والفقهاء والإيمان، وفيهم الحسن والحسين وهما إمامان إن قاما وإن قعدا، وهما سيدي شباب أهل الجنة صلوات الله عليهم أجمعين.

(١) نهج البلاغة خطبة ٣ وهي المعروفة بالشقشقية.

ت - وأراد بالناصر هنا: الجيش الذي يستعين به على جهاد عدوه، وإن كان الإمام لا يستعين إلا بالله وحده، غير أن هذا من الأسباب التي تتم بها الاستعانة على العدو، لذلك فإن الله يريد أن يرى من ينصره ممن يخذله ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. (١) هذا من جانب ومن جانب آخر، فإن الله عز وجل قد تكفل بنصر من ينصره وإعزاز من أعزه.

ث - ألا يقاروا: أي ألا يوافقوا مقرين، أو من القرار كما في قولي: وقري عينا، وهذا معنى آخر يدل على أن وظيفة العلماء ترفض الخلود الى الدعة وطلب الراحة، في وقت يعاني فيه الفقراء والمعدبون من الجوع والحرمان والاضطهاد، وهذه هي رسالة الزهراء سلام الله عليها حيث أشارت إليها في خطبتها وفي كلمتها التي وجهتها الى رجال الأنصار حيث قالت: يا معشر النقية وأعضاء الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميمة في حقي والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: (المرأ يحفظ في ولده)؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون: مات محمد ﷺ؟ فخطب جليل استوسع وهنه واستتهر فتقه، وأنفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتشرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفئيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وألحاناً، ولقبه ما حلّ بأنبياء الله، ورسله حكم

(١) محمد/٧.

فصل، وقضاء حتم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ
أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي
اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١).

أيها بني قيلة، أهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى
ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذووا العدد والعدة،
والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون،
وتأتاكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون
بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل
البيت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم
البهم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى
الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك،
وخدمت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، وأستوسق نظام الدين، فأنى
حزتم بعد البيان، وأسررتهم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الأقدام، وأشركتم
بعد الإيمان؟

بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهموا بإخراج الرسول،
وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين،
ألا وقد أرى أن قد أخلدتم الى خفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط
والقبض، وخلوتم بالدعة ونجوتهم بالضيق من السعة، فمجبتم ما وعيتم
ودسعتهم الذي تسوغتم، فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله
لغني حميد، الا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالجدلة التي

(١) آل عمران/ ١٤٤.

خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة، وبثة الصدر، وتقدمة الحجة فدونهاها فاحتقبوها دبيرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فبعين الله ما تفلون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١) وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد.. فعلموا إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون^(٢).

فذكرت المفردات التالية التي تكشف عن الفكرة التي تجري في مضمارها وهي:

- ما هذه الغميلة في حقي، والسنة عن ظلامتي؟
- أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع.
- تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة،
- وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح، والجنة.
- توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون.
- بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهموا بإخراج الرسول.
- وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم، فآله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين.
- ألا وقد أرى أن قد أخلدتم الى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض وخلوتم الى الدعة.
- ثم قالت: وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

(١) الشعراء/٢٢٧.

(٢) مقتطفات من خطاب الزهراء عليها السلام.

- ف ﴿اعلموا.. أننا عاملون﴾ و﴿انتظروا أننا منتظرون﴾.

إذن: فالزهراء في خطابها أشارت الى وظيفة الذين يملكون مقداراً من العلم والمعرفة، الا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام.

ونعود إلى مفردات كلمة أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد، والتي يبين فيها وظيفة العلماء الشيعة في عصر الانحطاط والظلمات فيقول: ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم.

- والسغب هو : شدة الجوع، والمراد منه هضم حقوقه، وهذا وجه من التفسير والتأويل، وإلا فهو يقول الكلمة الواحدة فتتصرف المعاني منها وفيها الى أكثر من مضى ولعلمه أكثر من سبعين وجهاً وكلها في الحق كما قال الإمام ابو عبدالله الصادق عليه السلام.

- والغارب: الكاهل، والكلام تمثيل للترك وإرسال الأمر.

- وعفطة العنز: ما تنثره من أنفها عند العطسة أو حتى في غيرها، وأكثر ما يستعمل ذلك في النعجة، ويقال الأشهر في الاستعمال (النفطة) بالنون.

نخرج من كل ما تقدم، إن وظيفة العالم الفقيه تتمثل في نصرة أهل البيت عليهم السلام، وفي معرفة الحق ونصرتة، فالذي يعرف الحق يتفاعل معه، ويخشع قلبه وتفيض عيناه بالدموع ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ فهل من عارف يعرف حق فاطمة فيذرف الدموع من العيون من أجلها، ثم ينطلق مدافعاً عنها وعن حرمتها، وعن أبنائها وذريتها من الآن إلى يوم الدين^(١).

(١) المائدة/٨٣.



إلحاق الزهراء عليها السلام
بالمحطوفين عليهم السلام

إلحاق فاطمة الزهراء عليها السلام بالمعصومين عليهم السلام

شدت انتباهي عبارة وقع بصري عليها في كتاب العروة الوثقى
للسيد كاظم اليزدي، يقول فيها:

.... في باب أن الكذب على الله والرسول عليه السلام، والأئمة عليهم السلام يعد من
المفطرات التي تقتضي الكفارة،.. والأحوط وجوباً إلحاق فاطمة
الزهراء عليها السلام بهم، أي أن الأحوط وجوباً عند صاحب العروة الوثقى،
إلحاق فاطمة الزهراء عليها السلام بالمعصومين عليهم السلام، وأن منزلتها في ذلك
منزلتهم في الاحتياط الوجوبي وليس في الأمر القطعي!!!

ورحت أتساءل والدهشة تعلو وجهي والحسرة تعصر قلبي..!!
إلى هذا الحد أصبحنا نتعامل مع الزهراء عليها السلام..!! فقلت في
نفسي..

... إن الله عز وجل عندما ذكر أصحاب الكساء، لم يقل عز وجل:
والأحوط وجوباً إلحاق فاطمة الزهراء عليها السلام بهم، وإنما قال: «هم
فاطمة وأبوها وبعلاها وبنوها...».

وفي آية التطهير جعل الله فاطمة مع أصحاب الكساء، وفي آية
الابتهال، كانت فاطمة عليها السلام معهم حتى قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ

فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴿١﴾ ..

واللعنة هنا نزلت على الكاذبين الذين يكذبونهم ويكذبون عليهم في مقابل إنهم هم الصادقون حقاً، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ...﴾ ..

فهم الصادقون ولا يوجد صادقون غيرهم، ومعنى ذلك أن الذي يقف ضدهم إنما هو كاذب تنزل عليه اللعنة والعذاب، وهذا هو الفقه والتفقه، لأن الفقيه العميق في رؤيته ينبغي له أن يستشف حكماً، ويستتبط قضية، ويستخرج قاعدة، تتفع المشتغلين بالفقه والعلم والعمل في هذا المجال، وذلك من قوله تعالى في آية المباهلة: ﴿فَجَعَلْ لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ...﴾ ..

لأن فيها شمول وعموم، أي أن الكذب بكل صورته وأشكاله منفي عن أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ..

وأن الكذب عليهم أيضاً هو الآخر بكل ألوانه مرفوض وغير مقبول، ومعنى ذلك أن أبسط الأمور التي يجب على صاحب الفقه فهمها ومعرفتها هي أن الذي يكذب على فاطمة عليها السلام ملعون ومغضوب عليه من قبلها وغضبها غضب الله ورضاها رضا الله، فإذا غضبت على شخص فإن الله تعالى - لا محالة - غاضب عليه، ومن يحل عليه غضب الله فقد هوى في نار جهنم...

(١) آل عمران/ ٦١.

(٢) التوبة/ ١١٩.

على أن هناك ملاحظة يجب التوجه إليها، وهي إذا لم يكن الكذب على فاطمة حراماً يستوجب الإتيان به نزول اللعنة على من كذب، فإن معنى ذلك أن الذين كذبوا على الزهراء واخترعوا لها حديثاً زعموا أنه من أبيها رسول الله ﷺ ليس عليهم بأس ولا يلاحقهم عقاب!!!

فهل من الصواب أيها الأحباب، أعاذنا الله وإياكم من زلة اللسان قبل زلة البيان، ومن الوقوع في أخطاء الاستتباط قبل الوقوع في أحوال الافتراء، ويظل الكلام مستمراً في هذا المجال ويجري أمامي كما يجري الماء في الحقول العطشى...

والرياض التي ضربها الظمأ، ولكن سأحاول العودة معكم إلى هذا البحث، ولو بعد حين.

والمسألة هذه: بعدما يذكر أن الكذب على الأنبياء والرسول والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يعد من المفطرات، ويضيف قائلاً: بل الأحوط إلحاق فاطمة الزهراء عليها السلام بهم أيضاً، مسألة رقم (١٩) في باب المفطرات في كتاب الصوم في العروة الوثقى!!

وما عشت أراك الدهر عجباً!!

A decorative border with intricate floral and scrollwork patterns, featuring stylized leaves and swirling lines, framing the central text.

وجعلناهم أئمة...

وجعلناهم أئمة ..

يقول الله تعالى.. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ (١).

لكل مأموم إمام يقتدي به ويستضيء بنور علمه، وهذا هو الواقع والحق، لأن الإنسان في الحياة لكي يربح القضية وينجح في حمل الأمانة فإنه لابد له من مثل أعلى في العلم والعمل، لأن الحياة لا تقوم إلا على العلم والعمل، والإنسان ينزل إلى الدنيا مزوداً بطاقة في عقله لفهم الخطاب وقدرة في بدنه لتطبيق الخطاب وفي سقوط إحدى الطاقتين أو كليهما يسقط عنه التكليف والمسؤولية.

يقول الإمام الحسن عليه السلام: ما أخذ الله طاقة أحد إلا وضع عنه طاعته، ولا أخذ قدرته إلا وضع عنه كلفته، وهذا هو الحق فالطاقة في العقل إذا سقطت، سقطت الطاعة أي أن الله لا يطالب العبد بالطاعة، لأن الطاعة بالعقل، فإذا سقط العقل سقطت الطاعة..

والقدرة في البدن للعمل، فإذا سقطت القدرة من البدن سقط التكليف والمسؤولية في العمل، ففي الأولى لا طاعة على المجنون، وكذلك الصبي الذي لم يكتمل عقله بعد، فإن الله لا يفرض عليه طاعة

(١) الأنبياء/٧٣.

أبداءً، وأما التكليف فإنه معقود بنواصي القدرة في البدن، فإذا سقطت قدرة البدن سقطت المسؤولية، فهذا شخص ليس له قدرة على تحمل الجوع بفعل انحراف وخلل في بطنه ومعدته، فإن الصوم يسقط عنه لأنه لا يملك العضو الذي يتعلق به الصيام، وذلك رجل ليس له مال فليس عليه زكاة ولا خمس ولا حج، وهذا الإنسان لا قوة له على الجهاد، فإنه يسقط عنه الجهاد، وهكذا قل في بقية الفرائض، على أن هناك فريضة لا يمكن أن تسقط عن الإنسان بأي حال من الأحوال، وهي الولاية فإنها لا تسقط بأي واحد من الأسباب التي مرت علينا سلفاً، فهي واجبة على الفقير والغني وعلى المريض والصحيح، وعلى المرأة والرجل، وعلى العالم والجاهل، الكل مسؤول عن الولاية ولا تسقط عن أحد أبداءً، بل هي عمود الشرائع، وميزان الفرائض، حتى أن كل فريضة لا تقبل إلا بالولاية، لأن الله عزوجل إنما يتقبل من المتقين..

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١)..

والتقوى لا تتحقق إلا بالولاية، فلا يقال لمنكر الولاية بأنه من أهل التقوى، إن التقوى لا تتم إلا بالولاية لمحمد وأهل بيته عليهم السلام، وبالتحديد الولاية للإمام علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وهذا هو الواقع الذي لا يقبل النقاش ولا التشكيك على الإطلاق، فليس للحياة أن تمشي مشية الحق إلا بالولي والإمام هو ذلكم الولي الذي ذكره الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٢)..

(١) المائدة/٢٧.

(٢) المائدة/٥٥.



على أن هناك ملاحظة، وهي أن الإمام علي عليه السلام قد ذكر ذلك بقوله: (.. ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامتة، حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً).^(١)

ومعنى كلام الإمام صلوات الله عليه أن الأشياء لا تتحقق والأمور لا تتم، والحقائق لا تكتمل إلا بصدق العلم وعدالة العمل، ومن هنا كانت الكلمة التامة والبالغة عند أهل البيت عليهم السلام.

يقول تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ..﴾^(٢).

لأن المشكلات التي تواجه الإنسان في الحياة إنما هي تنشأ بسبب خلل في الفكر، أو خلل في التطبيق، ونحن في الإسلام.. الفكر من الله والتطبيق على الأربعة عشر معصوماً عليهم السلام، حيث لا خطأ ولا شطط أبداً، وقد أشارت الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام إلى هذه الحقيقة في خطابها الولائي العظيم، حيث قالت: (..أيها الناس اعلموا أني فاطمة الزهراء وأبي محمد عليه السلام، أقول حقاً عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً..).

(١) نهج البلاغة.

(٢) الأنعام/١١٥.

إذن: فهي **الظلمة** لا تقول غلطاً ولا تفعل شططاً لأنها معصومة..
فالقول عندها من علم الله عزوجل، والفعل عندها من لا عصمة، حيث
لا خطأ ولا غلط.

وقد ذكرت ذلك في كلمة قبل هذه الكلمة وهي أنها قالت: فاتقوا الله
حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون فإنه إنما يخشى الله من عباده
العلماء.. ثم قالت: (..اعلموا أني فاطمة...الخ).

ومعنى ذلك أن معرفتكم بفاطمة لا تتم إلا بالعلم والتقوى، أي أن
العلم الذي هو ممزوج بالإيمان وهو(؟) الذي ينقذ الناس ويخلصهم من
الظلمات التي تحيط بهم هنا وهناك.

العلم يكشف لك عن الطريق ولكن لا يوصلك إلى الهدف، إن الذي
يوصلك إلى الهدف إنما هو العمل، والعمل وحده وليس غيره..

فأنت في العلم تعرف الطريق إلى مكة غير أنه لا يكفي للوصول
إليها، بل لابد لك من العمل أي الحركة والسير والمشي إما على رجليك
وإما على وسيلة سفر، حتى تصل الى مكة أو المدينة، أو إلى كربلاء
وهذا معنى كبير وعظيم لمن أراد المعرفة بكل أبعادها.

ومن هنا كانت كلمة أمير المؤمنين **عليه السلام** بلسماً على الجرح: (..ألا وإن
لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه..).

الإضاءة بنور العلم تعني الفكر الصحيح السليم، والاقتداء بمعناه
العمل المطابق للواقع وهذا هو العدل بعينه، لذلك قال **عليه السلام**: (..أعينوني
بورع واجتهاد وعفة وسداد..).



أيضاً والسداد للعمل، وهذا يشبه قول الحق في سورة
العصر: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ (١).

لأن العلم يحتاج إلى الحق، والعمل يحتاج إلى الصبر، أو قل: الإيمان
والعلم في حاجة إلى الحق، في حين العمل الصالح في حاجة إلى
الصبر، وهذا هو المعنى الواضح لإتمام الكلمة..

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وخلاصة القول:

إن إصلاح العالم اليوم لا يمكن أن يتحقق إلا بالكلمة التامة، أي
بصدق العلم وعدالة التطبيق، وهذا هو القانون المنقذ من الضياع
والمنجي من الغرق..

وهذا لا يوجد إلا عند محمد وأهل بيته عليهم السلام، لأنهم سفينة
النجاة، وقد مثلهم النبي ﷺ، بسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف
عنها غرق وهوى..

ولتوضيح الفكرة واستيعاب المعرفة، لا بد لنا من تسليط المزيد من
الضوء على هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(١) سورة العصر.



والآن تعالوا معي إلى عالم المعرفة والطريق الواضح إلى فهم هذه القضية المقدسة، والتي تهمنا جميعاً، وتخص حياتنا في كل الأبعاد والجهات.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

(١) الأنعام/١١٥.



تمهيد لخطبة فاطمة الزهراء سلام الله عليها

مقدمتان لخطبة فاطمة بنت محمد صلى الله عليها وعلى أبيها
وبعلها وبنيتها ورحمة الله وبركاته.

* المقدمة الأولى:

كل قضية لكي تظهر على حقيقتها فإنه لا بد لها من المرور بأربعة
محاوٍ:

- المحور الأول: التصور في الذهن، وهو عبارة عن تصور القضية
دون الفوص إلى أعماقها، والثاني التصديق في العقل، حين تظهر
حقيقة تلك القضية خيراً أم شراً صدقاً أم كذباً، محبوبة أم غير
محبوبة، في حين يأتي المحور الثالث في الوجدان لأن الوجدان يتفاعل
مع المحورين السابقين، بأن يمد المرء بالطاقة اللازمة لاتخاذ موقف،
لأن فيه الحب والبغض، فهو -أي صاحب القرار والموقف الذي مرت
قضيته في هذه المحاوٍ- إما أن يكون محباً للقضية أو مبغضاً لها،
وعلى هذا الأساس يظهر المحور الرابع وهو محور الإرادة والتصميم
واتخاذ القرار حيث لا مكان للتراجع ولا مكان للتردد ولا للهزيمة،
وعلى سبيل المثال -لتوضيح الصورة التي نحن بصدد عرضها- أقول:

تصور أن الباب طرقت عليك ليلاً، فأنت في بداية الأمر تتصور أن وراء الباب شخصاً يطرقها ولكن دون أن تعرف هوية الطارق رجلاً أو امرأة عالماً أو جاهلاً، كبيراً أو صغيراً، عدواً كان الطارق أم صديقاً، وهذا هو المحور الأول حيث أنك لا تدري من هو الذي يطرق عليك الباب ولكنك دخل في روعك أن وراء الباب طارقاً وهذا هو التصور الذهني أي إنقذحت صورة مبهمة لطارق وراء الباب، فإذا عرفت من هو الطارق انتقلت الصورة من الذهن إلى مجال العقل والتصديق، فإذا عرفت الشخصية بالذات التي تطرق عليك الباب، تحرك عندك الوجدان أما بالحب إذا كانت الشخصية محبوبة، أو بالبغض إذا كان الطارق مكروهاً، وهنا لا يكون مكروهاً إلا إذا كان عدواً وجاهلاً، ولا يكون محبوباً إلا إذا كان صديقاً وعالماً، علماً بأن العلم والجهل هنا ليسا السبب الأول في الحب والبغض وإن كان كون الطارق عالماً يزيد في محبته في القلوب، إلا أن كونه جاهلاً لا يزيد في كرهه قرب جاهل يطرق باب العالم للتزود بالعلم وهذا وارد في هذه المحاور، غاية ما في الأمر أن السبب الرئيسي في عملية الحب والبغض هو العداوة والمحبة، الحب والبغض، وهذا هو المحور الثالث الذي يكمن في الوجدان الفطري لدى الإنسان، فإذا تحرك الحب أو البغض في أعماق الوجدان، فلا بد من اتخاذ موقف سريع وصريح وواضح من هذا القادم بحيث يناسب مقامه وشخصيته، فالترحاب به والدفاع عنه وتقديم الدعم والحماية له إذا كان محبوباً، والنفور منه واجتتابه إذا كان مكروهاً، وهذا المعنى أو قل: هذه المقدمة تضعنا على مقربة من الحدث العظيم الذي أحدثه خروج الزهراء فاطمة سيدة النساء صلوات الله عليها، إلى مسجد أبيها رسول الله ﷺ لإلقاء خطابها



التاريخي العظيم الذي خرت من فزعه القلوب وتواضعت لعظمته الجبال واقشعرت له أظلة العرش مع أظلة الخلائق وبكاه سكان السماوات وسكان الأرض وما يرى وما لا يرى، أجل هذا هو الحق وهذا هو الواقع، وما انفجار المجلس بالبكاء لمجرد أنه أنتها فاطمة الزهراء إلا دليل يدل على أن كل شيء في الوجود شارك الزهراء في أحزانها ومأساتها ودموعها، فأول شيء أن القوم عرفوا بأن هذه المتكلمة فاطمة أي أنها مرت بأذهانهم وعقولهم، وعندما جلست وأنت أنه أجهش القوم لها بالبكاء، أظهرت حقيقة معرفتها في قلوب الناس جميعاً باستثناء المنافقين الذين شاركوا الحشود في البكاء لبكاء فاطمة لأنهم يرجعون إلى أصل الفطرة التي لا يستطيع أحد أن يتغافل عنها، ولكنهم -أعني المنافقين الذين كانوا مع الأصحاب في تلك الساعة- كانوا في بكائهم يشبهون عمر بن سعد قاتل الحسين يوم عاشوراء في بكاءه على الحسين لأنه بكاء لم ينطلق من حب ومودة وولاء، بل انطلق من فطرة خوت على عروشها من العمى.

على أن هناك سؤالاً يلح في طرحة للإجابة عليه هو: إذا كانت المسألة بهذا المستوى من الوضوح، فما المانع الذي منع القوم من نصر فاطمة والوقوف إلى جانبها ضد أعدائها من المنافقين؟ وقد أجابت الزهراء على هذا السؤال من خلال خطبتها حين قالت: أيها الناس إعملوا أني فاطمة وأبي محمد ﷺ أقول -حقاً- عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١) فان تعزوه

(١) التوبة/ ١٢٨.



وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم وأخا ابن عمي دون رجالكم. وهنا الملاحظة الجديرة بالأهمية وهي أن الزهراء عليها السلام، ما قالت اعلّموا أني فاطمة حتى قالت قبلها: أيها الناس اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء. فنجد هنا أنها قدمت التقوى والعلم الممزوج بالخوف من الله وهذا لا يكون إلا عند عالم رباني، وبعد ذلك قالت: اعلّموا أني فاطمة، فكان العلم يحتاج إلى تقوى وهذه طريقة القرآن الكريم حيث يتحدث عن العلم نجده يقدم التقوى ودائماً أو في الأغلب تقرأ الآية هكذا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١).

اتقوا الله واعلموا.. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(٢)، فدائماً نجد التقوى مقدمة على العلم لأن العلم من دون تقوى لا يساوي شيئاً أبداً ولا يوصل إلى معرفة، فنحن -مثلاً- عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٣) ندرك أن الارتفاع هذا إنما حصل حين التقى العلم والإيمان في لحظة واحدة، وهذا هو سبب الارتفاع لأن العلم الممزوج بالإيمان إنما هو متصل ببيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وهذه البيوت هي بيوت فاطمة الزهراء عليها السلام فهي رقيقة أبداً مضيئة دوماً لأننا نعرف أن الارتفاع بالبدن يكشف لك عن رؤية أشياء أكثر، والارتفاع بالروح

(١) المائدة/ ٩٦.

(٢) البقرة/ ٢٨٢.

(٣) المجادلة/ ١١.



يكشف لك عن رؤية حقائق أكثر ومن هنا كانت الصلاة معراج المؤمن لأنها ترفعه إلى أعلى عليين حين يؤديها بشروطها دون نقص أو زيادة.

إذن: فالارتفاع بالعقول والأرواح والقلوب إنما يحصل ويتم عندما تتصل تلك القلوب بالبيوت التي أذن الله أن ترفع وهذه البيوت قائمة معرفتها على التقوى فهي بيوت أهل البيت الصادقين المعصومين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١) ويقول في آية أخرى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ..﴾^(٢) وفي آية ثالثة: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) فظهر من كل ما تقدم أن التقوى هي الأساس في رؤية الحق والحقائق وكأنها منظار للنفس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٤).

على أننا نعرف أن في الحياة حقائق وأشياء، وفي الإنسان الذي خرج من بطن أمه إلى الحياة بصر لرؤية الأشياء، وبصيرة لرؤية الحقائق، وكما أنه لا يرى الأشياء بالبصر إلا بوجود النور نور الطبيعة، فكذلك لا يمكن للإنسان أن يرى الحق بالبصيرة إلا بنور الإيمان والتقوى، ونحن نقرأ ذلك ونلمحه في كثير من الآيات الكريمة التي تمهد لنا الطريق الواضح إلى الإصغاء والاستماع لصوت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها والتي على معرفتها دارت القرون الأولى وهذا هو الحق الذي ليس عليه غبار، ولا غبش.

(١) التوبة/ ١١٩.

(٢) المائدة/ ٣٥.

(٣) البقرة/ ١-٢.

(٤) الحشر/ ١٨.



فلكي تبدو القضية واضحة كالشمس الضاحية، تعالوا نسلط مزيداً من الضوء على هذا الجانب المعرفي في حركة الإنسان في الحياة وهناك آيات بينات محكمات في هذا المجال، ففي الآية الأولى نقرأ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) وهنا يبين أن الإنسان ينزل من بطن أمه مزوداً بوسائل المعرفة وأدوات وآلات وجوارح يستخدمها في حياته لمعرفة الحق ولأخذ العلم من أهله إلا أنه قال -بعد أن ذكر هذه الجوارح: السمع والبصر والفؤاد- لعلمكم تشكرون، والشكر لا يكون إلا في مقابل النعمة وكلما كانت النعمة كاملة وتامة كان الشكر كاملاً وتاماً أي أن الإنسان المؤمن الذي يشكر نعم الله هو الذي يجعل هذه الجوارح في طريق الحق والبناء والتكامل لا في طريق الباطل والهدم والتسافل، فإن الإنسان مسؤول عن عينه ولسانه وسمعه ويده وكل جوارحه كما أشار إلى ذلك الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق: أن لبصرك عليك حقاً، ولسمعك عليك حقاً، ولسانك عليك حقاً إلى آخر الحقوق التي ذكرها وأوردها في رسالته العظيمة.

ومن هنا كان القرآن الكريم يحمل الإنسان مسؤولية هذه الجوارح فيقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾^(٢)، وفي زيارة الإمام الحسين عليه السلام التي أوردها الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام جاء فيها ما يشير إلى هذه الحقيقة: لبيك داعي الله إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك

(١) النحل / ٧٨.

(٢) الإسراء / ٣٦.



ولساني عند استتصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري، وهذا هو الحق حيث جعل الإجابة لنداء الحسين منطلقاً من القلب والسمع والبصر، وذلك أن الحسين عليه السلام في قلوب المؤمنين بل أن حبه في القلوب ساخن لا يبرد أبداً ولا يفتر كما ورد في الحديث الشريف المروي عن رسول الله ﷺ فيما يخص الإمام الحسين عليه السلام يقول فيه:

(إن لقتل الحسين عليه السلام حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً)^(١) ويقول في حديث آخر: (إن للحسين في قلوب المؤمنين محبة مكنونة..). على أن هؤلاء المؤمنين الذين يحملون حب الحسين في قلوبهم هم شيعة آل محمد حقاً حقاً، وهم غير الذين تحدث القرآن عنهم حين ذرأهم الله للعذاب وللإغلال في لهوات النار:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢) وهنا لاحظوا العد العكسي كيف بدأ بخلاف ما بدأ به مع الإنسان يوم مولده، فهناك في يوم مولد الإنسان يذكر جوارحه بالتدرج فالطفل أول جهاز يشتغل عنده هو جهاز السمع ثم تتبعه العين ثم القلب، وهذا هو التدرج في سلم الطفولة، إنه يسمع ولا يرى ثم يسمع ويرى ثم يختزن هذه العلوم والصور في فؤاده -قلبه- والفؤاد فيه إشارة إلى تعانق القلب والعقل ولو بعد حين من عمر الإنسان لأن العقل يغذيه العلم بينما الإيمان غذاء القلب ﷻ والله

(١) مستدرك الوسائل: مجلد ١٠ ص ٣١٨.

(٢) الأعراف / ١٧٩.



أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾.

ويكون أول صوت يسمعه الطفل هو صوت الأذان والإقامة، الله أكبر
الله أكبر.. الخ، وأول وجه يفتح الطفل عينه عليه وفيه هو وجه الأم
وهذا هو الواقع الذي قد يشير إلى مكانة الأم ومنزلتها، فلولا حجور
طابت وطهرت، كما يقول الإمام الحسين عليه السلام - لما قام للإيمان عبود،
ولا أضاء للإسلام نور، هذا في يوم مولده أما عندما يفشل الإنسان
ويتراجع ويصبح من أصحاب النار فإن العد العكسي يبدأ من القلب
بدل السمع الذي بدأ به يوم الولادة فيقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ
الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا
يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٢) كل ذلك
حدث بسبب أنهم لم يستخدموا ولم يستعملوا هذه الجوارح في مكانها
الصحيح، في موقفهم إزاء الحق وأهل الحق.. فأنت حين تسمع الطارق
على الباب يتحرك ذهنك، إن وراء الباب طارق - كما مرت الإشارة إلى
هذا من قبل ولكن أريد هنا أن أربط هذا الموضوع بخطبة الزهراء
سلام الله عليها، فإذا عرفت الطارق تحرك عقلك، وإذا عرفت حقه
وحقيقة شخصية هذا الطارق تحرك قلبك بالحب له إن كان صديقاً
حميماً عالماً، وبالبغض له أن كان عدواً لدوداً جاهلاً، فإذا تحرك
الوجدان فإن الإرادة يجب أن تتخذ موقفاً قوياً وثابتاً يناسب الموقف إذا

(١) النحل / ٧٨.

(٢) الأعراف / ١٧٩.



كان إظهار النصر، أو الخذلان، لأنه لا عذر هنا لمن يعتذر أبداً، فأنت موقف من الحق أو من الباطل، من الأبيض أو من الأسود، وهكذا والإنسان بلا موقف كالأرض بلا زرع، وكالضمير بلا وجدان، وكالجسد بلا رأس، إذاً: فلا بد من موقف، فهؤلاء الناس الذين خاطبتهم الزهراء سلام الله عليها بقولها:

أيها الناس اعلموا أني فاطمة عليها السلام، فإنها إنما أرادت أن تضعهم أمام الأمر الواقع لتتظركيف يعملون إزاء هذا الحدث الجليل والخطب العظيم والنازلة التي لا نازلة مثلها ولا رزية في حجمها لذلك نجدها -أي الزهراء عليها السلام- تستصرخهم وتستتصرهم فما نصروها، ولا أجابوا صرختها لذلك بشرتهم بسيف صارم، وسطوة معتد غاشم، واستبداد من الظالمين، يدع فيئهم زهيداً، وجمعهم حصيداً، فيا حسرة لهم وأنى بهم وكتاب الله بين أظهرهم أموره ظاهرة واعلامه زاهرة، وقد ضيعوه رغبة عنه لا رغبة به، وسيأتي الكلام على ذلك في محله إن شاء الله تعالى.



* المقدمة الثانية:

الحياة تبدأ من القلب، حياة الروح وحياة العقل وحياة البدن كلها تبدأ من القلب، وهو أول عضو يتحرك في الجنين في بطن الأم وآخر عضو يتوقف في الإنسان، على أننا حين نشير إلى القلب نريد به وجهتين: وجهة القلب الذي يحرك البدن ووجهة القلب الذي يحرك الروح فمن عجيب صنع الله عز وجل أن يكون للقلب جهتان: واحدة يكمن فيها الخوف وثانية يشع منها الرجاء ولأن الخوف من وعيد الله وعذابه، والرجاء لوعده وثوابه فهما نوران في القلب نور خيفة ونور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا كما وردت بذلك روايات صحيحة عن أهل البيت عليهم السلام وكما في القلب كذلك في العقل حيث هو وجنوده نجدهم يرابطون ضد الجهل وجنوده وهذا يشير إلى صراع قوى النفس وقوى العقل وأن في أعماقنا حرباً طاحنة تدور رحاها منذ سن ولحظة البلوغ إلى لحظة الوفاة وتوديع الحياة يدل على ذلك أن النفس هي الأخرى قائمة على هذا الأساس الثابت من الصراع والمواجهة التي تدور في معركة الخير والشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١) وأغلب الناس يسقطون في هذه المعركة معضرين بغبار الفشل والهزيمة، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا ما نقرأه في سورة العصر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ

(١) الشمس / ٧-١٠.

وَتَوَاصَرُوا بِالصَّبْرِ (٣) ﴿١﴾ لماذا تواصلوا بالحق والصبر؟ لأن الحق يدعم الإيمان ويقويه، والصبر يدعم العمل الصالح وينقيه، ونظرة واحدة نلقيها على هذا الجانب تكفي لاعطائنا صورة رائعة ومفيدة في هذا المضمار، فأمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام يقول: (والله لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه).

وباستقامة القلب واللسان، تستقيم معالم الإيمان حيث تقتصر طاقات الخير على الشر، ويظفر جنود العقل بجنود الجهل فينزلون بهم أكبر هزيمة يمكن أن تسجل في أعماق النفس وداخل الفطرة، وكل ذلك لا يتحقق إلا بشرط أساسي واحد وهو: حفظ المودة والولاية لأهل البيت عليه السلام، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (٢) فهذه المودة هي أجر الرسالة (٣)، وبهذه المودة أحل الله لنا مأكلا ومشاربنا وأموالنا وأزواجنا وكل شيء خلقه الله في الحياة إنما أحله لأهل المودة لآل محمد عليه السلام لأن المودة لأهل البيت هي التي تجعل الطاقات والقوى والجوارح مستقيمة في عملها نافعة في عطائها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ومن هنا كانت رسالة الإمام الحسن بن علي العسكري عليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام تؤكد هذه الفكرة، وتجعل هذه القضية، قضية أساسية في رحلة الإيمان والعمل الصالح، وانقل لكم على سبيل

(١) سورة العصر.

(٢) الشورى / ٢٣.

(٣) بحار الأنوار: مجلد ٢٣: صفحة ٢٤١.

الاستشهاد في هذا المجال نص الكلمة التي وردت في رسالة الإمام العسكري عليه السلام في هذا المضممار فهو روعي فداء يبعث رسالة إلى أحد أصحابه في مدينة نيسابور وهي مدينة كانت تضاهي حاضرة من حواضر العالم اليوم وكانت تضم قرابة المائة ألف من أهل العلم والفقه واللغة والأدب يدل على ذلك حديث السلسلة الذهبية الذي ألقاه الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام على علماء هذه البلدة فكان عدد الذين كتبوا الحديث أكثر من عشرين ألفاً كما هو مدون وثابت في أصل حديث السلسلة الذهبية وسوف يأتي موضوعه في باب إن شاء الله تعالى.

وحتى لا يشط بنا البيان أعود بكم إلى رسالة الإمام العسكري عليه السلام التي كتبها إلى إسحاق بن اسماعيل النيسابوري ويبدأها بعبارة: (سترنا الله وإياك بستره) والسبب في بدء الكتاب بهذه المفردة أن الإمام سلام الله عليه كان يهيئ الأمة إلى استقبال الإمام القائم المنتظر، ويعلم الشيعة كيف يتعاملون مع إمام غائب مستور عنهم لذلك يبدأ كتابه بكلمة الستر، وكما يقول الإمام أبو عبد الله عليه السلام: (أنتم أفقه الناس إذا عرفتم معاني كلامنا) فمعنى كلمة الستر هنا هو أن تنهياً الأمة للتعايش والتعامل مع إمام مستور عنهم غائب عن أبصارهم رغم وجوده في كل لحظة وفي كل مكان حتى كأنهم ينتفعون بوجوده وهو غائب عنهم كما ينتفعون من الشمس إذا غطاها السحاب وهذه حقيقة لا غبار عليها ولا شك فيها. (سترنا الله وإياك بستره، وتولاك في جميع أمورك بصنعه، قد فهمت كتابك رحمك الله، ونحن بحمد الله ونعمته أهل بيت نرق على موالينا ونسر بتتابع إحسان الله إليهم وفضله لديهم



ونعتد بكل نعمة ينعمها الله تبارك وتعالى عليهم، فأتَمَّ الله عليك يا إسحاق وعلى من كان مثلك -ممن قد رحمه الله وبصَّره بصيرتك- نعمته، وقدر تمام نعمته دخول الجنة وليس من نعمة وإن جل أمرها وعظم خطرها إلا والحمد لله تقدست أسماؤه عليها مؤد شكرها، وأنا أقول الحمد لله أفضل ما حمده حامده إلى أبد الأبد بما من الله عليك من رحمته ونجاك من الهلكة وسهل سبيلك على العقبة، وأيم الله إنها لعقبة كؤود، شديد أمرها، صعب مسلكها، عظيم بلاؤها، قديم في الزبر الأولى ذكرها، ولقد كانت منكم في أيام الماضي ﷺ إلى أن مضى لسبيله وفي أيامي هذه، أمور كنتم فيها عند غير محمودي الرأي ولا مسددي التوفيق. واعلم يقيناً يا إسحاق أن من خرج من هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، يا إسحاق ليس تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وذلك قول الله في محكم كتابه حكاية عن الظالم إذ يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى^(١).

وأية آية أعظم من حجة الله على خلقه وأمينه في بلاده وشهيدته على عباده من بعد من سلف من آبائه الأولين النبيين وآبائه الآخرين الوصيين عليهم أجمعين السلام ورحمة الله وبركاته.

فأين يُتاه بكم وأين تذهبون كالأنعام على وجوهكم، عن الحق تصرفون وبالباطل تؤمنون وبنعمة الله تكفرون أو تكونوا من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم ومن غيركم

(١) طه / ١٢٥-١٢٦.



إلا خزي في الحياة الدنيا الفانية وطول عذاب في الآخرة الباقية، وذلك والله الخزي العظيم. إن الله بفضله ومنه لما فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه إليكم برحمة منه - لا إله إلا هو - عليكم ليميز الخبيث من الطيب وليبتلي ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم، لتسابقوا إلى رحمة الله ولتتفاضل منازلكم في جنته، ففرض عليكم الحج والعمرة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والولاية وجعل لكم باباً تستفتحون به أبواب الفرائض ومفتاحاً إلى سبيله، لولا محمد ﷺ والأوصياء من ولده لكنتم حيارى كالبهائم لا تعرفون فرضاً من الفرائض، وهل تدخل مدينة إلا من بابها، فلما من عليكم بإقامة الأولياء من بعد نبيكم قال الله في كتابه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

ففرض عليكم لأوليائه حقوقاً أمركم بأدائها ليحل لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم وماكلكم، ومشاربكم، قال الله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢). واعلموا أن من يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، لا إله إلا هو، ولقد طالت المخاطبة فيما هو لكم وعليكم.. ولولا ما يحب الله من تمام النعمة من الله عليكم لما رأيتم لي خطأ ولا سمعتم مني حرفاً من بعد مضي الماضي ﷺ وأنتم في غلظة مما إليه معادكم - إلى أن يقول: وإياكم أن تقرطوا في جنب الله فتكونوا من الخاسرين، فبعداً وسحقاً لمن رغب عن طاعة الله ولم يقبل مواعظ أوليائه، فقد أمركم الله بطاعته وطاعة

(١) المائدة / ٣.

(٢) الشورى / ٢٣.



رسوله وطاعة أولي الأمر، رحم الله ضعفكم وغفلتكم وصبركم على أمركم، فما أغر الإنسان بربه الكريم ولو فهمت الصم الصلاب بعض ما هو في هذا الكتاب لتصدعت قللاً وخوفاً من خشية الله ورجوعاً إلى طاعة الله، اعملوا ما شئتم ﴿وَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين.

على أن هذه الرسالة العظيمة في حاجة إلى المزيد من تسليط الضوء عليها لمعرفة القضية المقدسة التي جاءت الرسالة هذه لتوضحها وترسيخها في القلوب والعقول، وسيأتي شرح كامل لهذه الرسالة في الموضع الخاص بها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

من هنا يمكن تلخيص غاية الرسالة في نقاط ثلاث:

١ - إن المودة لأهل البيت عليهم السلام، مع الولاية لهم والبراءة من أعدائهم هي التي تجعل القلوب سليمة يملأها الإيمان واليقين، وبغير المودة والولاية والحب والطاعة لأهل البيت تظل القلوب عليلة يملأها الشك والنفاق، والبصائر مدخولة تعيش في غطاء عن ذكر الله وعن الحق، حتى استلال الروح من البدن هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون عن ما أسس الأولون، يومئذ يسمعون الصيحة بالحق! ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٢).

وانذرهم يوم الحسرة، إنه يوم طويل تضرب فيه الحسرة كل القلوب

(١) التوبة / ٩٤.

(٢) ق / ٢٢.

والضماير فلا ينجو من نارها إلا عبد امتحن الله قلبه للتقوى وهو الموالى لمحمد وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.

٢- إن الله عز وجل قد أحل لنا -نحن المؤمنين- المأكول والمشارب والمال والأزواج، ببركة الولاية لأولياء الله وهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة هم فاطمة وأبوها، وبعلاها وبنوها صلوات الله عليهم أجمعين وبالبراءة من أعدائهم الذين حاربوهم وشردوهم وهم بنو أمية والشجرة الملعونة في القرآن والمنافقون الذين تحدث القرآن عنهم في آيات عديدة وفي سورة المنافقون بالذات وهؤلاء هم الذين هاجموا بيت فاطمة وأحرقوا دارها، وكسروا ضلعها، واسقطوا جنينها بين الحائط والباب في قصة الهجوم على دار الإمامة والولاية.

دار علي وفاطمة صلوات الله عليهما ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمام، سلام الله عليهم ما سطع فجر وهوى نجم.

على أن هذا الأمر قد يثير تساؤلاً أو قل: سؤالاً لدى البعض مفاده: كيف يمكن للمودة أن تحلل المأكول والمشارب والأموال والأزواج، ومعنى ذلك أن انعدام المودة لأهل البيت -حسب هذه القاعدة- من شأنه أن يحرم هذه الأشياء التي مر ذكرها آنفاً؟

واظن أن القاء نظرة على بعض المسائل الفقهية، يكفي للإجابة بوضوح على هذا السؤال، خذوا على سبيل المثال طواف النساء في مناسك الحج، إنه طواف يحلل النساء على الرجال، والرجال على النساء وفي عدم الإتيان به نراه يحرم الرجال على النساء ويحرم النساء على الرجال كما هو معروف في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.



طواف النساء تأتي به لتحل عليك زوجتك، وأنت أيتها المرأة كذلك ليحل عليك زوجك علماً أن هذا في الفروع لا في الأصول فما بالكم بولاية علي أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، وهي التي كمل الدين بها، والقرآن الكريم يقول بصراحة ليس عليها غبار:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (١)
أي أنه أمر بالعبادة بعد توفير الخبز والأمن وهما أهم عنصرين في حياة العباد، وفي كلمة للإمام المظلوم أبي عبد الله الحسين عليه الصلاة والسلام يقول فيها: «إن الله عز وجل ما خلق الخلق إلا ليعرفون، فإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه، استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه».

وهذا الحديث يضعنا أمام جادة الحق الواضحة إذ يبين لنا أن العبادة معناها الاستقلال بالرأي وبالعقيدة والاكتفاء الذاتي في كل شيء في الحياة لأن كون العبد يعبد الله، أن يكون حراً ليس لأحد سلطة عليه سوى سلطة رب العالمين والرسول وأولي الأمر الذين هم أئمة الحق لأن سلطتهم لا تخالف سلطة النبي ولا سلطة الله، ومن هنا جاءت الطاعة في هذه المجالات الثلاثة: اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.

على أن القاعدة التي مرت عليكم إنما وردتنا عن لسان إمام معصوم هو حجة الله على العالمين وهو الإمام الحسن بن علي العسكري صاحب المرقد المهدوم والقبر المنسوف بأيدي الظلمة وأعوان الظلمة،

(١) قریش / ٣ - ٤.



وبسعي الأثمة وأعوان الأثمة، الملتخة أيديهم بدماء الناس الأبراء العابدين الصائمين المصلين، فالغرض إذاً من هذه الرسائل، هو تبيان وتوضيح أن ولاية أهل البيت هي الأساس في الإيمان وهي الشرط الأساسي في قبول الأعمال من العباد، لأن الله لا يقبل عملاً إلا من المتقين ولا يمكن لأعداء أهل البيت أن يزعموا أنهم من المتقين إنما هم من المجرمين المسارعين في إفساد الأرض بعد اصلاحها، والعاثين بالحق ثم يحذرهم الإمام العسكري في رسالة من المخالفة والتفريط في حق أهل البيت عليه السلام فيقول: «وإياكم أن تفرطوا في جنب الله فتكونوا من الخاسرين، فبعداً وسحقاً لمن رغب عن طاعة الله ولم يقبل مواعظ أوليائه فقد أمركم الله بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر منكم...».

وجنب الله هم أهل البيت عليهم السلام وهم فاطمة وأبوها وبعليها وبنوها، كما ورد ذلك في حديث الكساء، والتفريط يأتي من عدم المعرفة بحق وقدر الحقائق والأشياء وعلى رأسها عدم المعرفة بقدر الأولياء مثل عدم المعرفة بقيمة الصلاة يؤدي إلى ضياعها ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾^(١) وهذه النتيجة -الوقوع في الغي والضلال، هي نتيجة طبيعية لإضاعة الصلاة لأن النتائج تأتي - في العادة- موافقة للمقدمات، فكيف ما تكون المقدمة، تكون النتيجة وعلى هذا فإن إضاعة حق الزهراء لا يقل خطراً عن إضاعة الصلاة وإضاعة الفرائض والشعائر، بل أكثر من ذلك إن إضاعة حق فاطمة، إضاعة للدين والقرآن والإسلام لأنها هي القرآن وهي الإيمان وهي

(١) مريم/ ٥٩.



الإسلام «وهي ليلة القدر»^(١) فمن «عرف حقها فقد أدرك ليلة القدر»^(٢)، على أنني هنا لا أوجه الخطاب إلى الذين يخالفون فاطمة ولا يعرفون قدرها ولا يفهمون حقها، فهؤلاء لا علاقة لي بهم وليس عندي وقت أضيعه معهم، وإنما أوجه خطابي وكلامي لشيعه فاطمة الزهراء عليها السلام لأصحاب العقول والقلوب، للأحرار الذين عرفوا الحق فاتبعوه ووعوا الفرض فأقاموه وقرأوا القرآن فاحزنوا فيه قلوبهم وجعلوه دواء داءهم وشفاء صدورهم فطبقوه حرفاً حرفاً وآية آية وكلمة كلمة، إن كلامي وخطابي مع هؤلاء الناس الأحرار الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون.. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣).

أوجه خطابي إلى الناس الذين تعيش فاطمة في قلوبهم فيستشعرون حرارة حبها وحرارة مصابها فما أن تذكر عندهم حتى ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، ومما عرفوا من تقصير الأمة في حق فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، أجل فأنا إنما أكلّم هذا النمط الأوسط من الناس الذين خاطبهم الله بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٤) فكانوا أحبة فاطمة شهداء على العصر الذي تعج به الأرض

(١) بحار الأنوار: مجلد ٢٥/ صفحة ٩٧.

(٢) بحار الأنوار: مجلد ٤٣/ صفحة ٦٥.

(٣) الرعد / ٢٨.

(٤) البقرة / ١٤٣.



على ظهرها ظلماً وجوراً منتظرة ولد فاطمة وقرة عينها الإمام القائم المهدي صاحب العصر والزمان وخليفة الرحمن المنتخب لإقامة العدل والقسط الذي سيملاً الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

إذاً: فإذا كانت القلوب لا تستقيم إلا بولاية أهل البيت ومودتهم، فإن حب فاطمة ومودة فاطمة وولاية فاطمة والبيعة لفاطمة هي الأساس في العقيدة وهي الأساس في الإيمان وفي قبول الأعمال صرفها وعدلها، وبغير هذا الشرط تغدو العبادة باهتة ضعيفة ليس فيها حرارة ولا نور ولا بريق يخطف الأبصار.

والآن -وبعد قراءة المقدمتين- تعالوا إلى خطبة فاطمة نتفياً ظلالها، ونستفيد من نورها، حين تكون شروط الاستفادة متوفرة عندنا إن شاء الله تعالى، لأنه -وكما هو معروف- لا يمكن للمتلقي أن ينتفع من الشيء الذي يتلقاه إلا إذا كان المتلقي سليماً ليس فيه خلل ولا عطب، فالأرض الطيبة السليمة هي وحدها المستفيدة من المطر بخلاف الأرض الخبيثة التي لا يزيدها المطر إلا كثرة في الشوك والحنظل، والملح، وكما في الأرض والمطر، كذلك في الشمس والشجر، فالشجرة الحية هي وحدها التي تنتفع من حرارة الشمس وضوئها، بخلاف الشجرة الميتة التي لا تزيدها الشمس إلا جفافاً وانكساراً، حيث تفسدها الشمس وتذروها الرياح، وكما في ذلك كله، كذلك في أعضاء البدن حيث السلامة شرط أساسي في وضع أو رفع التكليف عن ذلك العضو البدني، فالعين لكي ترى النور فإنه لا بد لها من أن تكون سليمة لأن -عطبها يسقط شرطاً أساسياً من شروط الانتفاع وعندئذ لا يمكن للعين السقيمة أن تنتفع بالنور أو ترى طريقاً لها مفسوحاً أمامها.

وبذات الطريقة وبنفس المعادلة، نجد الانتفاع العلمي والمعنوي في الحقائق حيث ضرب القرآن الكريم مثلاً لهذا فقال: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾.. الخ^(١) وكما أن الأودية تأخذ من الماء بقدرها، كذلك القلوب تأخذ من الهداية والعلم والنور والمعرفة بقدرها، كما قال مولانا أمير المؤمنين علي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام (يا كميل إن هذه القلوب أوعية وخيرها أوعاها) فكما أن هذه الأرض أودية وخيرها أكثرها استيعاباً واحتواءاً للماء، كذلك القلوب أوعية وخيرها وأكثرها قبولاً عند الله أكثرها استيعاباً واحتواءاً للحق وأهل الحق على أنني أجد التزاماً عليّ أن أوضح لكم هذه المسألة بشيء من تسليط الضوء على وصية الله عز وجل كليمة موسى بن عمران على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام كما جاء بذلك الذكر الحكيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾^(٢).

إذاً: فهناك حجب وموانع تحول بين الإنسان والمعرفة وهذه الحجب والموانع مؤلفة ومشكلة من الشك والجهل، والحرص والحسد وحب الدنيا، والاستخفاف بالدين، والانغماس بالفسق والفجور، فهذه هي الظلمات التي تغطي مساحات واسعة من وعي الإنسان فتغطي عينه وبصيرته، وتجعل غشاوة على قلبه، لأنه يعيش في ظلمات والذي يعيش في الظلام لا يمكن أن يتحسس النور أو يعرف قدر الحق، والحقيقة

(١) الرعد / ١٧.

(٢) إبراهيم / ٥.

تقتضي نقل هؤلاء من الظلمات إلى النور ثم تبدأ عملية التذكير والذكرى لأن الذي يقبع في ظلمات الجهل والشك والفتن، ليس في استطاعته أن يعرف أيام الله أو أن يتفاعل معها، لذلك أمر الله نبيه موسى الكليم بأن يخرج قومه:

أولاً- من الظلمات إلى النور فإذا حلوا في النور وأضاء قلوبهم ذكرهم يا موسى بأيام الله هنا فقط لأن الذكرى ستففعهم وهم في النور فيتفاعلون معها، ومن هنا نستطيع القول بالجزم والقطع والتأكيد: أن الذين هم في الظلام لا يعرفون من هي فاطمة الزهراء عليها السلام، فضلاً عن معرفة حقها، لذلك يقول أبو عبدالله الصادق عليه السلام: إن من عرف حق فاطمة فقد أدرك ليلة القدر، هذا جانب وسيأتي الكلام فيه وحوله في موضعه إن شاء الله تعالى في هذا الكتاب، ولكن فقط أريد أن أبين أن المتلقي يختلف دائماً في كل شيء في هذا الكون حتى على مستوى القلوب التي تتلقي الحق والحقيقة، فتراها مختلفة على قدر وزن الإيمان والمعرفة فيها، فالذين يستمعون إليك وأنت تتحدث عن الحق ليسوا سواسية كأسنان المشط في الفهم والقدرة على استيعاب الكلام ليسوا سواء، فمنهم من يستمع إليك ولكنه لا يفقه ما تقول وآخر يستمع إليك فتري عينه تفيض من الدمع مما عرف من الحق، وثالث يستمع إليك بقلب لاهٍ وفكر موزع وإرادة واهية ممزقة، وهذا يجري مع كل الخطباء والمتكلمين والمتحدثين حتى على مستوى الأنبياء والرسل، فهذا نوح عليه السلام نراه -في القرآن- يخطب في قومه ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فتجد المستمعين عنده يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم -أي يجعلون ثيابهم على عيونهم

حتى لا يروا شخص المتحدث ولا يسمعوا صوته، ثم يصرون على الحنث العظيم ويستمررون على استعذاب طعم الجريمة في قلوبهم حين تدخل كلمة حق من فم نوح إلى قلوبهم فتراهم يستكبرون ويصرون على الكبر، ونفس الشيء مع بقية الأنبياء حتى مع رسول الله ﷺ فلم يحصل على أناس في مستوى واحد يستمعون إليه، وحتى الإمام الحسين المظلوم صلوات الله وسلامه عليه لما أراد أن يخطب في القوم يوم عاشوراء قابلوه باصطناع الجلبة والضوضاء وعدم الاصفاء إليه، علماً أنه هو القرآن الناطق فهو كتاب الله الناطق، في مقابل الكتاب الصامت الذي يقول الله عند قراءته: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١).

ولكن المسألة تختلف اختلافاً كبيراً يستدعي وقفة منا للتأمل وهي أن السيدة الحوراء الإنسية فاطمة الزهراء سلام الله عليها، حين دخلت على الناس في المسجد لإلقاء خطابها أخذت بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم فلم يتمكن أحد منهم أن يخرج من المسجد، أو يصنع جلبة وفوضى لتشويش الخطاب عليها وافساد الفرصة هذه علماً بأنه وجهه القوم كانت تتجه نحو هذا اللون من العمل وما شاكله، ولكنهم كلهم أجمعون اكتعون ابصعون كانوا جالسين كأنما على رؤوسهم الطير، وقد أخذتهم هيبة فاطمة حتى أنها حين جلست وأنت أنه أجهش القوم كلهم لها بالبكاء، وما كان البكاء عادياً وإنما كان بكاءً استثنائياً لأن المرأة التي جلست تطلق أنينها في المجلس لم تكن امرأة عادية من سائر النساء، وإنما كانت سيدة نساء العالمين من الأولين

(١) الأعراف / ٢٠٤.

والآخرين، ومن دارت القرون الأولى على معرفتها، وهي التي أخذ الله ميثاق الأنبياء والرسل جميعاً على طاعتها وحجتها، فكانت طاعتها مفروضة على كل الأنبياء والمرسلين والمعصومين حتى على أبيها رسول الله ﷺ لأن فاطمة روحه التي بين جنبيه وقلبه ومهجة قلبه وبضعته، فلا يمكن أن يكون اختلاف بين إرادتها وإرادته ولا بين رضاها ورضاه، ولا بين غضبها وغضبه، ففاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها كلهم نور واحد، بل هي خلقت من نور عظمة الله وهي المشكاة التي حوت نور عظمة الله فيها كما جاء ذلك في آية النور في سورة النور ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ (١) الخ (٢). من هنا أقول: كانت طاعتها مفروضة على الأنبياء والرسل بما فيهم سيدهم وخاتمهم أبوها المصطفى لأنه لا يوجد شيء يجعلها ضد إرادة أبيها ولا عكس اتجاه طاعته أبداً بل إن الله عز وجل يبدأ بذكر اسمها قبل المعصومين كما في حديث الكساء الصحيح الموثق السند وكما في الرواية التي يرويها العامة والخاصة أن فاطمة بنت محمد هي أول شخص يدخل الجنة يوم القيامة، وقد مرت الإشارة إلى ذلك لأنها روح النبي وقلبه، وأنت إذا وقفت على باب دار لأهل بيت تحبهم ويحبونك وتعزهم ويعزونك، فأية جهة تدخل الدار قبل بدنك وجسدك؟ لا شك أن قلبك يسبقك بالدخول إلى أهل الدار، وكذلك روحك تدخل قبلك إلى أهل هذا البيت ومن هنا فإن فاطمة عليها السلام هي روح النبي وروحه تدخل الجنة قبله، يضاف إلى أن كونها تدخل قبل الجميع إلى الجنة، إنما هو تكريم من الله ومن رسوله لها

(١) النور/ ٣٥.

(٢) بحار الأنوار: مجلد/ ٢٣ - صفحة/ ٣١٦.

روحي فداها، أشبه بوالد يريد الدخول إلى مكان جميل فيه ما لذ وطاب وكل شيء تستعذ به الأرواح وتلتذ به القلوب، ومعه ابنته الوحيدة، فنراه يقدمها حتى قبل أولاده لأن البنت لها مكانة وهي مقدمة في كثير من الأمور كما جاءت بذلك الوصايا، قدموا الإناث قبل الذكور،

وكما في وصية النبي ﷺ للإمام علي عليه السلام، حين أرسله إلى اليمن يقول فيها: يا علي اصنع كذا وكذا ثم يقول: وقدم النساء على الرجال، فإذا كان النبي يوصي بتقديم النساء على الرجال وهو ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهذا أمر من الوحي أن يقدم النساء على الرجال، فما بالك بسيدة النساء فلا بد أن يقدمها على سيد الرجال أبيها رسول الله ﷺ، على أن هذا التقديم نجده واضحاً لا لبس فيه، في حديث الكساء من الله العزيز الحكيم حيث قال لجبرائيل حين سأله: ومن يا رب تحت الكساء؟ قال الله عز وجل: هم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة، هم فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها، فنجد أن الله تبارك وتعالى قد قدمها قبل أبيها وقبل المعصومين، وهذا يعد من خصائص فاطمة ليس له علاقة بالأفضلية، فنحن نعرف ونعتقد أن مقام النبي محمد ﷺ ليس فوقه مقام وأنه خلق من مكان يصفه القرآن بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(١) وأنه لو لم يخلق في ذلك المكان لما استطاع أن يبلغه ويصل إليه، كما قال أبو جعفر الباقر عليه السلام، فهذا كله صحيح ولكن الصحيح أيضاً أن الله لم يبلغ بحبيبه المصطفى إلى هناك ولم يعرج به إلى مكان قاب قوسين أو أدنى، إلا ليريه من

(١) النجم / ٨-٩.

آياته الكبرى، والآيات الكبرى التي رآها النبي إنما هي أهل بيته كما جاء في التفسير الصحيح الوارد عن أهل البيت عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام حيث رأى علياً وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة القائم المهدي رآه واقفاً وسطهم يصلي كأنه كوكب دري، إذاً: فهذه هي الآيات الكبرى التي رآها النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(١) فجاء معه بفاطمة الزهراء كما هو معروف من قصة التفاحة وثمار الجنة التي ناوله إياها جبرئيل بعد أن اقتطفها من شجرة طوبى فلما أكلها النبي تحولت إلى نطفة في صلبه وحين هبط إلى الأرض واقع خديجة فحملت بفاطمة ففاطمة حوراء أنسية -كما يقول النبي- كلما اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة، وأنها لتقف في محرابها تصلي فيقف خلفها سبعون ألف ملك يصلون بصلاتها، ثم يواصل التعريف بفاطمة ومقامها وعظمتها عند الله عز وجل وعند الرسول وعند الأنبياء والملائكة والمعصومين وسوف يمر علينا توضيح لهذه الفكرة بشكل أكثر تفصيلاً حتى تظهر الحقيقة التي يبحث الناس عنها ومفادها: أن الله عز وجل حين أراد أن يعرف النبي ﷺ بأهل بيته وخصوصاً بابنته فاطمة عرج به إلى السماء بل إلى مكان ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ليريه آيات ربه وفاطمة هي آية الله الكبرى والذي يريد معرفتها فليتأمل أقوال القرآن فيها وفي بيتها، حيث أن بيتها أرفع البيوت ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

(١) النجم / ١٨.



بِالْغُدُورِ وَالْأَصَالِ (٣٦) رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١) وما دام هو بيت فاطمة من البيوت التي أذن الله أن ترفع (٢)، فإن الارتفاع هنا يكشف لنا عن حقيقة المعرفة لأن الارتفاع بالبدن يعطي قدرة أكثر لمعرفة الأشياء والطبيعة، في حين أن الارتفاع بالروح يعطي قدرة أكثر لمعرفة الحقائق والغيب والعلم والنور، ولأن فاطمة لا يصل إلى مستواها إلا أبوها وبعلمها وبنوها والأنبياء، أقصد مستوى معرفتها لا مستواها هي الذي لا يرقى إليه أحد من غير المعصومين، أقول: لأن فاطمة لا يرقى إليها الطير، وينحدر عنها السيل فقد عرج الله بأعظم شخصية في العالم حبيبته المصطفى محمد ﷺ ليريه من هي فاطمة الزهراء سلام الله عليها فتأمل هذا وأمثاله من الأحاديث تتفتح أمامك آفاقاً جديدة في العلم والمعرفة.

والآن نعود إلى أصل البحث وهو أن قدرة الزهراء وقوة شخصيتها فرضت على الحشد الهائل من المهاجرين والأنصار الذين باغتهم الزهراء بمجيئها، أن يصغي كل واحد منهم ليس فقط لخطاب فاطمة بل وأيضاً لأناتها ودموعها بحيث تتحول الأنة الحزينة الواحدة إلى أقوى بركان يندفع من أعظم الجبال فاهتز المجلس وارتفعت الأصوات بالبكاء لأنة واحدة من فاطمة، وإذا كانت امرأة مثل فاطمة تستطيع في

(١) النور / ٣٦ - ٣٨.

(٢) بحار الأنوار: مجلد / ٢٣ - صفحة / ٣٢٦.



أنة واحدة أن تفجر هذا الجمع الغفير بالبكاء فما تقول بقوة كلامها
وخطابها؟

على أن هنا ملاحظة جديدة بالالتفات والاهتمام وهي: أن الكلام
الذي ينطلق من الأفواه تتفاوت قوته من شخص إلى آخر حسب تفاوت
قوة الأشخاص ومدى علاقتهم بالحق، فبعض الكلمات تموت فوق
الشفاه قبل أن تتفرج الشفتان عنها، وذلك لضعفها وأنها ليس فيها قوة
ولا فكر جديد، وبعض الكلمات تعيش يوماً واحداً ليس أكثر وذلك مثل
كلام الصحف والجرائد الذي لا يعمر أكثر من يوم واحد وأحياناً نصف
يوم يدل على ذلك أنك لا تقرأ جريدة الأمس وأهل المساء لا يقرأون
صحف الصباح، فهذه صحيفة صدرت بالأمس نرفض قراءتها اليوم
لأن كلامها فقد قوته ومصداقيته، وتلك صحيفة صدرت في الصباح
فلا نقرأها في المساء لأنها هي الأخرى فقدت قوتها ووهجها بين
الصباح والمساء، وبعض الكلام يظل قوياً ما دام صاحبه على قيد
الحياة مثل كلام الملوك والسلاطين وذلك لوجود أجهزة الإعلام العائدة
لصاحب الجلالة السلطان رغم أن كلامه تعوزه الحقيقة ويغيب عنه
الصدق إلا أنك تراه يردد في وسائل الاعلام ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً
حتى ينطبع في أذهان الجماهير، غير أن هذا الانطباع سرعان ما
يتلاشى ويضمحل ويذوب عند فقد هذا الملك أو ذاك السلطان فبموته
تموت أوراقه وتتطفأ كلماته هذا إذا كان فيها بصيصٌ من نور وسائل
الإعلام أما نور الحق فهي أبعد ما تكون عنه، في حين أن بعض الكلام
يظل قوياً مدوياً ما دامت السموات والأرض لا ينطفأ ولا يذبل ولا
يزوي، ولا يتلاشى، أبداً أبداً لأنه كلام حق فمن الحق انطلق، وفي



الحق يجري لذلك تجد شعوب العالم تتعارف على هذا النوع من الكلام قبل أن تتعارف على الأنساب والأحساب، لأن ميزان الكرامة التقوى والتقوى هي كلمة الحق والحق وحده الباقي، وإنني في هذه المناسبة أتذكر قصة طالما رددتها فوق أعواد المنابر لأن فيها جانباً تربوياً يشير إلى هذا المعنى وهذه الوجهة، وأتذكر قبل سنوات مضت كنت يومها أسكن في البحرين أقيم فيها مجالس العزاء على الإمام الحسين عليه السلام فحدث ذات يوم أن مرض أحد أولادي الصغار وكان في الشهر السادس من العمر فحملته وانطلقت به إلى أقرب عيادة لحكيم كان على مقربة من دارنا وهو الدكتور مصطفى المصري أتذكر اسمه هكذا وحين أجرى فحصاً على ولدي طمأنني بأنه في حال جيدة وأن هذه عارضة وستزول سريعاً ثم تابع الطبيب يقول: إن في أعماق هذا المخلوق الصغير حبلاً يعبر القارة الإفريقية، فقلت له متعجباً حبل يعبر القارة السوداء؟! قال: نعم، شبكة الأوعية الدموية إذا قمنا بتوصيلها عملياً فإنها تتحول إلى سلك يقطع مساحة ثمانين ألف كيلو متر، فقلت أنا: سبحان الله، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

وإذا بالطبيب يترك الطفل الصغير على المنضدة الطبية، ويتوجه إليّ وعيناه تذرفان الدموع وهو يخاطبني بصوت تخنقه البحة والحزن والخشوع: يا شيخ يا شيخ بالله عليك لمن هذا القول؟ من صاحب هذا الكلام، إنه كلام عظيم وعظيم وعظيم؟

قلت له: يا دكتور هذا مقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام الذي



قاله يوم عرفة عندما كان يؤدي مناسك الحج يوم الحج الأكبر.. قال: فهذا قول الإمام الحسين؟ قلت: نعم.. هذا كلام الإمام الحسين عليه السلام فجلس الطبيب على الأرض احتراماً وإجلالاً وإكباراً للإمام الحسين وهو ينتحب من البكاء ويقول: خسر من لا يعرف قدركم يا أهل بيت محمد صلوات الله عليكم أجمعين، وهنا قلت له ويدي على كتفه: دكتور اسمع ما أقول لك: أني قرأت عليك كلمات قالهن عظيم من أهل البيت وهو الإمام الحسين وأنت سمعت هذه الكلمات بصوتي لا بصوت الحسين فالعجب لو أنك سمعت هذه الكلمات من فم الإمام الحسين عليه السلام وبصوته ماذا كان يحدث لك؟ ثم أيها الطبيب تأمل هذه الكلمات الحسينية كيف حفظت قوتها وعمقها وبلاغتها وفصاحتها بالرغم من أنها قطعت مسافة زمانية قرابة ألف وأربعمائة سنة منذ قالها الحسين إلى اليوم ولكنها لم تفقد قوتها ولا انطفأ نورها أبداً فيا للعجب أنها تقطع كل هذا الزمن والوقت ثم تصل إلى مسامع حكيم مصري فيهتز لها من كل قلبه ومن صميم أعماقه ولا يملك إلا أن ينفجر بالبكاء، فبالله عليك أيها الطبيب كم تقدر حجم الخيانة التي يرتكبها خطباء الجمعة عندما يكتمون هذا العطاء الفكري عن الناس ويحرمونهم لذة هذا الغذاء ليزدادوا عند سماعه تعلقاً بالحسين عليه السلام الذي قال فيه جده رسول الله ﷺ: (حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً) ثم واصلت أقول: أيها الطبيب ألا تعتقد أن حب الحسين يحيي القلوب وتكتمل به العقول لأن الله عز وجل حين خلق العقل قال له: أقبل فأقبل إلى آخر الرواية حيث قال الله مخاطباً العقل: (وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن

أُحِب). فإذا كان الله لا يكمل العقول إلا في رؤوس الناس الذين يحبهم الله، وإذا كان الرسول يقول: أحب الله من أحب حسيناً، فهذا يعني أن حب الحسين يكمل العقول وأن العقل يتغذى ويتكامل بحب الحسين، واثبات الشيء لا ينفي ما عداه، فمودعة أهل البيت لإكمال العقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) وعلى رأس الجميع فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين الحوراء الإنسية المظلومة الشهيدة، التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها، فقاطعتني الطيب ولا زالت الدموع تفيض من عينيه حزناً لما عرف من الحق، وقال لي: إن الذي أسمعته عن الزهراء فاطمة وأبنائها البررة كأني أسمعته لأول مرة في حياتي فلم يسبق أن سمعت أحداً من خطباء الجمعة أو المتحدثين الذين يملؤون الدنيا بخطاباتهم في الفضائيات ووسائل الإعلام لم يحدث -ولا مرة واحدة- أن سمعت من أحدهم ما سمعته منك الآن، قلت له: يا حكيم إن في الصحاح مثل البخاري ومسلم وغيره أبواباً خاصة تعنى بشؤون فاطمة الزهراء وتنتقل فضائلها وخصائصها، والحديث الذي يقول: أن أول شخص يدخل الجنة يوم القيامة فاطمة الزهراء، إنما هو حديث أخرجه كبار الحفاظ من علماء العامة والسنة والجماعة ومنهم على سبيل المثال: الذهبي في ميزان الاعتدال، وابن حجر في لسان الميزان، وكذلك في البخاري ومسلم وبقية الكتب ولكن هؤلاء استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر فاطمة سيدة النساء وذكر ابنائها المعصومين فانطبق عليهم قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ

(١) الشورى/ ٢٣.

وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١).

والآن تعالوا معي أيها الأحبة، ونحن نتابع خطوات الزهراء صلوات
الله وسلامه عليها في طريقة خروجها إلى المسجد، فقد اختارت أن
تخرج من الباب العام الذي يقع على الشارع العام باب بيتها علماً أن
هناك باباً يفضي إلى المسجد مباشرة وهو الباب الذي تركه النبي
مفتوحاً وسد الأبواب كلها كما هو معروف حيث كانت بيوت بعض
الأصحاب تتفتح بأبوابها على المسجد النبوي الشريف واستمرت على
ذلك الحال رداً من الوقت فجاء الأمر من الله يقضي بسد الأبواب
كلها إلا باب علي وفاطمة وحين اعترض البعض على ذلك أجابهم
النبي في صراحة ووضوح: إني ما أنا سدت أبوابكم وفتحت باب
علي، وإنما الله عز وجل سد أبوابكم وترك باب علي عليه السلام، ولهذا تجد
الأخبار تحدث أن الحسين عليه السلام يوم كان طفلاً صبيّاً كان يدخل من
هذا الباب على جده النبي ﷺ وربما رآه ساجداً فيركب على ظهره
فيطيل السجود النبي إكراماً لولده الحسين كما هو معروف ومشهور
لدى العامة والخاصة، ولكن هنا في خروج الزهراء إلى المسجد لإلقاء
خطابها نراها قد تركت هذا الباب ذي الطريق القصير، وأخذت
الطريق العام وذلك لعدة أمور: أولها: أنها أرادت إثارة الرأي العام
لل قضية المقدسة التي خرجت تطالب بها وهي إمامة علي أمير المؤمنين
عليه السلام وخلافته التي تقمصها القوم يوم السقيفة وفي الشمس الضاحية
دون رادع ولا زاجر ولا مستنكر، هذا أولاً وثانياً نحن نعرف ثواب الذي
يسعى في قضية مقدسة عظيمة يطالب بها ويذكر الناس بحقها،

(١) البقرة/ ١٥٩ - ١٦٠.

نعرف أن الساعي في هذا الطريق كلما زادت خطواته زادت درجته ومقدار ثوابه، يدل على ذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١) والعجيب أن هذه الآية بالذات تشير إلى حقيقة أخرى وهي حق الإمام المبين الذي هو علي أمير المؤمنين عليه السلام وجاء ذكر الآثار أي آثار المشي في طريق الحق، وآثار الخطوات التي تتحرك في هذه الجادة وهذا السبيل، ولذلك خرجت الزهراء سلام الله عليها في هيئة خاصة، وطريقة هي اختارتها أن تكون أكثر وقفاً في القلوب، فقد خرجت ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله تطأ ذيولها، وفي هذا إشارة لأشياء عديدة يمكن ذكر بعضها هنا ومنها شدة الحجاب أن القرآن الكريم يشير إلى فلسفة الحجاب فيقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (٢) وكأن الحجاب يقوم بعملية تطهير للقلوب عند الرجال وعند النساء على حد سواء، لأن النظرة سهم من سهام إبليس، وفاطمة الزهراء هي سيدة نساء العالمين وهي تعلم النساء هذه الفريضة الطيبة، الحجاب، فهذا جانب نفسي وروحي وله علاقة بتطهير القلوب، فنحن نطهر أبداننا بالماء ولكن القلوب بأي شيء يتم تطهيرها؟ بالإيمان والتقوى، وبالامتنثال لأوامر الله عز وجل، ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ وحتى في آية الوضوء يقول الله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣) وإذا

(١) يس/ ١٢.

(٢) الأحزاب/ ٥٣.

(٣) المائدة/ ٦.

كانت علاقة الطهارة والتطهير تربط الحجاب بالقلوب والقلوب بالحجاب لسائر نساء المسلمين فما بالكم بسيدة نساء العالمين التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، تأملوا الارتباط بين الكلمتين في آية الحجاب: ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ وفي آية التطهير: ﴿وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١) يجب أن يكون الحجاب عندها أشد من حجاب سائر النساء لأنها سيدة النساء وهذا هو الواقع خرجت وقد لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها واقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله ﷺ.

على أن هناك قصة في حجاب فاطمة أود أن نقلها لكم هنا لأن نقلها اعتبره نوعاً من أداء الأمانة وحفظ حقوق الزهراء سيدة النساء عليها السلام، والقصة وقعت قبل سنوات من كتابة هذا الكتاب وكنت يومها في الكويت في بيت أحد السادة الأشراف في دعوة على الغداء وكان في المجلس ثلة من العلماء والفقهاء وأصحاب القلم والفكر، وكانت العادة في مثل هكذا مجالس أن نتجاذب أطراف الحديث في مسألة من المسائل الفقهية أو اللغوية أو التفسيرية أو الأدبية حسب ما تقتضيه الحال ونوعية الحضور، فكانت المسألة التي أثارت في تلك الجلسة هي حجاب الزهراء سلام الله عليها وهل كانت فاطمة تغطي وجهها أم لا؟ حيث بعض الروايات التي جاءت على لسان سلمان وجابر الأنصاري تصف صفرة وجهها من الجوع، هكذا بعض الروايات تتحدث، علماً بأن هذه الروايات يجب أن تخضع للدرس والتفقه والتأمل والحوار، لا تأخذ هكذا كما هي، المهم دار الحديث في ذلك المجلس حول حجاب

(١) الأحزاب / ٣٣.

فاطمة وأذكر من بين الحضور السيد محمد رضا الشيرازي، والشيخ إبراهيم الحائري والسيد ثابت ال ثابت حيث جرت القضية في داره، المهم خاض القوم في مسألة الحجاب بين مثبت وبين نافٍ، وبين مكذب ومصدق ولم يتركوا مسألة تتعلق بهذا المجال إلا طرّقوها، وقد استغرقت الجلسة أكثر من ساعتين بعد تناول طعام الغداء وشرب الشاي، كان الكل يتحدث حول حجاب الزهراء باستثنائي أنا، فأنا الوحيد في ذلك المجلس الذي لم اتحدث ولم أشارك في النقاش والحوار لا من قريب ولا من بعيد، لا نفيّاً ولا اثباتاً، حيث على ما أتذكر أنني كنت مشغولاً ساعتها بالتحضير لمحاضرة المساء حيث كنا في العشر الأواخر من شهر محرم الحرام وكنت أصعد المنبر في حسينية الإمام الحسين في منطقة سلوى في الكويت فكنت غارقاً في الفكر والتحضير لمجلس المساء، وهذا الذي منعتني أو قل وهذا هو الذي قطعني عن المشاركة في البحث علماً بأنني كتبت بحثاً شيقاً في حجاب فاطمة وأودعته في كتاب اعلموا أنني فاطمة، وممكن سيمر عليكم وتقرؤونه في هذا الكتاب، المهم أنني -ويا للأسف ويا خجلتاه من سيدتي فاطمة الزهراء سلام الله عليها- أنني لم أشارك الحضور في مناقشة حجاب الزهراء عليها السلام.

وانفض المجلس وذهب كل واحد منا إلى شأنه، أما أنا فذهبت لأخذ قيلولة بعد الغداء عصراً وكان المجلس الذي جرى فيه حديث حجاب الزهراء عليها السلام كان ذلك في تمام الساعة الثالثة عصراً، وبعدها ذهب كل واحد منا إلى داره وشغله وشأنه، وعند يقظتي من النوم هيئت نفسي لأداء صلاة المغرب والعشاء ثم توجهت بعدها إلى المجلس وإذا

بامرأة واقفة على باب الحسينية بيدها كتاب سلمته إليّ وذهبت ويظهر من هيئة المرأة أنها من نساء الشيعة من جنوب لبنان وكانت تواظب على حضور هذه المجالس، وكانت الرسالة التي وصلتني عبارة عن ورقة كبيرة مكتوب عليها هذا الأمر دون أن تكون قد وضعت في ظرف أو غلاف أبداً وإنما هي رسالة بلا ظرف ولا غلاف ففتحتها على الفور وإذا بي أقرأها من أول سطر: شيخنا الجليل الشيخ عبدالحميد المهاجر -انقلها لكم كما هي- اليوم عصراً في الساعة الثالثة عصراً رأيت مناماً كأنني في هذا المجلس جالسة في قسم النساء -وكان المجلس ينقسم إلى قسمين قسم للنساء وقسم للرجال- فرأيت امرأة جليلة ذات هيبة ووقار وفيها حالة من النورانية بحيث يرتاح القلب لها، فوجدتها جالسة وهي غارقة في حجابها وعليها ثياب سوداء فقلت لها: لماذا أنت ترتدين هذا السواد؟ فقالت لي: إني لم أرفع هذا الغطاء عن وجهي طول حياتي، وإني أأتي كل يوم أنا وأبي رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ لحضور هذه المجالس في كل يوم فأنا مع النساء وأبي مع الرجال، ثم تقول صاحبة الرسالة: فمن هي هذه المرأة يا شيخنا المهاجر؟

والعجب الذي أثار دهشتي أن صاحبة الرسالة لم تدر ما تقول وكأنما المقصود والهدف أن توصل الرسالة بكل أمانة إليّ أنا واستلمها منها، فأن في الرسالة قالت المرأة السيدة الجليلة: إني مع أبي رسول الله محمد بن عبدالله نأتي إلى هذه المجالس في كل يوم، وهذا يعني أن المتكلمة وصاحبة الرسالة إنما هي الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها وإنما إرادت أن تبعث لي رسالة

عاجلة مفادها: يا عبدالحميد إني لم أرفع هذا الغطاء عن وجهي طول حياتي، وانظروا إلى الجواب لم يكن موجهاً إلى المرأة السائلة التي استفسرت من الزهراء عن سبب لبسها السواد، فهي لم تقل لها: مثلاً: إني ارتدي هذا السواد حزناً على ولدي الحسين الذبيح بكربلاء وإنما قالت: إني لم أرفع هذا الغطاء عن وجهي طول حياتي، وهذا يدل على أنها وجهت الجواب إلينا نحن الجالسين نتجاذب أطراف الحديث حول حجابها، ففي الوقت ذاته الساعة الثالثة عصراً كنا مع ثلة من العلماء يجري الحديث بيننا حول حجاب الزهراء. وكانت الزهراء تبعث برسالة عاجلة في اللحظة نفسها، والساعة ذاتها، إنها كانت تغطي وجهها طول حياتها، ثم انظروا إلى عمق المسألة وهي لمن أرسلت الرسالة العاجلة؟ أرسلتها إلى الذي لم يشترك معهم في الحوار ولم يدافع عن حجاب فاطمة وهو أنا عبدالحميد المهاجر لإني كنت في شغل التحضير لمحاضرة المساء، ولكن مع هذا كله فإن فاطمة الزهراء سلام الله عليها لا تسمح لواحد من شيعتها أن يسمع قضية تطرق أمام عينيه وبحضوره والقضية تخص فاطمة ويسكت عنها ولا يدافع فيأتي العتاب حاراً ساخناً يحمل من المعاني ما لا يتمكن القلم ولا البيان من شرحه، وأقول لكم: إني حين قرأت كتابها صعدت المنبر وأنا في حال غير الحال التي جئت بها إلى المنبر وتغير كل البحث من أوله إلى آخره وصرت لا أملك عبرتي فوق المنبر وأقول للناس: أيها الناس اسمعوا إذا كانت الزهراء سلام الله عليها توجه عتاباً حاراً لشخص سكت عن الدفاع عن مسألة حجابها علماً أن ذلك الشخص -الذي هو أنا- كان قد كتب حول حجاب فاطمة ولكنه تلقى منها تلك الرسالة العاتبة الغاضبة، فما بالكم بمن يتناول على مقام الزهراء عليها

السلام فينفي مظلوميتها وينكر شهادتها، ويرفض عصمتها -كما هو الحال عندنا اليوم- فقد رأيت محاولات مشبوهة من بعض الناس تهدف إلى إخراج الزهراء من المعصومين الأربعة عشر، فقد رأيت أحد الكتاب كتب عن المعصومين ولكن ليس أربعة عشر معصوماً وإنما ثلاثة عشر معصوماً فقط وأنزل هذه السلسلة في الأسواق كلام وتأليف وكتب عن المعصومين ولكن من دون فاطمة يا للهول وللأسف حين صار البعض منا يحاول إخراج فاطمة عن المعصومين الأربعة عشر فصار اليوم عندنا ثلاثة عشر معصوماً بدل أربعة عشر معصوماً، ورأيت ذلك حتى في أوراق دعاء طبعت وجرى توزيعها في المجالس تذكر ثلاثة عشر معصوماً من دون فاطمة فلا يوجد لها اسم ولا ذكر عند هؤلاء الذين خلت قلوبهم من حب فاطمة فراحوا يروجون مثل هذه البدعة والتي اخترعوا جواباً لها مسكتاً لمن يسأل عن فاطمة كأن يقولوا له: نحن نذكر النبي وأشي عشر إماماً فهل هذا حرام؟ طبعاً وبكل تأكيد حين يكون القصد هو اقصاء الزهراء عن المعصومين، وإخراجها عن أهل البيت فإن هؤلاء الذين يكتبون عنهم يفضون لأهمهم الزهراء سلام الله عليها ويلعنون من يصنع ذلك منهم، هذه الزهراء فاطمة التي هي ميزان للإيمان وميزان للإسلام وميزان لغضب الله ورضاه، وهي المقدمة قبل المعصومين في حديث الكساء وهي أول شخص يدخل الجنة^(١) كما في كتب السنة والجماعة فكيف طابت أنفسكم أن تخرجوها من المعصومين؟ كيف طابت أنفسكم أن تكتبوا عن أربعة عشر معصوماً باقصاء فاطمة واسقاط اسمها من بينهم وإخراجها من بيوت أذن الله أن ترفع بفاطمة وأبيها وبعلمها وبنيتها..

(١) بحار الأنوار/ مجلد: ٤٣- صفحة: ٤٤ - باب: ٣ .



وإذا أراد الواحد منكم أن يكتب عن الأئمة الاثني عشر، ويكتب عن النبي فما الذي يمنعه أن يكتب عن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء؟ هل تكسرت الأقلام أم أن الحق والبغض ضد فاطمة هو الذي حال بينكم وبين الكتابة عنها، وهذه موضة جديدة لم أعهد لها من قبل، وبدعة حديثة اخترعها الضالون المضلون الذين كانوا وما زالوا يحاربون فاطمة الزهراء، ولكن دعوني أنقل لكم خبراً جديداً لم تسمعوه من قبل يخص فاطمة وفي إمكانكم التأكد منه بلمسة واحدة على زر الكمبيوتر والانترنت حدث هذا وأنا منكم في اعداد هذه الموسوعة لطبعة جديدة -إعلموا أني فاطمة- فرأيت أن ندخل على المواقع في الانترنت لنرى كم من المواقع يذكر فاطمة الزهراء عليها السلام وصدقوني إنني أخذتني الدهشة لا من شيء وإنما من الرقم الذي أظهره جهاز الكمبيوتر لعدد المواقع التي تتحدث عن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، فكان عدد المواقع ثلثمائة ألف موقع في الانترنت الذين فيهم موضوع وموضوعات عن حياة فاطمة الزهراء عليها السلام وأكرر عليكم الرقم أنه (٣٠٠٠٠٠) ثلثمائة ألف موقع في الانترنت تتحدث عن فاطمة الزهراء وفي إمكانكم أن تجربوا فهذا جهاز الكمبيوتر -الانترنت- موجود في بيوتكم وما عليكم إذا أردتم التأكد من صحة هذه المعلومة، إلا أن تلمسوا زر المعلومة هذه فقط: اطلبوا اسم فاطمة الزهراء. ليفاجئكم الكمبيوتر بعرض ثلثمائة ألف موقع فقط بهذا الاسم فما بالكم باسماء فاطمة الأخرى مثلاً إذا ضربتم في جهاز الكمبيوتر -الانترنت- على فاطمة البتول، أو فاطمة الحوراء الإنسية، أو فاطمة المباركة، أو الصديقة الطاهرة فكم -تتصورون- عدد المواقع التي ستخرج وتظهر إليكم- وهذا مما يحز في النفس أن الناس الذين هم الأبعدون عن فاطمة يفتحون لها ولواحد

من اسمائها فقط ثلثمائة ألف موقع، في حين أن الناس الأقربين لفاطمة يقومون باقصائها عن المعصومين وإخراجها منهم، ولكن هل في إمكان هؤلاء أن يغيروا الحق؟ وأود أن أقول هنا أن عدد المواقع في الانترنت التي تتحدث عن فاطمة الزهراء عليها السلام قد بلغت قرابة العشرين مليوناً من المواقع على شاشة الانترنت.

فهذا القرآن الذي يذكر الزهراء في آياته الواضحة بل هي القرآن الناطق، وأسأل هؤلاء الصغار الذين كتبوا عن ثلاثة عشر معصوماً وتركوا فاطمة دون كتابة طلباً لإرضاء بعض النفوس الحاقدة على الزهراء أود أن أسألهم لأقول لهم: ماذا تصنعون بآية المباهلة والتي فيها نص صريح على وجود الزهراء وأنها حجة الله الكبرى لأنه قال: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١) ماذا تقولون لله عز وجل عند قراءتكم هذه الآية وآية التطهير وسورة النور وسورة الدهر وآية المودة وكل الآيات التي نزلت في فضل فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها؟ حيث تقول: «أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي، فدونها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشر، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعود القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم». (٢)

(١) آل عمران/ ٦١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٩ - ص ٢٢٦ - فصل ما ورد في خطبة سيدة النساء.

فاطمة ومشية الرسول

(لأثت خمارها على رأسها، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله ﷺ حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار).

أول شيء نأخذه من خروجها إلى الحق وهي على هذه الحالة والصفة، إن الحجاب لا يمنع المرأة أن ترفع صوتها منادية -باحقاق الحق وإبطال الباطل، ففاطمة سيدة نساء العالمين، وهي المثل الأعلى للرجال والنساء في الأجيال وشعوب الأرض كافة، وهي التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها، لأنها معصومة ليس في حياتها خطأ ولا في قولها غلط، ولا في فعلها شطط كما أكدت ذلك في خطابها هذا حيث لا مكان للخطأ، ولا للغلط، وإلا لما كان الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها، فكون الله عز وجل يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها، يدل على أنها معصومة، وهو حديث -بقوته وصحته وشهرته- يأخذ بأعناق الأمة إلى الاعتراف بعصمة الحوراء الإنسية الصديقة الكبرى سيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها وعلى أبيها وبعلمها وبنيتها وعلى السر المستودع فيها بصدق ليس فيه كذب، وجد لا يشوبه لعب، ويقين ليس فيه شك ولا ريب لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد.

في مولد
الإمام الحسين عليه السلام

تاريخ الحسين عليه السلام

التاريخ يسجل ما قاله الناس وما عملوه على صفحات الورق وفي بطون الكتب ليس أكثر من ذلك، أما أن التاريخ، تاريخ شخص من الأشخاص أكثر من ذلك أي أنه يسجل في أكثر من الكتب والورق فهذا ما أريد أن اتحدث عنه في هذه الورقة التي أكتبها عند مطلع شمس هذا اليوم. أن الناس منازل ودرجات وحالات وهؤلاء العظماء قد أخذوا القمة فتربعوا عليها، لا لأنهم اغتصبوا هذا الموقع وانتزعوا هذه المنزلة من الناس، وإنما لأن مكانهم في القلوب أي أن لهم منزلة في القلوب وفي النفوس أكثر مما هي في بطون الكتب والتاريخ. ونحن إلى الآن لم نقرب من الهدف الذي نريد أن نسجله هنا في هذه الورقة، ولكن تعالوا معي نتمشى في ظلال هذه الفكرة لعلنا نهتدي إلى طريق يوصلنا إلى الغاية التي نسعى إلى الوصول إليها.

فأقول -وبالله التوفيق- تاريخ الناس يدون في بطون الكتب وفي أحسن الأحوال يجري ذكر تاريخهم ومواقفهم في الكتب المقدسة السماوية ولكن الأمر هنا يختلف تماماً فالإمام الحسين عليه السلام جاء تاريخه ليس في الكتب فقط وإنما سجله الله عز وجل في القرآن الكريم وفي الكون وفي الحياة وفي الجماد وفي النبات وفي عالم الأحياء وفي القلوب، بل أن الله عز وجل قد سجل تاريخ الحسين، -وإن كان الأصح- أقول سجل نور الحسين عليه السلام، وسجل حب الحسين عليه السلام في كل شيء في هذا الوجود، ولذلك فكل شيء يبكي على

الحسين لا فرق بين الصالحين وغيرهم ولا بين ما يرى وبين ما لا يرى.. فهذا القرآن الكريم يقول: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١) فالآيات في الآفاق وفي النفوس، وهذا دم الحسين في الآفاق، وحبّه في القلوب، بل إن حرارة حب الحسين لا تبرد في قلوب المؤمنين أبداً ولا ينطفأ ضوؤها إلى الأبد فقد ورد في الحديث الشريف: «إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً».^(٢)

بل إننا نجد الصخرة التي وقعت عليها قطرة من دم الحسين عليه السلام لا تزال موجودة تغلي بحب الحسين وحرارة دمه ومقتله إلى اليوم في حلب في مقام مشهد الحسين عليه السلام بالقرب من قبر ولده المحسن السقط عليه السلام. وهذا المحسن له قصة عجيبة هي أشبه بقصص الكبار منها بالأطفال، فأهل حلب يطلقون عليه اسم الشيخ محسن وليس السقط، وذلك لما عرفه الناس من كراماته وسرعة انقضاء الحوائج عنده بشكل أدهش الناس جميعاً، القريب والبعيد، فقد اثبتت الأيام والتجارب أنه ما أمه ولا قصده ذو حاجة إلا وقضيت له حاجته بأسرع مما يتصور، والناس في مذاهبهم شتى لا يتفقون على أحد، ولكنهم في حلب اتفقوا على تعظيم هذا الطفل النبوي العظيم الذي هو صهرج من نور الحسين عليه السلام، وقصته كما هي معروفة في كتب التاريخ، وحوادث سنة إحدى وستين للهجرة أن أمه وهي إحدى زوجات الحسين عليه السلام قد اسقطته في هذا المكان الذي يسمونه جبل الجوشن بفعل

(١) فصلت/٥٣.

(٢) مستدرك الوسائل ٢/٢١٧ ومقتل الحسين للمقدم ص ١٢٤.

التعب والنصب والمشقة التي لقيتها من السفر والسبي والضرب والجوع ولا شك أنها حامل على وهن، أضاف السبي إلى الوهن ثقلًا من الخوف والجوع وعدم الراحة، فكانت النتيجة أن اسقطت طفلاً في شهره السادس، وقام الإمام السجاد عليه السلام بتجهيزه وتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه هناك بعد أن أطلق عليه اسم المحسن لإحياء ذكرى المحسن السقط الذي ألقته أمه فاطمة الزهراء سلام الله عليها بين الحائط والباب حين هاجم الطفلة بيت علي وفاطمة في الأحداث التي أعقبت وفاة النبي صلى الله عليه وآله.

أقول: حتى تلكم الصخرة الحزينة المصبوغة بدم الحسين عليه السلام بقيت تحتفظ بهذا الدم الطاهر المقدس، لتعلن للعالم كله أن دم الحسين عليه السلام سيظل يفور ويفور ويفور حتى يخرج الإمام المهدي قائم آل محمد -عجل الله تعالى فرجه الشريف- فيأخذ بشاره ثم يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

إذاً: فالله عز وجل لم يكتفِ بتسجيل وتدوين وكتابة تاريخ الحسين في كتب التاريخ وفي كتب السماء مثل القرآن الكريم الذي جاء فيه ذكر الإمام الحسين عليه السلام تارة مع أهل البيت لأنه خامس أصحاب الكساء، وتارة وحده لأنه الذبح العظيم الذي جرى ذكره في سورة الصافات في قضية الذبيح إسماعيل عليه السلام.

أجل... فقد كتب الله حب الحسين في قلوب الأحرار وجعل دمه في الأفاق كما أكدت الروايات ذلك وهو أن الحمرة التي تظهر مع طلوع الشمس وعند غروبها ما هي إلا أثر من دماء الحسين عليه السلام. كما أكدت هذا الموضوع روايات وأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام.



كما قال أبو العلاء المعري:

وعلى الأفق من دماء الشهداء	علي ونجله شـاهدان
فهما في أواخر الليل فجران	وفي أوليائه شفـعان
ثبتا في قميصه، ليجيء	الحشر مستعدياً إلى الرحمن



الحج عند الحسين عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (١).

كل الناس يتعاملون مع شعائر الله ولكن بطرق متفاوتة، وهيئات مختلفة، فبمقدار التقوى تكون رؤية الناس للحقائق، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (٢) والتقوى هنا منظار لرؤية الحق، ولذلك من دون تقوى لا يمكن لأحد أن يري الحقيقة فضلاً عن أهل الحق.. وعلى ذكر التقوى وإنها منظار لرؤية الحق، لاحظوا دقة التعبير القرآني في مسألة الصفا والمروة ماذا يقول عنها: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) ويقول أيضاً: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (٤) لماذا خير الزاد التقوى؟ لأن التقوى تمكن الإنسان من رؤية الحق وتعظيم الشعائر الربانية، إذ ليس في إمكان الذين يفتقدون التقوى، أو يفتقدون روح التقوى أن يكونوا من الذين يعظمون شعائر الله، ومن هنا نقرأ: ﴿إِنَّ

(١) الحج/٣٢.

(٢) الحشر/ ١٨.

(٣) البقرة/ ١٥٨.

(٤) البقرة/ ١٩٧.

الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ^(١) .

من كل هذا ندرك أن الرجل المؤمن المتقي يعظم شعائر الله، هذا بالنسبة لسائر المؤمنين فماذا نقول بالنسبة للإمام المعصوم وهو نور الله في الأرض وخليفته في الأنام وسره الأعظم في الوجود، كيف يكون تعظيم شعائر الله عنده؟ لا شك أنه شيء عظيم وعظيم جداً إلى أبعد الحدود، لذلك نرى الإمام الحسين عليه السلام إذا أراد أن يحج كان يحرم في مسجد الشجرة في المدينة المنورة ثم يخرج ماشياً إلى حج بيت الله الحرام، ويقطع هذه المسافة الواسعة الطويلة مع خلق كثير من الناس الذين يحبون أن يرافقوه ويصحبوه في الطريق) إلى حج بيت الله الحرام. فكان للحج عند الحسين عليه السلام صورة خاصة تعتبر من خصائصه روعي فداءه ولم لا؟ أليس الحسين عليه السلام هو الذي حفظ الحج ومناسكه؟ أليس الحسين عليه السلام هو الذي حفظ الدين والإسلام والقرآن وإلا فإن بني أمية ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾^(٢) هؤلاء كان في بنائهم تقويض دعائم الإسلام كما قال يزيدهم: لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل.

على أننا في خروج الحسين من الحج يوم التروية وتوجهه إلى العراق، لنا كلام عميق وأنيق يليق بهذا المقام سنتناوله إن شاء الله تعالى بعد وقت قصير من الأدلاء بهذه الرؤى التي طالما أضاءت قلبي وخاطري وأعماق نفسي.

(١) الحجرات / ٣.

(٢) الإسراء / ٦٠.

في ولادة الحسين عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

أظن أنني التقطت هذه الفكرة بالكامل من تأويل هذه الآية الكريمة فهي آية ولكنها ليست مثل بقية الآيات التي تحدثت عن الولادة والحمل وآلام الحمل وأن الأم حملته وهنا على وهن، تلك آيات تتحدث عن الولادة والحمل وهموم الحمل بالنسبة لسائر النساء، أي بصورة عامة نجد الأم تعاني تعباً ونصباً ووهناً وآلاماً بسبب الحمل وأيامه، وهذه مسألة واضحة قدر الإمكان لا تحتاج إلى دليل يدل عليها ولا إلى آثار تكشف حقيقتها، فيكفي أن تسأل أي أم مرت بآلام الحمل والحبل والولادة، لتجيبك أن الحمل يجعل البدن في تعب ووهن ومشقة، ولكن ليس هناك أم في العالم، تحمل صبيّاً كرهاً وتضعه كرهاً إلا صاحبة هذه الآية ولا شك أنها أم مختلفة تماماً عن بقية الأمهات، إنها ليست امرأة عادية في سائر الناس، كما أن حملها الذي حملته ليس حملاً عادياً ومألوفاً وإنما هو حمل يبكي عليه كل شيء في هذا الوجود ما

(١) الأحقاف/١٥.

يرى وما لا يرى وذلك للمصيبة العظمى التي ستحل بهذا المولود وتهتز لها السماوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن لأنها مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيتها في الإسلام وفي جميع السماوات والأرض، ومن هنا كانت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين هي صاحبة هذه الآية والمولود الذي جاءت الآية هذه تتحدث عن مواصفاته هو الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، هذا الحسين هو المولود الذي حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، لأن أباه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أخبرها بمقتل ولدها الحسين في أرض يقال لها كربلاء فلما عرفت بمقتله ومصرعه بتلك الحالة والصفة كرهت حمله وكرهت وضعه لأنها كرهت مقتله، وهذا شيء طبيعي جداً فتحن لا يمكن أن نتصور رضا فاطمة بقتل الحسين ولا رضا الله بقتله ولا رضا الرسول ولا الأنبياء ولا كل الأحرار في العالم يرضون بقتل الحسين عليه السلام أن اللعنة جاءت في زيارته على من قتله، واللعنة على كل أمة أسرجت وألجمت وتتقبت وسارت لقتال الحسين عليه السلام، (ولعن الله أمة قتلتك، ولعن الله أمة ظلمتك ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به، يا مولاي يا أبا عبدالله).

إذاً: فمجرد أن تسمع بقتله وترضى تصبح محطة لنزول اللعنة من السماء، وهذا معناه أنه ليس هناك من يرضى بقتل الحسين وعدم الرضا يصاحبه كره لمقتله أي أني أكره أن يقتل الحسين عليه السلام في مقابل حب أعداءه وأعداء الله لقتله، فبنو أمية كانوا راضين بقتله وفرحين لمصرعه (اللهم إن هذا يوم فرحت به آل زياد وآل مروان -وبنو



أُمِّيَّة بقتلهم الحسين عليه السلام، اللهم فضاعف عليهم اللعن منك والعذاب الأليم). فإذا كان بنو أُمِّيَّة يفرحون لقتله وبقتله، فإن المؤمنين يحزنون لقتله ويكرهون مقتله ومصرعه أي أنهم يكرهون ما وقع له من عظيم المصائب، أقول: إذا كان هذا شأن الأحرار والمؤمنين في العالم فما بالكم بأمه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء سلام الله عليها، هل ترضى بقتل ولدها الحسين أم تغضب وتكره مقلته؟ لا شك أنها تكره ما جرى لولدها الحسين ولبنات الرسول من قتل وسبي وخصوصاً أن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها كما ورد ذلك في كتب الصحاح ومن بينها البخاري وميزان الاعتدال للذهبي: (إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها) ولا شك أن تغضب لمكرهه وقع وترضى لمحبوب وقع وهكذا ندرك أن الآية الكريمة هذه في سورة الأحقاف إنما هي تخص الحسين عليه السلام في ولادته.

على أننا يمكن أن ندرك المواصفات والخصائص التي عدتها الآية الكريمة هذه حيث نجد أنها لا تنطبق إلا على الحسين عليه السلام، ونأخذ الآية كلمة كلمة ولا حظوها بدقة أيها الأحبة.

تبدأ الآية هكذا:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ ففي الوصية هذه بالوالدين إشارة خاصة إلى أن الوالدين هنا غير الوالدين في بقية الآيات القرآنية فهناك تحذير من شرك الوالدين، واحتراس خوفاً من الوقوع في فخ كفر الوالدين، ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾^(١)

(١) العنكبوت/٨.

هذا بالنسبة لسائر الناس نجد التحذير بأخذ الحيطة والحذر من الوقوع في فخ الشرك والكفر بسبب كفر الوالدين، ولكن هنا نجد الأمر مختلفاً تماماً، فالوالدان هنا ليس فقط مؤمنين وإنما يحملان رسالة وأمانة وأن الله قد أنعم عليهما بنعمة كبرى جعلت الولد هنا يدعو لهما بالتوفيق لأداء الشكر أمام هذه النعم الكبرى، فيقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾. وهذه الخصوصية الثانية كون الأم حملته كرهاً ووضعته كرهاً، تنفرد عن سائر الأمهات لأنهن يفرحن بالحمل إذا كان صبياً ولا توجد امرأة في الدنيا تكره حملاً يبشرها بولادة صبي تناغيه ويناغيه ما عدا هذه الأم فإنها خائفة حزينة باكية لهذا الحمل لأنها علمت بمقتله ومصرعه من أبيها رسول الله ﷺ وستأتي الروايات التي تتحدث عن هذا المعنى من تفسير البرهان والصابي ونور الثقلين حيث نجد فيها الروايات والأحاديث والأخبار التي تتحدث عن هذه الحالة بالذات عند الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

وللتوضيح أكثر انظروا إلى قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(١) ففي العادة تكون مدة الحمل تسعة أشهر ومدة الفصال وهي الرضاعة حولين كاملين كما جاء بذلك التنزيل: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾^(٢). ويقول: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾^(٣).

(١) الأحقاف/ ١٥.

(٢) البقرة/ ٢٣٣.

(٣) لقمان/ ١٤.

إذا فالحمل والفصال ثلاث وثلاثون شهراً، فإذا نقصت ثلاثة أشهر واقتصرت على ثلاثين شهراً فقط فمعناه تصبح مدة الحمل ستة أشهر لأن الفترة للرضاع تظل كما هي حولين كاملين، وهذا أمر خاص بالحسين عليه السلام وبيحيى بن زكريا عليه السلام على أن اثبات الشيء لا ينفي ما عداه، فهناك حالات كثيرة يسجلها التاريخ وحتى الواقع تكون فيها مدة الحمل ستة أشهر فقط ولكن هنا القضية تخص الإمام الحسين عليه السلام لوجود المواصفات والخصائص الأخرى، فهو يدعو لأبويه بأن يشكرا نعمة الله ونعم الله عز وجل لا تعد ولا تحصى ولكن يمكن جمعها في أربع نعم - على سبيل الاستطراد وضرب الأمثال ثم نعود إلى البحث - وهي نعمة الوجود أي الخلق فأنا لم أكن موجوداً ثم وجدت ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾^(١) وهذه نعمة بحد ذاتها، ثم نعمة العقول لأنه لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان، فليس في الإمكان أن استثمر وجودي بغير عقلي فالعقل نعمة يعتمد عليها استثمار وجود الإنسان في الأرض ومن هنا كان العقل أول شيء خلقه الله من الكائنات وهذا لا ينفي أن يكون نور النبي صلى الله عليه وآله ونور أهل بيته عليهم السلام أول ما خلق الله عز وجل لأن العقل هو بالأساس خلق من نورهم صلوات الله عليهم أجمعين، ولذلك كان العقل معهم بشكل حجة لله تبارك وتعالى: إن لله حجتين: ظاهره وباطنه، فالظاهرة هم الأنبياء والرسل والأئمة، والباطنة، العقول، هذه رواية وردت عن أهل البيت عليهم السلام وخصوصاً عن العبد الصالح صلوات الله وسلامه عليه وهو الإمام باب الحوائج موسى بن جعفر صلوات الله وسلامه عليه.

(١) الإنسان / ١.

إذاً: فالعقول نعمة ثانية تلي نعمة الوجود، ثم تأتي نعمة العلم لأنه غذاء العقل وليس في وسع العقل أن ينمو ويتكامل بعيداً عن العلم والفقه والوعي.. ولذلك كان العلم غذاءً للعقل بشكل دقيق كما ورد ذلك في كلمة لأmir المؤمنين علي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام يقول فيها: أن العقل يتغذى بالعلم، ونعمة العلم هذه لا تكتمل إلا بنعمة الإيمان لأن العلم وحده لا يعني شيئاً ولا يرفع إنساناً ولا أمة، إلا إذا امتزج بالإيمان ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١) وهذه هي الفلسفة العميقة لإقامة مجالس الإمام الحسين عليه السلام وهي مجالس يكتمل فيها العقل بالعلم والإيمان ومحبة أهل البيت، كما خاطب الله عز وجل العقل حين خلقه وقال له: اقبل فأقبل، ثم قال له: ادبر فادبر فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب، على أن نعمة الإيمان لا تتم ولا تكتمل إلا بولاية أهل البيت عليه السلام ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ وخصوصاً ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام التي أعلنها رسول الله ﷺ يوم الغدير بقوله - وبعد أن ألقى تلکم الخطبة العظيمة (من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وادر الحق معه حيثما دار) وهذه حقيقة لا غبار عليها، ولا شكوك ولا تلبيس أبداً، إنما هي واضحة لكل من له عقل ولب وفهم.

إذاً: فهذه هي النعم الأربع التي من الله بها على المؤمنين والمؤمنات

(١) المجادلة/ ١١.

وفيهما النعمة الكبرى نعمة الولاية والإمامة يوم الغدير، وهنا في هذه الآية نجد صاحب الدعاء يقول: (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه).

تأملوا هذا التعبير جيداً، فإله عز وجل لم ينقل في القرآن صورة لهذا الدعاء وبهذا الشكل إلا في موضعين: موضع هنا في سورة الأحقاف خاص بالإمام الحسين عليه السلام، وموضع آخر في سورة النمل خاص بنبي الله سليمان بن داود على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام، الأمر الذي يدل على أن هذا الدعاء لا ينطلق إلا من لسان إنسان معصوم إذ ليس كل الناس يقولون هذا الدعاء ولا كل الناس إذا بلغوا أربعين سنة قالوا هذه العبارة التي تكشف عن أصالة النور والظهر والعصمة في قائلها، فنقرأ في سورة النمل -بالنسبة للنبي سليمان بن داود- أنه قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^(١) والملاحظة أنه لم يقل كما قال الحسين: واصلح لي في ذريتي وذلك لأن الإمامة في ذرية الحسين عليه السلام وهذا الشرط كان أحد الأسباب التي جعلت الزهراء سلام الله عليها تصبر على المصائب الكبير لأن الله جعل الإمامة في ذرية الحسين واستجابة الدعاء تحت قبة الحسين، والشفاء في تربة الحسين عليه السلام، وهذه الطريقة التي كررت بها ذكر الحسين دون الضمير، إذ كان في الإمكان أن أقول: والشفاء في تربته، وذريته وقبته مثلاً، إنما أخذت هذه الطريقة من

(١) النمل / ١٩.

زيارة عاشوراء حيث سمعت الله عز وجل يقول في زيارة عاشوراء:
اللهم ارزقني شفاععة الحسين وثبت لي قدم صدق مع الحسين
وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام.

فجاء باسم الحسين في أربعة مواطن كان يمكن أن يأتي بضمير
الاسم بدل الاسم ولكن كل ذلك للتأكيد على أهمية وعظمة صاحب
هذا الاسم صلوات الله وسلامه عليه.

- وفيها أيضاً يقول: واصلح لي في ذريتي وهذا يدل على أن الإمامة
في ذرية صاحب هذه الآية وليس هناك غير الإمام الحسين عليه السلام، ثم
يقول: إني تبت إليك وإني من المسلمين، وهذا يشبه قوله تعالى في
الخطاب الموجه للنبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (١)
ثم فيها نفي وإسقاط لتهمة الخروج من الإسلام التي رماه بها بنو أمية
حيث أشاعوا أن الحسين خرج عن دين جده لأنه خرج على إمام زمانه،
تأملوا هذا التعبير، وهي عين العبارة التي يذكرها الإمام الحسين عليه السلام
في دعاء عرفة والتي ينعى فيها نفسه ويذكر كل جوارحه وأعضاءه
التي ضربت يوم عاشوراء فيقول في دعاء عرفة تأكيداً للدعاء الذي
ورد على لسانه في هذه الآية المباركة يقول الحسين عليه السلام: «وأنا أشهد
يا إلهي بحقيقة إيماني، وعقد عزماتي يقيني، وخالص صريح توحيدي،
وباطن مكنون ضميري، وعلائق مجاري نور بصري، وأسارير صفحة
جبيني، وخُرْق مسارب نفسي، وخذايرف مارن عرني، ومسارب
صماخ سمعي، وما ضمت وأطبقت عليه شفتاي، وحركات لفظ لساني،
ومغرر حنك فمي وفكي، ومنابت أضراسي، ومساغ مطعمي ومشربي،

(١) الفتح / ٢.



وحمالة أم رأسي، وبلوغ حبائل بارع عُنقي، وما اشتمل عليه تامور
صدري، وحمائل حبل وتيني، ونياط حجاب قلبي، وافلاذ حواشي
كبدِي، وما حوته شراسيف أضلاعي، وحقاق مفاصلي، وقبض عواملي،
وأطراف أناملي، ولحمي ودمي وشعري، وبشري وعصبي وقصبي،
وعظامي ومخي وعروقي، وجميع جوارحي، وما انتسج على ذلك أيام
رضاعي، وما أقلت الأرض مني، ونومي ويقظتي وسكوني، وحركات
ركوعي وسجودي، أن لو حاولت واجتهدت، مدى الاعصار والاحقاب لو
عُمِّرتُها، أن أؤدِّي شكر واحدة من أنعمك، ما استطعت ذلك إلا بمنك،
الموجب عليَّ به شكرك، أبداً جديداً وثناءً طارفاً عتياً، أجل ولو
حَرَصْتُ أنا والعاذون من أنامك، أن نُحصي مدى إنعامك، سالفه وآنفه،
ما حصرناه عدداً ولا أحصيناه أمداً، هيهات إنِّي ذلك، وأنت المخبر في
كتابك الناطق والنبأ الصادق: وأن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها، صدق
كتابك اللهم وإنباؤك، وبلغت أنبياؤك ورسلك، ما أنزلت عليهم من
وحيك، وشرعت لهم وبهم من دينك، غير إني يا إلهي أشهد بجُهدي
وجدي، ومبلغ طاقتي ووسعي، وأقول مؤمناً موقناً، الحمد لله الذي لم
يتخذ ولداً فيكون موروثاً، ولم يكن له شريك في ملكه فيُضاده فيما
ابتدع، ولا وليُّ من الدُّل فيرفده فيما صنع، فسبحانه سبحانه، لو كان
فيهما آلهة إلا الله لَفَسَدَتا وتقطرتا، سبحانه الله الواحد الأحد
الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، الحمد لله حمداً
يعادل حمد ملائكته المُقرَّين، وأنبياءه المرسلين، وصلى الله على
خيرته محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين المخلصين وسلم»^(١).

(٣) دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام - مفاتيح الجنان - ص ٥٤٣.

إذاً فهذا الدعاء الذي أخذناه من دعاء الحسين عليه السلام يوم عرفة يشهد أن صاحب الدعاء في آية الأحقاف هذه هو ذات صاحب الدعاء يوم عرفة وهو الإمام الحسين عليه السلام.

والآن وتعميقاً للبحث وتعميماً للفائدة نجري الكشف التالي وهي حصيلة الأفكار التي مرت بنا منذ قليل غير أنها هنا جاءت لتثبيت الموضوع واعطاء البحث حقه من التأمل والتفكر، لأنه يخص مولد الإمام الحسين عليه السلام وهو الإمام الذي أبكى بمولده أعظم الناس وأعظم الملائكة فقد بكى لمولده جده المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وبكى في يوم مولده روح القدس وجبرئيل والملائكة أجمعين كما بكت أمه فاطمة الزهراء سلام الله عليها، وبكى لمولده أبوه أمير المؤمنين علي عليه السلام وهذا يعني أن الحسين في مولده أبكى أعظم الرجال وأعظم النساء وأعظم الملائكة كل ذلك يكشف لنا عن عظيم المصاب وعظيم الرزء وعظيم الرسالة التي سيضطلع بحملها الإمام الحسين عليه السلام وهو سيد شباب أهل الجنة وريحانة الرسول صلى الله عليه وآله هذا بالإضافة إلى أن الأخبار تؤكد أن جبرئيل عليه السلام كان قد أحضر معه قبضة من تراب كربلاء وكان ترابها تراباً أحمرأ أي مصبوغ بعطر الحسين ودمه وحين شمه النبي صلى الله عليه وآله كما في رواية الخوارزمي^(١) قال لجبرئيل: حبيبي جبرئيل هذه رائحة ولدي الحسين عليه السلام أي أن رائحة الحسين كانت ممزوجة بتراب كربلاء قبل أن يولد الحسين عليه السلام وهي من الأسرار التي لا تتفتح لها إلا كل بصيرة ارتوت من حب آل محمد - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

(١) مرقد الإمام الحسين عليه السلام: السيد تحسين آل شبيب - ص ٤٢.

والآن نبدأ بلون آخر من الطرح لهذه القضية فنقول وبالله التوفيق:
إن الآيات التي نقرأها في القرآن الكريم في قضية علاقة الإنسان
بوالديه تتوزع على السور التالية: سورة الاسراء وسورة الأحقاف وسورة
العنكبوت وسورة لقمان، على أن السورة التي تخص بحثنا هذا كما
مرت الإشارة آنفاً إنما هي سورة الأحقاف في الآية رقم ١٥: ﴿وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ
شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وفي سورة العنكبوت يقول الحق: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ
جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ (١).

ونقرأ في سورة لقمان يقول فيها الحق: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ
حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ
(١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا
فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

وفي الإسراء يقول الله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

(١) العنكبوت/ ٨.

(٢) لقمان/ ١٤-١٥.

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا
تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ
ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ
فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ﴿١﴾

فالآية التي جاءت في الأحقاف، يظهر واضحاً أنها تتحدث عن
خصائص ومواصفات شخص بعينه وذاته دون سواء من الناس أي أنها
تشير إلى شخصية معينة عظيمة لها دور كبير في الإسلام والدفاع عن
الحق وذلك للأسباب التالية:

أ - أن الأم هنا حملته كرهاً وليس في العالم أم تحمل صبيّاً في
بطنها كرهاً إلا إذا كان استثناء يؤكد القاعدة وهو كذلك فهذه الأم هي
غيرها من النساء بل هي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين،
والمولود الذي في بطنها إنما هو سيد شباب أهل الجنة الحسين بن
علي عليهما السلام الذي سيكون له دور بالغ في اعزاز الإسلام ونصرة
الحق، وحفظ الدين والعقيدة من الضياع والإنهيار ثم هو إمام زاهد
عابد مجاهد تحدث القرآن عن تاريخه ومقتله كما سيأتي في الموضوع
الذي يخص الآيات التي تحدثت عن الحسين عليه السلام كما في آية: ﴿وَعَلَّمَ
آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (٢)، وآية: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ (٣) وآية: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ

(١) الإسراء / ٢٣، ٢٤، ٢٥.

(٢) البقرة / ٣١.

(٣) الحديد / ٢٢.

عَلَيْهِ ^(١) وَآيَةٌ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ^(٢)﴾.

والتي توضح بشكل لا لبس فيه ولا شكوك أن الله تعالى قد أخذ على الأنبياء والرسل كلهم جميعاً العهود والمواثيق أن ينصروا محمداً ﷺ وهذا قبل ولادة الرسول ﷺ رغم أن نوره ونور أهل بيته كانت فوق العرش تضيء الملاء الأعلى إذ كانوا أنواراً بعرش الله محققين، على أن المهم في هذه القضية واللافت للانتباه هو أن الله عز وجل -كما علمنا في القرآن الكريم- إذا أراد أن يتحدث على نبي من الأنبياء إنما يذكر حياته بالتفصيل ويذكر أهل بيته كما جاء ذلك في سورة مريم وبقيّة السور القرآنية التي تتعرض لهذا النوع من الخطاب وعرض الحقائق فالله عز وجل حين تحدث عن إبراهيم ذكر أهل بيته معه وكذلك ذكر موسى وآل موسى وهارون وآل هارون وعمران وآل عمران، ولوط وآل لوط وكذلك حين تحدث عن خير يحيى ابن زكريا وعن أبيه زكريا تحدث بشكل لا يقبل الغموض فذكر حياتهم وأهل بيتهم وكيف أن زكريا دعا ربه حين رأى مريم البتول تدعو في محرابها ويأتيها رزقها من الجنة إلى المحراب بغير حساب وهذه كلها دلائل وبراهين تدل على أن الله عز وجل حين تحدث عن النبي محمد ﷺ تحدث في الوقت ذاته عن أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً كما فرض مودتهم على العباد وجعلها شرطاً أساسياً في قبول الأعمال

(١) البقرة/ ٣٧.

(٢) آل عمران/ ٨١.

وصحتها ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) وإذا كان الله عز وجل قد تحدث عن النبي ﷺ وعن أهل بيته فإنه بلا ريب قد أوضح لكل الأنبياء والرسل والملائكة ما سيجري على أهل البيت من المصائب واللواعج والأشجان، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٢).

ومن قبل أن نبرأها أي من قبل أن نخلقها، وهذا يدل أنه ما من مصيبة في الوجود إلا ولها كتاب معلوم قبل وقوعها وبعده، وإذا كانت المصائب تلقى هذه العناية الفائقة من الحق سبحانه بتدوينها وتسجيلها وكتابتها في كتاب خاص بها، بحيث يكون لكل مصيبة كتاب ولكل أجل كتاب كما هو واضح، فما نقول عن أكبر وأعظم مصيبة في الوجود وفي تاريخ الخلق الإلهي وهي مصيبة آل رسول الله في يوم كربلاء وعاشوراء وهي المصيبة التي اهتزت لها السموات والأرض، واقشعرت لها أظلة العرش مع أظلة الخلائق وبكتها الإنس والجن والطير ومن في السموات ومن في الأرض ومن يتقلب في الجنة ومن يتقلب في النار وما يرى وما لا يرى حسب تعبير الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام الذي ورد في زيارة الأربعين، أقول: فلا يمكن أن تنسى هذه المصيبة العظيمة والرزية الفادحة الكبرى والفاجعة التي فجعت وكسرت قلب النبي ﷺ أن يقتل الإمام الحسين عليه السلام بهذه الطريقة الوحشية التي خلت من كل صفات الإنسانية، واتسمت بصفات البهائم

(١) الشورى / ٢٣.

(٢) الحديد / ٢٢.

لا بل أن البهائم لا يمكن أن يقع منها مثل ما وقع من الجرائم على أهل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه.

إذاً: فالله عز وجل كان قد أخبر الأنبياء والمرسلين والملائكة أجمعين بما سوف يصيب الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء ولذلك جاءت الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد بكاء كل الأنبياء والرسل على الإمام الحسين عليه السلام بحيث ما من نبي إلا وعرض الله عليه مصيبة الحسين ورزية آل البيت في كربلاء فيبكي ذلك النبي بكاءً شديداً، ولنا في التاريخ صور ودلائل وبراهين وشواهد تؤكد هذا المعنى خصوصاً إذا قرأتم معي الآيات التي يقول فيها الحق: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).. الخ.

وسيأتي الكلام حول هذا الموضوع مفصلاً في باب الأنبياء في كربلاء ولكن ذلك لا يمنعني من الإشارة إلى بعض تلكم الصور والأحداث التي ظهرت من الأنبياء في ذكر الحسين وكربلاء فهذا آدم حين يعلمه جبرئيل أسماء الخمسة أصحاب الكساء ليدعو بهم ويتوسل بهم إلى الله عز وجل كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(٢) كانت الكلمات محمد وأهل بيته فعلمه جبرئيل أن يقول: يا حميد بحق محمد ويا عالي بحق علي ويا فاطر بحق فاطمة ويا محسن بحق الحسن ويا قديم الإحسان بحق الحسين، فكان آدم إذا وصل إلى اسم الحسين فاضت عيناه بالدموع فسأل جبرئيل عن سبب ذلك وعليته، فأخبره بمقتل الحسين وما يجري عليه يوم عاشوراء يقول

(١) البقرة/ ٣١.

(٢) البقرة/ ٣٧.

له: «يا آدم ولو تراه وقد حال العطش بينه وبين السماء مثل الدخان» يا آدم ولو تراه حاملاً طفله الرضيع يستسقي له ماء فيرمونه بسهم فيذبحونه على صدر أبيه الحسين وهو عطشان يا آدم ولو ترى مصرعه على تراب كربلاء... إلى آخر ما جاءت به الروايات الصادقة والصحيحة والتي هي تمشي مع الآيات والقرآن الحكيم^(١).

وما يقال في آدم يقال في نوح عليه السلام^(٢) إذ أن السفينة لما وصلت إلى كربلاء وهي تجري بهم في موج كالجبال فلم تضطرب اضطرابها فوق أرض كربلاء حتى خاف نوح من الغرق فسأل الله عن ذلك فأخبره أنك فوق أرض كربلاء ولا يستبعد ذلك إذا عرفنا أن انطلاقة السفينة كانت من جامع ومسجد الكوفة الواقع على مقربة من كربلاء وكذلك إذا عرفنا أن السفينة كان يجري تصنيعها بعون الله وبمساعدة جبرئيل وقوة نوح وعلمه، ويصنع الفلك بأعيننا ووحينا إلى آخر الآيات التي ذكرت هذا المعنى وأن جبرئيل جاء بأوتاد خمسة كتب عليها أسماء أصحاب الكساء فوضعت على أركان السفينة وقد أكدت الحفريات هذا المعنى كما يروي القضية صاحب كتاب التكامل في الإسلام وكتب أخرى ذكرت أن المنقبين في جبال السوفيت عثروا على أخشاب سفينة مكتوبة عليها أسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وليس هذا بغريب على من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وجعلهم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ثم أمرنا

(١) بحار الأنوار- مجلد: ٤٤: صفحة: ٢٤٥ - باب: ٣٠.

(٢) بحار الأنوار- مجلد: ٤٤: صفحة: ٢٤٣ - باب: ٣٠.

بمودتهم وجعل حبهم ميزاناً لقبول الأعمال فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣) فكانوا هم الصادقين الذين لا يعرفهم أحد إلا بمنظار التقوى فكانت التقوى ميزاناً لقبول الأعمال والتقوى لا تتطلق من قلوب عمياء ليس فيها حب محمد وأهل بيته وهذا هو الحق الذي ندين به ونأخذ الإسلام والإيمان منه.

وما يقال في آدم ونوح يقال في إدريس النبي حين جاء يرعى الغنم في شاطيء الفرات بكريلاء فرأى الأنعام لا تشرب من الماء فسألها فأجابته أن هذه المشرعة يقتل فيها الحسين ظمآنًا عطشاناً فبكى إدريس لذلك بكاءً شديداً وفي هذه القضية عدة ملاحظات لا بد من ذكرها وهي:

أولاً: أن ذلك لا يعني أن إدريس ما كان يعلم فعلم من كلام الأنعام، وإنما معناه اظهار معجزة لسيد الشهداء سلام الله عليه وكم سائل عن أمره وهو عالم، وإلا فالله عز وجل يسأل موسى بقوله: وما تلك بيمينك يا موسى' وهو يعلم أنها عصاه. ونفس الشيء يقال في كثير من الأمور.

ثانياً: نحن حين نقرأ القرآن نجد أن للأنعام هذه سورة باسمها سورة الأنعام.

(١) الشورى / ٢٣.

(٢) المائدة / ٢٧.

(٣) التوبة / ١١٧.

ونجد أيضاً القرآن الكريم يؤكد أن هذه الأنعام وكل المخلوقات ما هي إلا أمم أمثالنا، فهي أمة لها حضارة خاصة بها: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(١). ويقول: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾^(٢).

إذاً: فهذه المخلوقات وإن كانت أقل مستوى من خلق الناس إلا أن لها حضارات وهي أمم مثلها مثلنا - أمم أمثالكم، ثم يقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(٣) أي أن لكل هذه الأنعام كتاب وحشر وحركة واستتساخ أعمالها وهكذا فالخبر الذي يقول أن هذه الأنعام والأغنام رفعت رأسها ولم تشرب من المشرعة لأنها عرفت بالهام الله عز وجل لها ولكل الكائنات أن الحسين عليه السلام يُقتل هنا عطشاناً ظمآنًا غريباً.

ثانياً: إننا نقرأ في سورة النمل كلام النملة مع سليمان وكيف حذرت قومها من سليمان وجنوده، ثم كيف سمع سليمان كلامها وقولها وذكر الله كثيراً وحين سألها لماذا قلت هذا القول وأنت تتظرين لي وأنا طائر في الفضاء فوق الريح أو أمشي على الأرض ولكن لا أقصد أذيتكم قالت له: يا نبي الله إني خشيت من هذا الخلق أن ينظر إلى عظمة موكبك فينشغل عن ذكر الله.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا

(١) الأنعام / ٣٨.

(٢) التكويد / ٥.

(٣) الأنعام / ٣٨.



يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١) هذا موقف سليمان مع النملة علماً بأن القرآن حفظ سورة كبيرة باسم النمل وهي سورة النمل ونسمع الإمام علياً عليه السلام يقول في إشارة إلى هذا الموقف (والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت وإن دنياكم عندي أهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلني ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى). (٢)

ثم نقرأ في ذات السورة ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٣) وتستمر قصة سليمان مع الهدهد والهدهد يرجع من سبأ يحمل خبراً لسليمان كل ذلك نقرأ في القرآن الكريم وأن الطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه، فلماذا إذاً نستغرب أن تمتع الأنعام عن شرب الماء وتكلم نبياً من الأنبياء وهو إدريس على نبينا وعليه السلام مخبره أن هذه المشرعة يقتل عليها ريحانة رسول الله سيد شباب أهل الجنة الحسين عليه السلام ولذلك اقتتعت ورفعت رؤوسها عن شرب الماء، ثم دعني أذكرك أيها القارئ الحبيب اللبيب، أن الموقف نفسه تكرر يوم عاشوراء لما أقحم الحسين عليه السلام الفرس ومد يده ليشرب فخاطب جواده قائلاً: أنت عطشان وأنا عطشان فلا أشرب حتى تشرب فرفع الفرس رأسه كأنه فهم الكلام. فلم يشرب الفرس، وكذلك

(١) النمل / ١٨-١٩ .

(٢) بحار الأنوار / ج: ٤٠ - ص ٣٤٦ .

(٣) النمل / ٢٠ .



الإمام الحسين أيضاً لم يشرب من تلك المشرعة وهذا واضح وأكثر من ذلك أننا نجد حتى العباس عليه السلام لم يشرب من تلك المشرعة وإذا أخذنا بالقراءة والتأمل فإننا نفاجأ بأنه ليس هناك من مخلوق شرب من تلك المشرعة كما جاءت الروايات الصحيحة تؤكد ذلك دائماً وأبداً.

ب - إن الآية حددت مدة الحمل والفصال بثلاثين شهراً وإذا طرحنا مدة الرضاعة وهي حولان كاملاً، فلا يتبقى سوى ستة أشهر هي كل مدة الحمل وهذه صفة خاصة بالحسين عليه السلام ولم يشاركه فيها سوى يحيى ابن زكريا.

على أننا ذكرنا بعض القصص التي تقع أحياناً هنا وهناك تؤكد هذا المعنى فلا منافاة في ذلك ولا تنافر أبداً وإنما هو استثناء يؤكد القاعدة دائماً. لأنه أمر لا يجري في حياة الناس إلا نادراً يمكن أن يعد على أصابع اليدين.

ج - وفي البحث هذا إشارة رائعة إلى ولادة يحيى بن زكريا وكيف يقول الحق عنه: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا﴾^(١).

د - إن الآية حملت دعاءاً لصاحب القضية هذه يدعو فيه لأمه وأبيه ويقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾^(٢) وهو خطاب لم يرد في القرآن الكريم سوى مرتين مرة هنا في سورة الأحقاف ومرة في سورة النمل ورد على لسان نبي معصوم وهو

(١) مريم / ١٥.

(٢) النمل / ١٩.

سليمان بن داود عليهما السلام وهنا يجب أن يكون صاحب الدعاء من المعصومين أيضاً لأن في دعاءه هنا أكثر من دعاء نبي الله سليمان وفي الموطن الذي ذكر فيه الدعاء أكثر عمقاً من الموطن الذي ذكر فيه سليمان الدعاء، فسليمان بن داود ذكر الدعاء بعد ما سمع قول النملة لقومها، وهنا في سورة الأحقاف نجد الإمام الحسين عليه السلام ذكر الدعاء بعدما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة فقال: رب اوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ (ثم لم يكتف بهذا القدر من الدعاء وإنما قال) وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي وهذه الفقرة الأخيرة لم ترد على لسان سليمان بن داود وإنما وردت على لسان الحسين سيد شباب أهل الجنة لأنه وارث الأنبياء ولأنه والد الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، في حين ليس في صلب سليمان ذرية تتطلق منها الإمامة كما هي في صلب الحسين عليه السلام.

هـ - إن الإصلاح وطلب الإصلاح إنما جاء على لسان الإمام الحسين عليه السلام يوم أعلن خروجه إلى العراق: إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق ومن رد عليّ أصبر.

ز - إذاً فالحسين هو الرجل الصالح الذي أصلح الله به الدنيا والآخرة وأصلح به أمر الدين، وأصلح به أمر هذه الأمة، وسيصلح به أمر العالم حين يخرج المهدي الذي هو من ذرية الحسين فيملاً الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

ح - على أن العمل الصالح يحفظ الذرية من نسل ذلك الإنسان الصالح.

فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (١).

ط - كما أن في هذا المقام تجدر الإشارة إلى الدفاع عن أهل البيت وعن الحسين عليه السلام وعن ذريته لأن القرآن الكريم يؤكد أن كل ذرية الحسين عليه السلام ذرية صالحة وقد أكد هذا المعنى هو بأبي وأمي يوم عاشوراء عندما وقف يودع عياله وأهل بيته قبل نزوله للمعركة بلحظات حيث أمرهم بالصبر ولبس الازر وأن لا يقولوا كلمة تسقط في قيمتهم وتنزل من قدرهم ثم بشرهم بأن الله حاميتهم وحافظهم وسينجيهم من شر الأعداء ويجعل عاقبة أمرهم إلى خير وإليكم نص الكلمة هذه: ثم أنه عليه السلام ودع عياله ثانية وأمرهم بالصبر ولبس الازر وقال: (استعدوا للبلاء واعلموا أن الله تعالى حاميك وحافظكم وسينجيكم من شر الأعداء ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ويعذب عدوكم بأنواع العذاب ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة فلا تشكوا ولا تقولوا بالسنتكم ما ينقص من قدركم). (٢)

وكل هذا من وحي قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٣) وإذا كان صاحب التقوى يحفظ الله له ذريته ويوفقه للعمل الصالح فما بالكم بإمام المتقين وسيد شباب أهل الجنة الحسين المظلوم قتيل العبرات وأسير الكريات صلوات الله وسلامه عليه.

(١) الكهف / ٨٢.

(٢) من مقتل الحسين عليه السلام للمقرم ص ٢٧٦.

(٣) النساء / ٩.

أقول: من خلال دعاء الإمام الحسين عليه السلام في هذه الآية أن يصلح الله له في ذريته يظهر واضحاً أن كل كلمة ردها أعداء الحق في النيل من حرمة الحسين عليه السلام إنما هي كلمة مرفوضة في الأساس واخص فيها الكلام الذي يردده بنو أمية وأعدائهم حول سيدتي ومولاتي الطاهرة الرضية المرضية السيدة سكينة بنت الإمام الحسين عليه السلام من أنها كانت تستقبل الشعراء وأهل الغناء وأنها تود أن تسمع منها شيئاً من الغزل في الشعر وقول الباطل والعياذ بالله- أقول: كل هذا مرفوض ومردود ومنسوف من الأساس بنص هذه الآية الكريمة المباركة أن الله أعظم وأجل وأكبر من أن يجعل بنتاً للحسين هذا التحدي العظيم في الوجود ذائبة في الغزل والشعر والباطل وسوف نعقد فصلاً خاصاً بحياة السيدة سكينة بنت الحسين عليه السلام ونتناول هذه الاشكالات والشبهات التي أثارها بنو أمية وغذتها الشجرة الملعونة في القرآن ومع الأسف أن البعض تأثر بهذا الباطل فصور هذه السيدة الجليلة العظيمة التي كان الحسين عليه السلام إذا خاطبها يخاطبها بخيرة النسوان وإذا رآها قبلها وأجلسها في حجره وأغدق عليها من عواطفه ومشاعره وحبها لها، أقول: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، فأتساهل في الرد على هؤلاء الذين أنبتهم علقم الشجرة الملعونة وحقدوها، أن السيدة سكينة هي أجل وأعظم من أن تتساق لهذه الأجواء التي هي ضد سبيلهم سبيل الرشاد وضد أهداف الحسين عليه السلام، علماً أن المرء هنا يمكن أن يطرح سؤالاً وهو: متى كانت السيدة سكينة تستقبل هؤلاء الشعراء والمغنين؟ قبل واقعة الطف أم بعد واقعة الطف؟ أجيبوني أيها الأحبة.. متى كانت تراهم وتستقبلهم، قبل واقعة كربلاء كانت تحت

ظل أبيها الحسين عليه السلام وهي يوم كربلاء كانت في سن الخامسة عشرة من العمر، وسهل بن سعد يذكر الرواية التي يروي فيها كيف لما دخل الشام واستقبل أهل البيت وهم سبائا فكان أول فتاة رآها سهل هي سكينه بنت الحسين وكلامه معها كان واضحاً وكيف أشارت إليه أن يدفع شيئاً من الدراهم والدنانير لحامل رأس الإمام الحسين عليه السلام ليخرج الرأس من أوساط المحامل فلقد خزينا من كثرة النظر إلينا، وهذا هو كلامها بعينه وهي تقول: ما رأيت أقسى ولا ألعن من يزيد بن معاوية، وهي صاحبة الرؤيا التي رأت فيها أمها فاطمة الزهراء سلام الله عليها وقصت الرؤيا في مجلس يزيد فتركت أثراً كبيراً في الجالسين واهتزت القلوب لحديثها صلوات الله وسلامه عليها، هذا كان حالها وحالتها قبل وبعد واقعة الطف، أما يوم رجوعها إلى المدينة فكانت في حمى أخيها الإمام زين العابدين عليه السلام وكانت لا تفارق أخاها السجاد حتى في سفره إلى الحج حيث كان يذهب ماشياً كأبيه وعمه كانت سكينه بنت الحسين عليهما السلام تقوم بواجبات الضيافة طول الطريق فتأمر بنحر الابل وذبح الذبائح ومد الموائد الكبيرة بجانب أخيها الإمام السجاد عليه السلام وخصوصاً إذا عرفنا أن الإمام السجاد عليه السلام كان قد عاش أربعين سنة بعد واقعة الطف أو ثلاثين قضاها بالبكاء والحزن واللطم على أبيه الحسين عليه السلام فمتى يمكن لسكينه أو لأي بنت أخرى أن تتصل بالشعراء وهي من أهل بيت قد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، هذا بالاضافة إلى أجواء الحزن والمآتم والبكاء التي ما برحت تقيمها على أبيها الحسين عليه السلام.

إذن: فرواية استقبال سكينه للشعراء وأهل الطرب بعد واقعة

الطف، هي رواية ساقطة ليس لها اعتبار أبداً بعد أن أكد القرآن الكريم أن دعاء الحسين عليه السلام كان دعاءه: (واصلح في ذريتي) وسكينة من ذرية الحسين وهي داخلة في الدعاء وفي استجابة الدعاء، فهي طاهرة منزهة عن كل دنس وشين، خصوصاً إذا عرفنا أن استجابة الدعاء على لسان الحسين ويده وتحت قبته سريعة لغاية مدهشة، أدركنا أن سكينة قد نالت هذا القدر الكبير من العناية الربانية الإلهية.

وأخيراً فغضب الزهراء سلام الله عليها، هو ميزان يوزن فيه الحق والباطل، غضبها ورضاها كما وردت الأحاديث الصحيحة في كتب الصحاح وخصوصاً البخاري وميزان الاعتدال للذهبي حيث يقول الرسول ﷺ: «يا فاطمة إن الله ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك».

ويقول: «إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها».

ويقول في حديث آخر: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني».

وهذه الأحاديث معناها أن فاطمة تغضب وترضى للحق، فهي غاضبة على أهل الباطل الذين حاربوا الحق، وراضية عن أهل الحق الذين اجتنبوا الباطل، وإذا كان الأمر بهذا الشكل فإن قتل الحسين عليه السلام يغضب فاطمة على قتلة الحسين فهي غاضبة كارهة لمقتل الحسين لا ترضى بقتله أبداً، ومن هنا كانت غاضبة على أبي بكر وعمر كما في صحاح المسلمين وخصوصاً في صحيح البخاري حيث يقول: ماتت فاطمة وهي غاضبة على أبي بكر وعمر والذي أعتقد به أنها عارفة بما يصنعه هؤلاء النفس بعد وفاة رسول الله ﷺ فبالرغم

من اغتصابهم حق آل البيت واغصابهم حقوق الزهراء واعتداءهم على بيتها وكسرهم ضلعها، واسقاطهم جنينها وإحراقهم دارها كما هو الواقع الذي لا يشك به إلا من دخل النفاق قلبه وعشعش الشيطان في صدره فنطق على لسانه، أقول: بالرغم من أن فاطمة سلام الله عليها كانت تدرك وتعرف أن هذه الفتنة التي سقط فيها المنافقون والتي جاءت بخليفة السقيفة وليس خليفة الرسول جاءت بخلافة صنعوها تحت سقيفة بني ساعدة، كانت فاطمة تعلم أن هذه الخلافة ستنتهي إلى الشجرة المعلونة وإلى يزيد بن معاوية الذي سيذبح ولدها الحسين الغالي بقتله عطشاناً ويحمل رأسه على الرماح ويسير بينات رسول الله سبايا قد هتك ستورهن وأبدى وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمعازل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدنيء والشریف، ليس معهن من حماتهن حمي ولا من رجالهن ولي.. هذا كله كانت تعرفه الزهراء وقد أشارت إليه في خطبتها وكأنها تتحدث عن المستقبل وعن أيامنا الراهنة هذه بالاضافة إلى قوة استشرافها وقراءتها لمستقبل الأمة حيث قالت: وابشروا بسيف صارم ووسطوة معتد غاشم واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم وأنى بكم ﴿أَنْزَلَكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (١).

وأن الأحداث والحوادث قد أكدت هذه النبوءة والمقولة، فالنار التي اندلعت في دار فاطمة هي نفسها اندلعت واشتعلت في خيام الحسين يوم عاشوراء، وإن كسر ضلع فاطمة هو نفسه ظهر يوم كربلاء في

(١) هود/ ٢٨.

كسر اضلاع الحسين بحوافر الخيل، حيث كسروا ضلوعه وداسوا جسده الطاهر، وحملوا رأسه فوق الرماح.

وان النار التي اشتعلت بأطراف ثياب فاطمة الصغرى بنت الحسين يوم عاشوراء إنما هي صرخة مدوية وصورة حقيقية تعكس ما جرى على بيت فاطمة الزهراء سلام الله عليها، وسبحان الله أن تكون البنت الصغيرة التي تشب النار في جسدها إنها فاطمة بنت الحسين تحمل مع النار اسم امها فاطمة لتكون شاهدة على عصر الظلم والوحشية والبربرية.

فكرة: الجنين في بطن أمه يقبع في أغطية ثلاثة يعبر عنها القرآن بظلمات ثلاث، ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، وهذا صحيح لا خطأ فيه، وحق لا ريب فيه، ولكن يجب أن نلتفت إلى الأغطية العازلة التي ترافق الجنين وهو في بطن أمه، فهذا غطاء للعين يحفظها من قوة النور علماً أن التعبير القرآني يؤكد أن الطفل قابع في ظلمات ثلاث فمن أين يأتيه النور، وهذا سيتضح لنا أكثر خلال البحث، وغطاء ثان يعزل الصوت عن الأذن لتجري في تكامل دقيق وميسور.. وهذا غطاء ثالث يغطي البدن كله فيحفظه عن الحرارة، على أن الشيء اللافت للنظر في هذه الأغطية أنها جاءت في نفع الإنسان وليس في ضرره ولكن حين تكون الأغطية في الحياة فإنها تأتي في ضرر الإنسان وليس في نفعه فالغطاء الذي كان على سمع الطفل في بطن أمه نفعه بأن دفع عنه قوة الصوت لأن الأذن ناعمة ورقيقة وليس فيها قدرة للتعامل مع الأصوات القوية فكان هذا الغطاء على أذن الجنين غطاء رحمة ونعمة وفيه نفع وخير وبركة، وكذلك

غطاء العين في البطن أيضاً فيه رحمة للطفل لأنه بواسطة هذا الغطاء يتكامل بناء العين، ونفس الشيء يقال بالغطاء الثالث الذي يغطي كل حواس الطفل وكل أجزاء بدنه فانه يحفظه من التمزق والانهيال.. ولكن في الدنيا نجد الأغطية في ضرر الإنسان وليس في نفعه، ولذلك فهو -أي الإنسان- مطلوب منه أن يكشف هذه الأغطية عنه وأن يمزقها بقوة الإيمان والعقيدة وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في أول ولادة الإنسان فيقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) فإظهر هنا في هذه الآية أن لكل حاسة رسالة خاصة بها، وكل هذه المسؤولية تنطلق من القلب الذي يفقه هذه الرسالة وينطلق بها، بل إن الإيمان لينطلق من القلب ثم يوزع على كل أعضاء البدن توزيعاً صحيحاً لا لبس فيه ولا ريب.

فيقول الحق: الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾^(٢) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿٢﴾.

ويقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾^(٣) وفي آية ثالثة: ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ﴾^(٤).

ثم ينعي على الذين لم يحترموا رسالة هذه الحواس وعطلوها فيقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

(١) النحل / ٧٨.

(٢) الزمر / ١٧-١٨.

(٣) المؤمنون / ٣.

(٤) الحاقة / ١٢.

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١﴾

أي أنهم غفلوا عن وظيفة هذه الجوارح ثم يبين أنهم كانوا في غطاء
عن ذكر الله ولذلك فهم لا يستطيعون سماعاً: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي
غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (٢).

ثم تجري الأمور هكذا فتبرز القضايا المصيرية من خلال مدرسة
أهل البيت عليه السلام لتؤكد أن الذي يعيش في هذه المدرسة يعيش في أعلى
درجات اليقظة والوعي، لأن للإنسان ست حالات النوم واليقظة،
والصحة والمرض والموت والحياة، هذه هي حالات البدن التي يتقلب
فيها كل إنسان ببذنه من يوم مولده إلى يوم رحيله، وكما في البدن
كذلك في الروح فلها حالات ست أيضاً، حياتها في العلم، وموتها في
الجهل، وصحتها في الإيمان واليقين ومرضها في الشك والكفر،
ونومها في الغفلة، ويقظتها في الوعي، وهذا هو الذي يريده أهل البيت
عليه السلام أن يكون شيعتهم في قمة الوعي والاحتراس والحذر واليقظة لأن
الأيام تمر بسرعة تاركة وراءها غبار التفريط والتقصير والتقاعس
والتكاسل فلا بد إذاً من عزيمة تنفض بها الكرى عن نفسك أيها
الإنسان المؤمن الموالي لمحمد وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام يقول
الإمام الصادق عليه السلام في خطابه لجده الإمام الحسين عليه السلام في الزيارة
وهي أحسن وسيلة للتربية والتكامل والبناء الروحي والعاطفي والعقلي
يقول: لبيك داعي الله إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني
عند استتصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري.

(١) الأعراف / ١٧٩.

(٢) الكهف / ١٠١.

هذا بالإضافة إلى أن الأغطية التي ذكرتها لكم والتي تكون على شكل غشاوة على الأبصار وظلمة في الصدور، ووقراً في الآذان بل وتؤدي إلى البكم والخرس، ولا يستطيع أن يخرقها شيء إلا نور الحسين عليه السلام، وذلك أن نور الحسين عليه السلام له قدرة عجيبة على اختراق الحجب المادية والمعنوية، يدل على ذلك من بين آلاف الأدلة والبراهين والشواهد، دليل واحد حدث يوم عاشوراء في لحظة مصرع الحسين عليه السلام وقد تقدم إليه رجل من الأعداء يريد أن يحتز رأسه الشريف، وقد انتدبه عمر بن سعد قائد جيش الضلال والكفر للقيام بهذه المهمة التي تكاد السموات يتفطرن منها وتتشق الأرض وتخر الجبال هدا.. فما أن وقف ذلكم الرجل اللعين حتى تاه فكره وظل يفكر في دهشة في جمال الحسين ونوره الذي يتلأأ من على وجهه الكريم.. وحين سأله ابن سعد: ويلك أين رأس الحسين أجابه الرجل في دهشة وذهول بقوله: ما رأيت قتيلاً قط مضمخاً بدمه أحسن منه وجهاً ولا أنور، ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله، فاستسقى في هذه الحال ماء فأبوا أن يسقوه. وقال له رجل: لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها فقال عليه السلام: أنا أرد الحامية وإنما أرد على جدي رسول الله ﷺ وأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر وأشكو إليه ما ارتكبتم مني وفعلتم بي. ^(١)

(١) من مقتل المكرم ص ٢٨٢.

هذه أبيات للشيخ كاشف الغطاء:

فلو أن أحمد قد رآك على الثرى لفرشن منه لجسمك الأحشاء
أو بالطفوف رأت ظمأك سقتك من ماء المدامع أمك الزهراء
يا ليت لا عذب الفرات لوارد وقلوب أبناء النبي ظمَاء
كم حرة نهب العدى أبياتها وتقاسمت أحشاءها الأرزاء
تعدو فان عادت عليها بالعدى عدو العوادي الجرد والأعداء
هتفت كثير كفيها وكفيها قد ارمضته في الثرى الرمضاء
ففضبوا بأجمعهم حتى كأن الله لم يجعل في قلب أحدهم من
الرحمة شيئاً.

وفي هذا المجال يمكن ملاحظة النقاط التالية التي تكشف عن قوة نور الحسين الذي هو مصباح في زجاجة والزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة.. إلى آخر الآية الكريمة.

فأولاً: إن الوقت كان ظهيرة عاشوراء وكانت الشمس ساطعة فنورها هنا لم يستطع أن يغطي نور وجه الحسين.

وثانياً: هناك الدماء التي خضب بها الحسين وجهه ولحيته فلم تتمكن هذه الدماء أن تحجب نور الحسين ﷺ.

وثالثاً: التراب الذي كان على وجهه الكريم كنتيجة طبيعية لسير وحركة المعركة وحوافر الخيل، ولكنها هي الأخرى لم تتمكن من حجب نور الحسين، كما قال هذا الرجل المعادي. لقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله، فهذه موانع وحجب مادية اخترقها نور وجه الحسين ولم تستطع هذه الحجب أن تغطي نوره وجمال وجهه.

أما الحجب المعنوية التي هزمت أمام نوره، فهي الحقد والبغض والحسد، التي كانت تملأ قلب هذا الرجل القاتل ولكن مع ذلك يقول: لقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله، ولا عجب ولا غرابة في ذلك فالحسين ابن النبي ﷺ وقد قال في حقه: حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً.

والقرآن يصف الرسول بأنه سراج منير ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (٤٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً^(١) فإذا ضممنا هذه الآية للحديث السابق نجد أن الحسين سراج روعي له الفداء، وسراج رباني خصوصاً إذا قرأنا آية النور وكيف أنه المصباح الذي هو في الزجاجاة ثم الزجاجاة كأنها كوكب دري، والكوكب الدري أمه فاطمة التي هي مشكاة فيها مصباح وإلى آخر التأملات فقد كان نور الحسين لا يخفى على أحد ويكفي بذلك دليلاً قول الغلام الذي برز وهو يتلو هذه الأبيات التي انشأها وراح ينشدها ويرتجز بدموع وصوت حزين:

أميري حسين ونعم الأمير	سرور فؤاد البشير النذير
علي وفاطمة والداه	فهل تعلمون له من نظير
له طلعة مثل شمس الضحى	له غرة مثل بدر منير

وتأملوا الشعر الذي جاء وانطلق على لسان هذا الغلام اليتيم في عفوية وتلقائية دون تكلف ولا تصنع فإنما هو يصور الحسين كما رآه ورأته عيناه يوم عاشوراء، حيث كان الخطب كلما يزداد كان يزداد تألقاً وجمالاً في وجهه وهيئته ونظراته والنتيجة هي أن الحق عند الحسين

(١) الأحزاب / ٤٥-٤٦.

أوضح شيء في هذا الوجود فلا يمكن لأحد يسمع بالحسين ويتنكر
للحق أبداً ومطلقاً، ومن هنا كان الحسين مصباح الهدى وسفينة
النجاة، ولذلك رسالات الأنبياء إنما جاءت لتثبيت هاذين الشيئين:
هداية ونجاة، والحسين عنده الهدى وعنده النجاة فهيا تعالوا نشق
أمواج الفتن والضلال بالركوب في سفينة الحسين، إنها سفينة النجاة
التي جعلها الله رحمة للعالمين وهي من نور جده النبي ﷺ.

صور لأبناء فاطمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

علي أمير المؤمنين عليه السلام، يخط مأتماً للحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى صفين:

هذا أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام - في طريقه إلى صفين- يمر بكربلاء فيخط بسيفه مأتماً للحسين عليه السلام ثم يجلس في تلك الدائرة الحزينة وينعى ولده الحسين وأهل بيته ويذكر مصائبهم في كربلاء وهو يردد وأصحابه يرددون في دموع ما يقوله الإمام علي عليه السلام: ها هنا محط رحالهم، ها هنا مهراق دمائهم ها هنا.. الخ.

وراح يصور واقعة الطف تصويراً حزيناً لمن كان معه، وكأنه يقول لهم: إن معركة كربلاء متصلة بمعاركي التي أخوضها اليوم ضد الناكثين والقاسطين والمارقين، وأن هؤلاء سيجمعون في كربلاء لقتال ولدي الحسين أنه سيقاتله الناكثون والقاسطون والمارقون والكفار والمنافقون هؤلاء كلهم سوف يجتمعون على قتله وانتهاك حرمة، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فسحقاً للقوم الظالمين.

- ونحن وإياكم على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنتم أمة وكنا أمة.

هكذا خاطب زهير بن القين أصحاب ابن زياد في يوم كربلاء.

- وهناك ملاحظة لا بد من ذكرها، وهي قول العقيلة زينب عليها السلام

ليزيد في مجلسه بالشام حين سألته الشامي أن يهب له فاطمة بنت الحسين عليها السلام وهي قصة معروفة، رغم أن المؤرخين ينسبونها لفاطمة أخت السيدة زينب بنت أمير المؤمنين، وهذا مستبعد لأن فاطمة بنت الحسين كانت كما وصفها الإمام الحسين عليه السلام، أشبه الناس بفاطمة الزهراء، وكانت في غاية النور والجمال فقد وصف الحسين جمالها بأنها تشبه الحور العين (وطبعاً أنا لا أريد الدخول في هذا الباب بالذات) لأنه باب يحتاج إلى المزيد من الشرح والتفسير والدقة في هذا المقام، علماً بأن الإمام الحسين عليه السلام قد صرح بأن عائلته لا يقع عليهم سوء من هذا القبيل وذلك في وداعه الأخير لهم يوم عاشوراء حينما رجع من المعركة وبدنه يغلي بالدم وقال لولده السجاد عليه السلام: بني علي أعلمك دعاءً علمتني أمي فاطمة عليها السلام، ثم راح يودع عائلته ويقول لهم: عليكم بالصبر ولبس الازر واعلموا أن الله حاميك وحافظكم وسينجيكم من شر الأعداء ويجعل عاقبة أمركم إلى خير. وهذا الدعاء يمنع أن تقع فاطمة بنت الحسين في يد رجل من أهل الشام تخدمه غير أن السيدة زينب سلام الله عليها، أرادت أن تبين هذه الحقيقة من باب الإلزام للآخر بما يلتزم به: ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم، فهؤلاء يظهرون للناس أنهم حماة الإسلام أعني الأمويين، ولذلك حتى في خطاباتهم وخطابات ولاتهم تجد هذه الظاهرة ليس عليها غبار فهذا ابن سعد لا اسعد الله أمره يقول يوم العاشر: يا خيل الله اركبي وابشري بالجنة ودوسي صدر الحسين. ثم يقول: علي بالنار لأحرق بيوت الظالمين على أهلها، وذاك ابن مرجانة يقول: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير

المؤمنين وحزبه وقتل لا أستطيع أن أقول كلمته وأن كان نقل الكفر لا يعد كفراً وناقل الكفر ليس بكافر، وإنما أقول كلمته -كما قال الشيخ الكعبي- حتى تطلع على خبث هؤلاء الأفراد. فأرادت السيدة زينب أن تظهر كفره وخبثه واستهتاره وإلحاده أمام الملأ ولذلك بدأت بقولها: كلا والله ما جعل الله لك ذلك، فلما رد عليها بقوله: إن ذلك لي ولو شئت أن أفعل لفعلت قالت: إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا - قالت ذلك وهي تعلم أنه ملحد كافر فاجر، لأنه بقتله الحسين وبنزوه على منبر الرسول، وسلب الخلافة من أهل البيت بل بقوله: إنما خرج من الدين أبوك وأخوك دل على أنه ملحد كافر فاجر، وإنما الحوراء تريد أن تظهر حقيقته للملأ قالت: بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وأبوك إن كنت مسلماً- فهي إذاً أثبتت أن هذا الكلام ليس ليزيد وإنما هو لكل مسلم فإذا كان هو مسلماً فقد اهتدى وإذا لم يكن مسلماً وهو كذلك فقد ضل ضلالاً بعيداً فقال لها: إياي تستقبلين بهذا الكلام يا عدوة الله، فرقت العقيلة زينب وسالت عبرتها على خدها ثم قالت: أنت أمير مسلط تشتم ظالماً وتقهر بسطانك فسكت عنها فأعاد الشامي عليه قوله: هب لي هذه الجارية فضربه يزيد على صدره ودفعه وقال له: اسكت وهب الله لك حتفاً قاضياً، اعرفتها قال: لا، قال: هذه فاطمة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله، عند ذلك قال الشامي: سود الله وجهك يا يزيد كيف تزعم أنهم خوارج؟

إذاً: فهذه الصور تحتاج إلى مزيد من تسليط الضوء عليها حتى تكون واضحة للملأ كله.

فكرة حول وجوه
فئة في سورة الدھر

إلى متى تركض لاهثاً وراء السراب، وراء الأوهام؟

أين أنت من الحق، ألا تركض وراء الحق، ألم يكفيك أن تلهث وراء المال وسكرته، والجهل وخيبته، والظلم وظلمته؟ ألا يكفي أن تلهث وراء الخيال تاركين الحق وراءنا؟ ألا يكفي أن نوقف الاسترسال وراء الملذات والشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث؟ ماذا صنعت بالمال؟ هل أدت حقوق الله؟ المال يسألك: أبقيت مالك ميراثاً لوارثه فليت شعري ما أبقى لك المال. القوم بعدك في حال تسرهم فكيف بعدهم دارك بل الحال ملأوا البكاء فلم يبكيك من أحد واستحكم القيل في الميراث والقال.

هذا الشيطان الذي يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء لم لا تتخذونه عدواً لكم؟ لم هذه الصداقة القوية مع الشيطان؟

دفعنا الشيطان إلى الرتوع في الأموال وجمعها، فركضنا، ودفعنا إلى اللهاث وراء الشهوات فلهثنا، ودفعنا الشيطان إلى قول الزور والبهتان والكذب والافتراء، ودفعنا الشيطان إلى ترك الحق وخذلان أهله، فتركنا الحق وخذلنا أهله، حتى إذا دارت بنا رحى الأيام وتراضت بنا حبال الزمان وقعنا على وجوهنا في الأرض تعباً واعياءاً، وإذا بالشيطان يقف على رؤوسنا يستهضنا إلى أمر أكثر خطورة مما كنا فيه وهو يخاطبنا، تعالوا تعالوا إليّ إلى أحضاني فإنني لا أريد منكم أن تركضوا أكثر وراء المال لأنكم تعبتُم من جمعه، ولا أريد منكم أن تلهثوا

وراء الشهوات والملذات لأنكم خارت قواكم في طلب ذلك ووقعتم على الأرض، ولكن أريد منكم شيئاً آخر غير الذي كنتم فيه.

وما هو يا لعين؟

قال الشيطان: أريد منكم الشك أن تشكوا في الحق في أهله، في الصديق في أهله، شكوا في الأمانة، شكوا في النصيحة، شكوا في التوحيد، شكوا في النبوة، شكوا في القيامة.. شكوا في الإمام صاحب الأمر، شكوا في كل ذلك حتى تموتوا وأنتم على الجاهلية.. إذن: فموتوا ميتة جاهلية فإنها هي علاجكم الأخير، ودواءكم الذي لا دواء بعده أبداً.. إنكم لا ينفعكم شيء من الحق فلماذا تركضون وراءه؟

والآن معاشر الناس، هل انفقتم من أموالكم شيئاً في سبيل الحق؟ هل اعطيتم من أنفسكم شيئاً وسهماً للحق وللدفاع عن أهله؟.. ماذا فعلتم إذاً: هل عاديتهم عشيرتكم من أجل الحق؟ هل تركتم رموزكم رموز الباطل من أجل الحق؟ أم أنكم احتضنتم هؤلاء جميعاً من أجل الدنيا وهي تاركتكم لا محالة..

الدنيا تغر وتمر، والآخرة دار مقر.. وهذا هو الحق الذي أريد أن أشير إليه..

ماذا صنعتُم للفقراء والمُعذَّبين والمحرومين؟.. ماذا صنعتُم للعوائل النازحة المهجرة التي أخرجت من ديارها قسراً وعدواناً وظلماً وجوراً، ليس لهم ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله.. ماذا فعلتم لهم أنتم رجال المجتمع ورجال الدولة، ورجال العلم ورجال الكلمة.. وأنتم نساء الحياء والعفة والإيمان، كلكم خطابي لكم: ماذا فعلتم لهؤلاء جميعاً؟

هل كسوتهم عرياناً لا ثوب يليق به يلبسه؟
هل أطعمتهم جائعاً لا خبز لديه يأكله؟ هل أويتم شريداً لا ملجأ له
ولا مأوى يظله ويكنه؟

هل مسحتم الدموع من وجه يتيم فاضت عيناه بالدموع الحارة
الساخنة لفقد أبيه وذويه؟

أم ماذا صنعنا أيها الأخوة والأخوات؟
ألسنا ننتمي إلى أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم
تطهيراً؟

ألسنا ننتمي إلى أهل بيت أطعموا المسكين واليتيم والأسير وهم
يتحملون الجوع ثلاثة أيام: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا
وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿١﴾.

ولعل بعض الناس يقول: إننا لا يمكننا أن نصنع مثل ما صنع أهل
البيت لأن درجتهم عالية وليس في مقدورنا أن نبلغها ونظل جائعين
ثلاثة أيام من أجل المساكين واليتاما، والأسرى..

أقول: لعل بعضنا يحلو له أن يفكر بهذه الطريقة، ولكن دعني
أسألكم أيها الأحبة: من كان في البيت يوم نزلت هذه السورة سورة
الدھر والإنسان؟

من كان في بيت فاطمة عليها السلام يوم اطعموا الضعفاء من الناس قوتهم
وغذاءهم؟

(١) الإنسان / ٨-٩.

لقد كان في البيت فاطمة وكان في البيت علي أمير المؤمنين وكان الحسن وكان الحسين عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وكانت معهم جارية اسمها فضة وهي فتاة من الحبشة من إفريقية لم تتجاوز العشرين من عمرها وهي خادمة في البيت ولكن الله جعل هذه الفتاة الحبشية مع أعظم الناس قدراً ومكانة ومعة: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (١) كل ذلك لماذا؟ (٢)

لأنها سارت معهم على الدرب على الطريق، على المحجة البيضاء، ومن أحب قوماً حشر معهم ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم، أن مجرد حبك لعمل أقوام يجعلك شريكاً معهم في نفس العمل، ويرفعك معهم في أعلى عليين وهذه درجة غير درجة العصمة والعلم والنور.. ولكن لماذا كانت فضة معهم في هذا الإخراج الحضاري العظيم؟ كانت معهم لأن القضية قضية عمل وليس قضية علم ومنزلة ومعرفة كما في حديث الكساء حيث لم يدخل معهم أحد سوى جبرئيل كان في خدمتهم لأن ذلك مجال الفكر والعلم والمعرفة، وهنا في سورة الإنسان مجال التطبيق حتى لا يقول قائل: إني لا أستطيع اللحاق بهم لأنهم في درجة غير درجتي ومنزلة غير منزلتي.. لا.. أبداً لا يمكن أن يقول أحد مثل هذا في مجال العمل والتطبيق لأنه ليس المطلوب منا أن نكون مثلهم حتى نستطيع أن نقوم بنفس العمل الذي قاموا به ولو كان الأمر كذلك لسقط كونهم أسوة وقدوة ومثل أعلى للبشرية كافة.

(١) النساء/ ٦٩.

(٢) بحار الأنوار - مجلد: ٢٥ - صفحة: ١٦ - باب: ١.

إذن: فوجود فضة الجارية الفتاة ذات العشرين عاماً معهم في اطعام الطبقات الضعيفة من المجتمع يدل على أننا جميعاً نستطيع أن نقوم بمثل ما قاموا، ونصنع مثل ما صنعوا وقل: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. (١)

أعود إلى أصل الحديث، فأقول: أن الشيطان اطلع رأسه من مغرزه - كما قالت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام: هاتفاً بأصحاب الدنيا الذين خذلوا الحق فلم ينصروه، فوجدهم الشيطان لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين وملاحقي.. وماذا صنع الشيطان بهم؟

أنه استتهضهم فوجدهم خفافاً.. أي لا وزن لهم ولا ثقل، لأن الله لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً، واحمشهم فالفاهم غضاباً، وهنا وسموا غير الإبل التي كانت لهم، وشربوا من ماء ليس لهم فيه حق وهذا هو الواقع.. ومن هنا جاء التحذير من الشيطان وحبائله، في القرآن وفي مدرسة أهل البيت حيث الأمر الصادر من الله عز وجل لبني آدم يحذرهم من الشيطان: يا بني آدم لا يفتكم الشيطان كما أخرج أبويكم من قبل، اخرجهما من الجنة، وتركهما يسعيان بلا ستر ولا غطاء، فصارا ينطلقان فيقصفان على الأبدان والعورات من ورق الجنة للستر والحجاب وحفظ الدين والحياء والعفة والإيمان.. ويا لها من موعظة ما بعدها موعظة.

(١) التوبة/ ١٠٥.

أفاق ورؤى جديدة
في خطاب فاطمة
عليها الصلاة والسلام



آفاق ورؤى جديدة

في الفقه واللغة والتفسير والآداب

ضمن قراءة جديدة لخطبة

فاطمة عليها الصلاة والسلام

آفاق ورؤى جديدة في

خطاب فاطمة عليها الصلاة والسلام

روى عبدالله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام: أنه لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فذكاً وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمةٍ من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله ﷺ، حتى دخلت على أبي بكر وهي في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست ثم أنت أنت أجهش القوم لها بالبكاء، فارتج المجلس ثم أمهلت هنيئة، حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسوله ﷺ، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت عليها السلام: (الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن وآلاها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمددها، وتفاوت عن الإدراك أبددها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد الى الخلائق بأجزائها وثنى بالندب إلى أمثالها..).



الأفق الأول وفيه النقاط التالية:

* النقطة الأولى:

إجماع أبي بكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فديكاً، وفديك هذه قرية عامرة بالأشجار والزيتون والنخيل والأعناب وفيها من كل الثمرات وكانت غلتها تصل الى أكثر من مأتي ألف دينار من الذهب، وكانت تحت تصرف الزهراء عليها السلام، حيث أعطاهما إياها رسول الله ﷺ بأمر من الله عزوجل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾^(١) وفي قوله: ﴿فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾^(٢).

وعندما سأل النبي ﷺ جبرائيل عن تفسير ذلك، قال له الأمين: (إن ذا القربى فاطمة، وحقها فديك، فإله يأمرك أن تعطي فديكاً فاطمة الزهراء عليها السلام فهي عطية لها من الله عزوجل..).

إذ أن هذه الأرض أخذها النبي ﷺ مصالحة، أي أنه لم يوجب عليها بخيل ولا ركاب وليس لأحد فيها حق سوى فاطمة عليها السلام، وكانت هذه الأرض في يد فاطمة الزهراء وتحت تصرفها طول حياة النبي ﷺ، وكان عمال فاطمة عليها السلام يعملون في فديك الأرض الطيبة هذه

(١) الإسراء / ٢٦.

(٢) الروم / ٣٨.

والتي كانت فاطمة روي فداها توزع ثروتها على ذرية بني هاشم
وبنات شعبة الحمد من آل عبدالمطلب، فلما استولى أبو بكر على
الخلافة في مشهد السقيفة المعروف - استولى في اليوم ذاته على
فدك أرض الزهراء عليها السلام ومنعها من التصرف بها، بعد أن
أخرج عمالها منها بزعمة أن فدك يجب أن تعود إلى الخليفة يتصرف
بها حيث يشاء، وليس لفاطمة حق التصرف بها، رغم أن فاطمة
الزهراء عليها السلام هي ذات اليد، أو صاحبة اليد لأن اليد عند العقلاء
والفقهاء حجة، وكانت يد الزهراء عليها السلام على أرض فدك ووفقاً لهذه
القاعدة، فإنه ليس من وسع أحد من البشر مهما كانت منزلته أن
يسلب هذه الأرض من فاطمة الزهراء عليها السلام، وينتزعها من ملكيتها
بحجة أنها تعود إلى بيت المال - مثلاً - فقد عرف القاضي والداني
بأن فدك حق من حقوق فاطمة عليها السلام، ليس لبشر أن يسلب هذا الحق
حتى ولو كان خليفة على طريقة يوم السقيفة، وهنا لابد من تسجيل
نقطة بالغة الأهمية وهي: أن الناس قد انقسموا صنفين: صنف مع
فاطمة الزهراء عليها السلام وهم الأقل من القليل، وصنف وقفوا ضدها، وهم
الأكثرية الغالبة، لأن الناس على دين ملوكهم، بل أن الناس - في
الأغلب - عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت
معاشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون، وهذا هو الحق الذي ليس
عليه غبار، ومن هنا كانت المعرفة شرطاً أساسياً في نصرة الحق
وأهله، فالذين عرفوا فاطمة عليها السلام نصروها، في حين أن الذين لم
يعرفوها خذلوها، هذا حتى الذين عرفوها من بعد راحوا يخذلونها،
كما هي الحال التي جرت عليها الأحداث ومشت الأمور بهذا الشكل
وهذا الترتيب.

* أما النقطة الثانية فهي:

تتمثل في عدم سكوت الزهراء عليها السلام عن الحق وإنما انطلقت تعلم الناس أن لا يسكتوا عن الحق كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:
(.. لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلاً على غاريها..).

وذلك أن المسؤولية تكبر وتصغر وتتفاعل وتتضاءل على حسب قدر صاحبها، فما كان العظيم يعرف إلا بتحمل المسؤولية العظيمة، وقديماً قيل: على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وتأتي على قدر الكرام المكارم. والمرء حيث وضع نفسه، هذا بالنسبة لسائر الناس وعموم البشر، أما أهل الحق وخصوصاً أصحاب الصراط السوي من أهل بيت النبوة وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة وبالأخص الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام فإن الأمر يختلف من الأرض إلى السماء ويظل الناس عاجزين عن معرفة هذه الحوراء الإنسانية التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها، والتي هي روح النبي وقلبه ومهجته، بل هي شجرة من النبي وبضعته التي يقبضه ما يقبضها، ويبسطه ما يبسطها، وهو بعد ذلك وقبله حرب لمن حاربها وسلم لمن سالمها، إنه ليحزن لحزن فاطمة ويفرح لفرحها، وهذه - لعمري - خصلة عظمى تحتاج إلى إلقاء المزيد من الضوء عليها للمعرفة بها والتفرغ لإعطائها حقها.

من هنا فإنه لا يمكن حتى مجرد التصور أن فاطمة الزهراء عليها السلام تسكت عن هذه الجريمة وتطأطئ الرأس أمام هذا الحدث المفجع

الذي يصلي الضمائر ناراً، وذلك أن الذي يجلس في مكان النبي يدعي أنه خليفته، وكيف يكون خليفة لرسول الله وهو لا يحفظ الحقوق بل يصادرها في وضع النهار، وأمام الناس في مرأى منهم ومسمع ومنتدى ومجمع!!.

إنه يتعدى الحدود مع البضعة الطاهرة سيدة نساء العالمين، ويقوم علناً وصراحة بتكذيبها واختلاق حديث ما أنزل الله به من سلطان، كما يزعم أنه سمع النبي ﷺ يقول: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث..)، وإذا كان النبي ﷺ قد قال هذا الحديث الخاص بقضية الإرث والميراث، فيجب أن يلقيه على ابنته فاطمة عليها السلام لا على غيرها من الأبعاد، لأنها هي المعنية بهذا الأمر، وهي صاحبة هذا الشأن، فهي التي ترث أباه دون غيرها، فلماذا يلقي الرسول ﷺ بهذا الحديث الخاص بفاطمة على أبي بكر والذي ليس له علاقة بإرث النبي؟

فهو ليس من أهل بيته ولا يرثه لا من قريب ولا من بعيد، هذا على فرض صحة الحديث، وأعوذ بالله من هذا الفرض لأنه فرض يقف ضد كتاب الله وسنة النبي وهو صريح في جرأته على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول ﷺ، فضلاً عن أن هذا الحديث يرفضه القرآن رفضاً قاطعاً لأن القرآن صريح في ذلك، وقد أعلنه في محكم كتابه، حيث يقول: ﴿.. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ..﴾ (١)

وقال في ما اختص بذكر خبر يحيى بن زكريا: ﴿.. فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ﴾ (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا..﴾ (٢)

(١) النمل/١٦.

(٢) مريم/ ٥ - ٦.

وقال عزوجل: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(١).
 وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾^(٢).
 وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

ثم قالت عليها السلام: ".. وأنتم الآن تزعمون أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بأية أخرج منها أبي؟؟
 أم هل تقولون.. أن أهل ملتين لا يتوارثان، أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟

أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟؟
 فدونكما مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشر، فنعم الحكم الله والزعيم محمد صلى الله عليه وآله والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نبا مستقر، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ويحل عليه عذاب مقيم"^(٤).

وردت الزهراء عليها السلام على أبي بكر حين زعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث)، ردَّت عليه بقولها: (يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول:

(١) الأحزاب/٦.

(٢) النساء/١١.

(٣) البقرة/١٨٠.

(٤) من خطبتها صلوات الله وسلامه عليها.

﴿.. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ..﴾

وقال في ما اختص بذكر خبر يحيى بن زكريا: ﴿.. فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا..﴾
وقال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.
وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾،
وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

وقد مرت الإشارة إلى هذا، وإنما كررناه هنا لتعزيز المعنى في القلوب، وتوجيه الأنظار إلى خطورة هذا الموقف حيث افتعل هذا الرجل حديثاً نفاه الله في محكم الصحف، فقالت عندما أصر أبو بكر على صدق الحديث على حد زعمه، قالت الزهراء عليها السلام: (سبحان الله ما كان أبي رسول ﷺ)، عن كتاب الله صادفاً - أي معرضاً - ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره، ويقفوا سورة، أفتجمعون إلى الغدر اعتلاؤه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغى له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً وعدلاً وناطقاً فصلاً.

يقول: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، ويقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾.

وبين عز وجل فيما وزع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح به علة المبطلين، وأزال التظني والشبهات في الغابرين، كلا بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون).

وكأنها عليها السلام تريد أن تقول: إنما أبث حزني وشكواي إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون.

إذن: فالزهراء عليها السلام لم تقف مكتوفة اليدين أمام هذا الواقع المر الذي استفاد المنافقون منه فائدة جعلتهم إلى اليوم مسموعي القول: وأن يقولوا.. تسمع لقولهم كأنهم خشبٌ مسندة، يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو، فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون، وهؤلاء هم الذين استهزئهم الشيطان فوجدتهم خفافاً وأحمشهم فألفاهم غضاباً، فوسموا غير إبلهم، ووردوا غير موردهم، وذلك أن الشيطان حين أطلع رأسه من مغرزة هاتفاً بهم، ألفاهم لدعوته مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين، كما تقول الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، وكما جاءت به سورة المنافقون في محكم آيات الكتاب العزيز، وأوضحته السنة النبوية الشريفة، بقول فصل وفكر عدل لا يقبل الشك، ولا يعتريه الريب، إذ قال المصطفى عليه السلام، لعلي عليه السلام: (.. يا علي لا يحبك إلا كل مؤمن ولا يبغضك إلا كل منافق).

فثبت بهذا النص وغيره، أن الذين وقفوا ضد علي وفاطمة عليهما السلام إنما كانوا من المنافقين من أهل المدينة، ممن مردوا على النفاق كما في صريح القرآن الكريم وسيأتي الحديث عن هؤلاء وهوياتهم في الموضع الفاضح لهم والكاشف عن وجوههم المقنعة في هذا الكتاب انشاء الله تعالى.

على أن الزهراء عليها السلام إنما جعلها الله نذيراً للبشر كأبيها المصطفى لأنها ميزان لرضا الله وغضبه، كما هي ميزان للتقدم والتأخر، أي لمن شاء التقدم وجده عند فاطمة عليها السلام ومن لم يعرفها فهو إلى التأخر والرجوع إلى الوراء وإلى النار.

* النقطة الثالثة:

في الطريقة التي خرجت بها الزهراء عليها السلام لإلقاء خطابها العظيم الذي هز العروش والجبال والقلوب وكشف عن الزيغ والأهواء، حتى بان من خلال هذا الخطاب للناس كافة، الصادق من الكاذب، والزاهد من الراغب، ومن هو صاحب الحق، ومن هم أهل الباطل، كل ذلك بدا واضحاً في مشهد لا لبس فيه ولا غبش، بل كان يلمع في ضوء الشمس ونور القمر، ولكي تبدو الصورة أكثر وضوحاً وتألّقاً، أضرب لكم بعض الأمثلة التي تحرك الوجدان وتثير أمواج العقول وهي على الشكل التالي:

١ - أن فاطمة عليها السلام لم تخرج وحدها، وإنما اختارت ثلة من حفدتها ونساء قومها لتبين للناس رسالة الإنسان بشكل عام، ورسالة المرأة بشكل خاص، وأن للمرأة دوراً لا بد لها من القيام به في بناء المجتمع وحفظ حقوق الناس وعدم التفريط بها، وأن الحق لا يضيع عندما يكون وراءه مطالب حثيث شديد لا تأخذه في الله لومة لائم.

٢ - هذا بالإضافة إلى أن المسألة ليست فقط مسألة فذك - كما هو واضح ومعروف لدى القارئ الفطن والمتتبع الذكي - إن المسألة أكبر من فذك وإن كانت مسألة فذك كبيرة وعظيمة لأنها تخص شخصاً عظيماً مثل فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها في هذه القضية بالذات، وفي كل قضاياها روعي فداها.. لذلك كانت ترمي من وراء الطريقة التي خرجت بها إلى المسجد لإلقاء الخطاب أن تكشف الحقائق للناس، لأن الناس كانوا في حالة من الغفلة والذهول بفعل الجهل والضلال والزيغ والأهواء التي خيمت على هؤلاء جميعاً

وهم الذين انقلبوا على أعقابهم في قوله تعالى يصفهم بأنهم لا إيمان لهم ولا تقوى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١).

على أن في كلمة الشاكرين دليلاً على نوع الانقلاب الذي حصل وهو انقلاب ضد الولاية لأهل البيت عليهم السلام وبالتحديد ضد ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام لأن القوم لم يتركوا الصلاة، ولا هجروا الصيام ولا بعدوا عن مناسك الحج وعن البيت الحرام، بل كل ذلك كان يجري بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله كما كان يجري في حياته، إلا أن المسألة اختلف فيها القوم إنما هي ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام، يضاف إلى ذلك أن الآية التي تقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

تريد أن هذه الأدوات والأجهزة التي نزلت معنا يوم خرجنا من بطون أمهاتنا إنما هي أدوات وآلات اختصت بالمعرفة دون غيرها، لذلك قال: ﴿.. عَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ..﴾ وإذا ضمنا كلمة (لعلكم تشكرون) في آخر هذه الآية إلى آية الانقلاب التي يقول الله عزوجل فيها: ﴿.. وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ..﴾ عرفنا أن الله عزوجل إنما زودنا بهذه الأجهزة والأدوات لنستعملها في مجال الولاية ونستفيد منها في إظهار معالم الحق، فابن

(١) آل عمران / ١٤٤.

(٢) النحل / ٧٨.



آدم - كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ينفرد بفضيلتين: (عقل ومنطق، فبالعقل يستفيد، وبالمنطق يفيد).

أي عملية أخذ وعطاء أشبه شيء بالشجرة التي تأخذ من التراب والشمس والهواء والماء وتعطي الثمرات لكل البشر من كل زوج بهيج رزقاً للعباد.

إذن: فالغفلة والضلال والزيغ وركوب الأهواء والانسياق وراء الشهوات والاسترسال مع اللذات.. هذه كلها هي الغالبة على الناس والمسيطرة عليهم، فهم في حاجة الى من يخرجهم من هذه الظلمات الى نور الحق، ثم يذكرهم بأيام الله عزوجل التي تنتظرهم في المستقبل.

وهذا هو الذي صنعتة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، بهؤلاء الذين جلسوا يستمعون إليها، وهي تطلق آهات وزفرات ودموع حارة على فقد حبيبها وأبيها النبي المصطفى صلى الله عليه وآله والذي لم يمض على رحيله سوى أيام، تعد على أصابع اليدين.

على أن كل ذلك يستدعي منا دراسة وتقييماً لموقفها روحي فداها، ولموقف الناس منها، خصوصاً في هذا الخطاب العظيم الذي هز الوجدان والضمير والعقل والقلب فأبصر من أبصر وعمي من عمي ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

كما أن من أبصر فإنما يبصر لنفسه، لأن الإنسان جاء الى الدنيا مزوداً ببصر وبصيرة، لكشف الأشياء والحقائق، وكما أن البصر لا يكشف إلا بالنور، كذلك البصيرة لا تكشف الحقائق إلا بالإيمان وهو



بعد ذلك نور جعله الله في قلوب الأحرار الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وما ماتوا إلا وهم مسلمون.

إذن: فالقضية كانت عند الزهراء عليها السلام هي قضية الإسلام والارتداد، قضية الإيمان والشرك، قضية النور والظلام، لقد كانت القضية في رؤية الزهراء عليها السلام هي قضية الخلافة المعطلة والخلافة المشيدة التي لا يعرف رাকبها حتى إرث الجدة في أبسط مسألة في الفقه.

إن المسألة في نظر فاطمة عليها السلام، إنما هي من أين نأخذ الدين بعد النبي ﷺ...؟؟

ومن يحمل علم النبي ورحمته وفضله وخلقه...؟؟

إن الله عزوجل أرسل حبيبه المصطفى ﷺ رحمة للعالمين، فلا يمكن أن ترتفع هذه الرحمة بموت النبي ﷺ، بل لابد أن تستمر لأن الناس في حاجة لها، والتكليف لم يرتفع عن الناس بعد رحيل المصطفى ﷺ..

فلا بد إذن: من أن يكون هناك رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لله عابدين، وبالله عارفين يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين وأبناء الحسين عليهم الصلاة والسلام، وهؤلاء هم الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وقد أشارت الزهراء عليها السلام الى خلافتهم وإمامتهم ثم أعطت مواصفات وخصائص حكومة الإمام علي عليه السلام، ومن ذلك قولها عليها السلام: (.. وجعل الله سبحانه، إمامتنا أماناً من الفرقة، وطاعتنا نظاماً للملة، والعدل تنسيقاً للقلوب..).



ومعنى ذلك أن الأمة لا تزال هادية مهدية ما تمسكت بإمامة علي عليه السلام وطاعته، وكذلك طاعتهم حيث أمر الله العباد بطاعة محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، وهي طاعة مقرونة بطاعة الله في آية محكمة واضحة، وإن بدت للبعض أنها من المتشابه لكنها في الحقيقة محكمة لشدة وضوحها، وتفسيرها وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (١).

فطاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ تدل على أن أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم إنما هم أئمة معصومون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون..

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٢).

على أن عصمة أولي الأمر تعد من المسلمات التي ليس فيها مجال للشك ولا للنقاش، وذلك أن عدم عصمة أولي الأمر توقع الناس في ضلال بعيد، لأن الطاعة التي جاءت مقرونة بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ، إنما هي لأناس معصومين لا يخطئون ولا يذنبون لأنهم لو كانوا يتعاطون الذنوب، لكان الله - والعياذ بالله - يأمرنا بطاعة المذنب العاصي وهذا لا يمكن أن يكون وليس في مدرسة أهل البيت عليهم السلام من يقبل هذا اللون من الكلام والتفكير.

على أن الفخر الرازي عالم العامة في كتابه التفسير يؤكد أن أولي

(١) النساء / ٥٩.

(٢) الأنبياء / ٧٣.

الأمر لأبد لهم من العصمة لأن الله تعالى أمرنا بطاعتهم وحين يأمرنا بطاعتهم، فيجب أن يكونوا معصومين لا يخطئون أبداً، ثم ينتهي إلى نتيجة من أعجب ما قرأت وهي أنه يقول:

أن أولي الأمر هم الأمة الإسلامية والمسلمون وما عشت أراك الدهر عجباً، وإني لأظن أن هناك غير واحد بل أكثر من الفخر الرازي من علماء العامة من يؤكد عصمة أولي الأمر ولكنه يفلت القضية من يده عندما يجعل خلفاء بني أمية الشجرة الملعونة في القرآن، يجعلهم من أولي الأمر الذين تجب علينا طاعتهم وتحرم معصيتهم!!

على أن كل ذلك إنما يحدث عندما يبتعد الناس عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام ويذهبون هنا وهناك في مدارس ومذاهب لا ترتبط بأهل البيت عليهم السلام ولا تعتمد على فكرهم لا من قريب ولا من بعيد، وخذ على سبيل المثال:

البخاري الذي يعتمد في نقل أخباره على رجال من الخوارج ومن الذين يبغضون علياً أمير المؤمنين عليه السلام، ويبغضون أهل البيت عليهم السلام وهؤلاء باتفاق كلمة المسلمين هم من المنافقين، لأن الحديث الشريف الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: (يا علي لا يحبك إلا كل مؤمن ولا يبغضك إلا كل منافق).

أقول: هذا الحديث مشهور عند الفريقين، فهم نقلوه في أمهات كتبهم وهم يعززون الأدلة على صحة سند هذا الحديث، ووفقاً لهذا الحديث، فإن رجال البخاري إذا لم نقل كلهم، فجّلهم وأغلبهم من النواصب والمنافقين، أمثال (عمران بن حطان السدوسي البصري)



الذي له قصيدة يمتدح بها عبدالرحمن بن ملجم المرادي قاتل أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول فيها:

يا ضريبة من تقي ما أراد بها

إلا ليأخذ من ذي العرش غفراناً ورحمة

هذا معناها دون لفظها، ومع ذلك كله فإن البخاري يجعله من رجاله الثقات في حين أن البخاري لم يرو عن أبي عبدالله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ولم يرو عنه حتى لا حديثاً واحداً أبداً.

في حين أنه يروي عن مشايخ الناصبة الذين يتعبدون بسب أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (يا علي من سبك فقد سبني ومن سبني فقد سب الله ومن سب الله، أكبه الله على منخريه في نار جهنم، أو أوشك أن يعذبه في النار)..

على مضمون الحديث أنقله لكم لا النص بالذات وممكن سيأتي نص الحديث هذا في موضعه من هذا الكتاب انشاءالله تعالى.

هذا والكلام يجر الكلام، والشيء بالشيء يذكر هناك عشرات بل مئات الكتب التي تبين هذه الحقيقة المؤلمة، وهذا الواقع الحزين.

من كل ذلك نخرج بحصيلة مفادها: أن فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، إنما خرجت تطالب بفدك لتذكر الناس بأن هؤلاء الذين يزعمون أنهم خلفاء النبي إنما هم من أكثر الناس خروجاً على الحق وخذلاناً لأهله، وأهله هم أهل البيت عليه السلام.

من هنا كان صوت فاطمة عليها السلام يدوي في عروش الظالمين في كل زمان ومكان فيهبها ويحرقها ثم يذروها ذرو الريح الهشيم في عيون المتسكعين حولها.



على أن التاريخ الصحيح يؤيد هذه الفكرة ويوضح لنا أن دولاً هنا وهناك قامت باسم فاطمة في حين أن دولاً أخرى أسقطتها فاطمة عليها السلام، إذ كانت دولاً ظالمة تقوم على نشر الفساد في الأرض، ومن هنا أيضاً كان الرجل الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً، إنما هو الإمام المهدي من عترة فاطمة عليها السلام وهو ابنها حتى ورد في الأخبار الي تتحدث عن علامات آخر الزمان، أن الإمام المهدي صلوات وسلامه عليه، إنما هو من ولد فاطمة بل هو ابن فاطمة الزهراء عليها الصلاة وأزكى السلام، على أن العالم بأسره يتطلع طلوع الإمام العظيم ويتوقع خروجه وينتظر قدومه ليغير العالم كله من الفساد إلى الصلاح، ومن الظلمات إلى النور.

علماً بأن النور الذي سيخرجه الإمام ليس نوراً طبيعياً ولا عادياً أبداً، وإنما هو نور يأتي من الغيب، حتى تشرق الأرض بنور ربها، ومن هو ربها ؟؟..

لاشك أن الذي خلق الأرض وكل شيء إنما هو الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، وهذا لاشك فيه ولا ريب، غير أن المسألة هنا تختلف اختلافاً جذرياً، فالأرض سوف تشرق بنور ربها ورب الأرض صاحبها الذي يطبق حكم الله على ظهرها، وهذا يعني أن الأرض ستقع بأيدي الصالحين، في آخر الزمان:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١).

(١) الأنبياء / ١٠٥.

وهذا هو الواقع كما تشير إليه آية ثانية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ (١).

وأمر الله تعالى الذي يأتي الأرض في الليل أو في النهار، بمعنى أنه
يقع في لحظة واحدة تكون فيها الأرض غارقة بنصفها في الليل
وسابحة بنصفها الآخر في النهار، وهذا هو الحق الذي أريد أن أشير
إليه هنا بخلاف الذين فسروا إضاءة الأرض بنور ربها في يوم القيامة،
ونقول لهم: أن الأرض في يوم القيامة هي غير هذه الأرض، ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ. ﴿﴾ (٢).

وإنما ذكر الوجوه كما ذكر الأفئدة، النار التي تطلع على الأفئدة، لأن
أبرز شيئين في الإنسان الوجه والفؤاد القلب، فواحد في الظاهر وهو
الوجه، وآخر في الباطن وهو القلب، أو الفؤاد، وهنا ترى النار تلتفح
وجوههم، وتغشى وجوههم النار، وهناك نارٌ من شكل آخر تطلع على
الأفئدة إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة.

إذن: فالأرض يوم القيامة هي غير هذه الأرض التي تشرق بنور
ربها، يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم يبين لنا أن الأرض مصيرها
إلى الزلزال والزوال.. ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ
أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ

(١) يونس/ ٢٤.

(٢) إبراهيم/ ٨-٤٥٠.

لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (١).

وفي آيات أخرى يأتي التأكيد على هذا المعنى بالذات. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (٢).

ويقول: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (٣).

... إلى عشرات الآيات التي وردت في هذا المضمار وكلها تشير إلى إنعدام الأرض يوم القيامة، وفنائها بالكامل.

إذن: فالآية التي تقول ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا..﴾ (٤)، إنما هي تريد وقت ظهور الإمام صاحب العصر والزمان، وهو رب الأرض الذي سيجري إصلاحها على يديه لأنه سيملوها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً..

وبالمثل فقد قال عبدالمطلب لأبرهة الحبشي، حين سأله أن يرد إبله عليه: أما أنا فرب الإبل، وللبيت رب يحميه..

... قال: أما أنا فرب الإبل، وقال يوسف عليه السلام: يا صاحبي السجن أرباب متفرقون..، ثم يقول للذي ظن أنه ناج منهما: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٥)...

(١) سورة الزلزلة.

(٢) طه / ١٠٥.

(٣) الحاقة / ١٤.

(٤) الزمر / ٦٩.

(٥) يوسف / ٤٢.

إذن: فكلمة الرب تجيء بمعنى الصاحب أو صاحب الشيء، وهذا يعني أن الرب الذي ستشرق الأرض بنوره، إنما هو الإمام صاحب العصر والزمان، الحجة بن الحسن العسكري الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف، ومن هنا نكتشف في تأمل عميق غاية الزهراء عليها السلام من وراء المطالبة بإرجاع فذك وإعادة الحق لها..

إذ كان هدفها الدفاع عن ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي دعا له النبي ﷺ، يوم الغدير بقوله: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيثما مدار...).

فما ضر الأمة أن تتصر أمير المؤمنين علياً، فتتصر بذلك نبيها وربها، ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة، وإن تعجب فعجب قولهم:

منا أمير ومنكم أمير، كما جرى ذلك في سقيفة بني ساعدة، يختارون خليفة لهم وهم يعلمون علم اليقين أن الخليفة إنما هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو الخليفة والإمام، وهو أمير المؤمنين الذي لم يكتمل الدين إلا بولايته في يوم الغدير حيث أعلنت السماء أنها قبلت الرسالة ورضيت الإسلام ديناً..

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

٣ - خرجت ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله ﷺ، وفي هذا الوصف الدقيق لمشية الزهراء عليها السلام، تنفتح آفاق جديدة

(١) المائدة/ ٣.



وواسعة تبين للناس كافة مدى الترابط والانسجام بين الزهراء وأبيها، فهي كانت بضعة النبي وكانت روحه، وكانت مهجة قلبه، بل كانت شجنة من أبيها النبي العظيم محمد ﷺ، وقد لاحظت ذات مرة من خلال التأمل في هذه المسألة، أن رسول الله طبع شخصيته في أهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، وجعل ابنته فاطمة عليها السلام، كأنها أم أبيها بل هي تمشي مشية المصطفى، وإذا تكلمت أفرغت عن لسان أبيها ﷺ وعلى أبيها وبعلاها وبنيتها والسر المستودع فيها..

على أنني أود أن أشير الى الناس الذين يبدون اهتماماً بقراءة السيرة النبوية وتسليط المزيد من الأضواء عليها وعلى السنة الشريفة..

أود أن أقول لهؤلاء: إذا أردتم قراءة السيرة فاقرووها أولاً في شخصية ابنة النبي الحوراء الإنسية فاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين صلى الله عليها وعلى أبيها وبعلاها وبنيتها.. لأنها تجسيد حي، ومثل أعلى في كل ما يتصل بالنبي ﷺ، وكل ما يتعلق بسيرته الوضاعة كأنها سراج منير..

ومن هنا كانت فاطمة عليها السلام هي روح النبي وقلبه ومهجته بل هي شجنة في الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، والشجرة تأويلها رسول الله ﷺ، وأهل بيته وشيعتهم كما يبدو ذلك واضحاً في كتب التفسير الواردة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام..

إذاً: فمن أراد معرفة السيرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فعليه أولاً أن يقرأها في الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه



عليها، فإنها ميزان للحق والباطل، ومعيار للتقدم والتأخر، ونقطة تحول كبرى بل عالم تحول عظيم يكمن في شخصية الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

على أننا حين نقرأ في سورة المدثر الآيات التي جاءت بعقب آيات سقر التي لا تبقي ولا تذر لواحدة للبشر، نجد أنها آيات بينات توضح قضية طالما احتدم عليها الجدل والنقاش والحوار، ثم وضوحها وشدة ظهورها واقرؤوا معي إذا شئتم الآيات التالية والتي ورد فيها قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢) وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (١).

وفي نظرة تأمل نلقيها على هذه الآيات، نجد إنها تتحدث عن قضية كبرى مقدسة تخص الناس كافة وهي قضية التقدم والتأخر، ليس في الحياة فحسب، بل وأيضاً في كل ما يدور في هذا العالم، وفي كل شيء يتعلق بالإنسان سواء في الدنيا أو في الآخرة، إذ أن هذه الآيات تؤكد أنه ليس في إمكان أحد من البشر أن يتقدم شبراً واحداً أو يتأخر إلا بسبب علاقته بهذه الآية الكبرى، وبفعل معرفته بها والمعرفة درجات، فمن عرف حق هذه الآية الكبرى التي وردت في قوله: ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ﴾.

والكبر جمع كبرى وهي تشير إلى آيات الله الكبرى التي رآها النبي ﷺ، ليلة الإسراء والمعراج.. وأين رآها؟؟

(١) المدثر/ ٣٢-٣٧.



... رآها عندما دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى.. هناك قال الحق سبحانه .. ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(١).

وعندما سئل النبي عن تلكم الآيات التي رآها ليلة المعراج، أجاب بأن الآيات.. هم أهل بيتي وعدهم واحداً واحداً..

قال: هم فاطمة - كما جاء في حديث الكساء - نجد فاطمة مقدمة قبل المعصومين - وعلي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والحجة القائم المهدي صاحب العصر والزمان، وخليفة الرحمن، وقد ذكر النبي أنه رأى ولده المهدي قائماً وسطهم كأنه كوكب دري، علماً بأن هذه الروايات والأحاديث إنما هي مسندة وموثقة ومؤكدة لا يتطرق إليها الشك ولا تعثرها الشبهات.

وبكلمة:

أن آيات المدثر.. ﴿كَأَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذَا دُبِرَ... الخ﴾، إنما تشير الى أن هناك قضية كبرى تستحق التأمل، وتحتاج الى مزيد من التفكير والتبصر، وكأن الليل هو الوقت المناسب والتبصر، وكأن الليل هو الوقت المناسب للتفكير، خصوصاً في الهزيع الأخير من الليل، والقمر بازغ في سماء صافية، تحت الإنسان على التأمل لأخذ المزيد من النتائج المثمرة التي تحدث تحولاً كبيراً في حياة هذا الإنسان.. ويستمر العرض بهذا الشكل:

(١) النجم / ١٨.



﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢) وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

إذن: فإحدى الكبر هي فاطمة الزهراء عليها السلام وهي نذير للبشر، كما قالت في خطبتها عليها السلام: (وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد..). ثم هي ابنة المصطفى وهو المأمور بالإنذار: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (١).

وإنما ذكرت هذه الآية لأنها في أول سورة المدثر، وآية: ﴿نذير للبشر﴾.. في نفس السورة، يضاف الى ذلك أن الروايات الواردة عن أهل البيت كلها تشير إلى أن فاطمة هي النذير للبشر في سورة المدثر، وهي ميزان التقدم لمن أحبها وأخلص إليها، وميزان التأخر لمن أبغضها وخان الأمانة ولم يحفظ النبي فيها.. والمرء يحفظ في ولده كما ذكرت هذا الزهراء عليها السلام في خطابها.

إذن: فحين خرجت الزهراء لإلقاء الخطاب، خرجت تمشي مشية كأنها مشية أبيها رسول الله ﷺ، وسيأتي الكلام حول هذا الموضوع بالذات، موضوع أخلاق النبي وعلمه ونوره ورحمته التي جعلها في أهل بيته عليهم السلام، فهذان الحسن والحسين عليهما السلام، وقد أخذوا من جدهما رسول الله ﷺ، ليس علمه وخلقه فحسب، بل ملامح شخصيته وطريقته في العيش، وحتى مشيته التي يمشي بها في الناس.

وأكثر من ذلك نجد هذه الصورة موجودة في أبناء الحسين عليه السلام فهذا علي الأكبر عليه السلام الذي كان شبيهاً بجده المصطفى خلقاً وخلقاً

(١) المدثر/ ١-٢.

ومنطقاً بل كأنه النبي المصطفى بعينه، بشهادة الإمام الحسين عليه السلام التي أدلى بها في الساعة التي خرج فيها علي الأكبر عليه السلام إلى ميدان القتال، حيث قال الحسين بعد أن أرخى عينيه بالدموع وقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (١).

بعدها قال: (.. اللهم اشهد على هؤلاء القوم أنه قد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلُقاً ومنطقاً برسولك محمد ﷺ، وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إلى هذا الغلام، اللهم فامنعم بركات الأرض وفرقهم تفريقاً، واجعلهم طرائق قديداً، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقاتلوننا...).

وهذه شهادة صريحة من الإمام الحسين عليه السلام، بأن ولده علياً الأكبر أشبه الناس برسل الله المصطفى صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

وهذا يدل على أن النبي كان قد ترك ملامحه وإخلاصه وخصائصه وصفاته مع علمه ونوره ورحمته التي هي رحمة الله الواسعة، كل هذا وأكثر منه تركه عند أهل بيته لأنه منهم وهم منه، وناهيك بالحديث عن الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، فهي روح أبيها، وأم أبيها، وبضعته، ومهجة قلبه، وشجنة في شجرة النبي محمد ﷺ، فلا عجب ولا غرابة في أنها يوم خرجت كانت تمشي مشية تحكي مشية النبي...

(١) آل عمران / ٣٣-٣٤.

(إذ أنها خرجت في لمة من حفدتها وساء قومها، ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله حتى دخلت على أبي بكر، وهو في حشد من المهاجرين والأنصار، فنيطت دونها ملاءة ثم جلست،... فأنت أنة أجهد القوم لها بالبكاء).

على أن هنا كلاماً يهتز من قوته العرش والسماوات العلى، وسنمر به بعد لحظات من هذا.

والسؤال هو:

أي تأويل تفسير لعمق وحرارة تلكم (الأنة) التي أطلقتها من غليل معتلج في صدرها، ومن حزن يشتعل في قلبها؟؟

بل أي كلمة تستطيع أن تعبر عن قوة تلك الأنة التي دوى المجلس لها بالدموع؟؟

وأجهد القوم لها بالبكاء بحيث ارتج المكان كله في صيحة واحدة لأنه فاطمة الزهراء عليها السلام، وهذا لعمري يحتاج إلى مزيد من تسليط الضوء عليه، لإعلان السر العظيم، وإظهار السبب الخفي في هذا الحزن الفاطمي الفاعل والمؤثر في كل شيء..

وتعالوا معي أيها الإخوة والأخوات لننصت خاشعين الى الحبيب المصطفى محمد ﷺ، وهو يقدم لنا تفسيراً علمياً واضحاً لبعض الأسرار الكامنة وراء أنة الحزن والألم التي انطلقت في قلب فاطم، فأجهد الناس لها بالبكاء، وأجرت الدموع من العيون بما لم يسبق له مثيل في التاريخ، ولتوضيح الصورة نقرأ آية وحديثاً من النبي ﷺ لأن المعيار عندنا في هذا كله، إنما هو الكتاب والسنة لتكون المسألة أعمق،

والحجة أبلغ وأتم بحيث لم يعد العذر مقبولاً، ولا الأمر موجهاً.. (فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم..)

وهذا نص من خطاب فاطمة وجهته للمهاجرين والأنصار الذين خذلوها ولم ينصروها، بل تواروا بالجبن والخوف والكسل والتفاعس والأعدار الواهية.

وهذا هو المصطفى ذكر حديثاً بعد آيات الله عزوجل التي تقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١).

على أن المراد بالشجرة الطيبة هنا، هو المصطفى محمد ﷺ، مع أهل بيته، فهو شجرة طيبة أصلها ثابت في السماء لا ينقطع عطاؤها أبداً، بل هي في عطاء النور والعلم والخلق والمعرفة والثمرات من الفكر والحكمة والصدق والعدل...

﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾

.. أي أنها لا تكف عن العطاء أبداً.. وهذا هو الحق.. فالله تبارك وتعالى يقول لحبيبه المصطفى في آيات من الذكر الحكيم: ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْخَلْقِ﴾..

هذا لعمرى... هو الحق لأن الأشياء والحقائق لا تكتمل إلا بشيئين: العلم الذي مصدره الصدق وفيه الفكر والحكمة والشرائع كلها، ثم بعد

(١) إبراهيم / ٢٤.

ذلك التطبيق وهو ما يعرف بالخلق لأن الخلق لتطبيق العلم، وكما قال الله عزوجل في إشارة واضحة وشديدة لهذا المعنى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ..﴾^(١).

فالصدق في الفكر، والعدل في التطبيق، فكر معصوم لا خطأ فيه، وتطبيق معصوم ليس فيه خطأ ولا غلط أبداً.

على أننا عندما نلقي نظرة على المشكلات التي تعصف بالعالم اليوم نجد أنها مشكلات نابعة من خلل في الفكر أو خلل في التطبيق أو من الفكر والتطبيق، وهنا أود أن أشير إلى حقيقة ذكرتها الزهراء عليها السلام في خطابها العظيم تصف فيها نفسها بأبي وأبي فتقول: (أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد أقول حقاً عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تعزوه وتعرفوه، تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم فلنعم المعزي إليه، فبلغ الرسالة، صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم آخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة يكسر الأصنام وينكت الهام.. الخ).

إذن: فهي تبين للعالم كله أنها معصومة في الفكر والقول والعمل، فلا خطأ في فكرها، ولا غلط في قولها، ولا انحراف في عملها أبداً، وذلك أنها روح النبي وبضعته ومهجة قلبه، وهي من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(١) الأنعام / ١١٥.

على أن الطريقة في هذا البحث تقتضي أن نمعن النظر أكثر فأكثر في خطاب الحق سبحانه ووصفه لعبده ورسوله المصطفى محمد ﷺ، حيث يصفه بأنه على خلق عظيم، ويقول في حقه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١).

إذن: فأعظم شيئين خلق الله الكون من أجلهما: العلم والخلق وهما شيئان يصنعان الإنسان الكامل، والعقل الكامل، والمنهج الكامل والدين الكامل، ولتوضيح هذا أقدم هذه المقدمة القصيرة وهي: إن كمال الإنسان بالعقل، وكمال العقل بالدين، وكمال الدين بولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام، لأن الإنسان مؤلف من صورة وعقل، فلا خير في الصورة إذا لم يكن معها عقل، والعقل يتغذى بالعلم والإيمان فلا يكتمل العقل إلا بالعلم والإيمان وهذا هو الدين، ولذلك كان الدين ملازماً للعقل يوم خلق الله السموات والأرض ويوم هبط جبرائيل على آدم عليه السلام، ليقول له: يا آدم، إن الله عزوجل يخيرك بواحدة من ثلاث. قال: وما هي يا جبرائيل الثلاث؟ قال جبرائيل: العقل والدين والحياء.

فقال آدم: اخترت العقل.

قال جبرائيل للدين والحياء: اتركاه وانصرفا.

فقالا: إنما أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان. فقال: شأنكما،

وعرج...

تأملوا جيداً في هذه الأحاديث لأن الأصل، والملاك، إنما هو فقه الحديث والتفقه في الدين، لا رواية الحديث وعدم التفقه في الدين،

(١) النساء/ ١١٣.

فكم من راوي للحديث وهو لا يعرف الغاية ولا الهدف من الحديث،
ومن هنا كان الأمر: أنه حديث تدريبه خير من ألف حديث ترويه..

ومن هنا أيضاً كان العلم ليس بكثرة التعلم، وإنما هو نور يقذفه الله
في قلب من يشاء، ومن هنا أيضاً كانت العبادة ليست بكثرة الصلاة
والصيام، وإنما العبادة بكثرة التفكير في أمر الله عزوجل.

فجبرائيل عندما قال للدين والحياء دع العقل وانصرف، أجابه: إنا
مأمورون من قبل الله عزوجل أن نكون مع العقل حيث ماكان..

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن لا كمال للعقل إلا بالدين
والحياء، ولذلك ورد في الأثر: أن العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به
الجنان، وليس العقل هو الشيطنة والهرطقة أبداً إنما العقل هو الذي
ينمو في أجواء الإيمان ويشتد بالعلم ويكتمل بالدين، فقد جاء في
الحديث: (إن الله عزوجل أول ما خلق خلق العقل فقال له: أقبل..
فأقبل، ثم قال له: أدبر.. فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً
هو أحب إلي منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب، بك أثيب وبك أعاقب).

إذن: فلا أكملتك إلا فيمن أحب، ومعنى ذلك أن حب الله تعالى هو
الذي يكمل العقول، وحب الله تعالى هو الدين الخالص وله ميزان: ﴿قُلْ
إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (١).

ومتابعة الرسول هي في حب أهل بيته، وعلى رأسهم حب فاطمة
الزهراء عليها السلام التي يرضى الله لرضاها ويفض بفضيلتها.

(١) آل عمران / ٣١.

ومن هنا نستطيع أن نقول بكل قوة وصراحة: أن حب فاطمة لإكمال العقول وإتمام النعم وإسباغ الآلاء، وما يقال في حب فاطمة، يقال في حب أبيها وبعلمها وبنيتها وحب السر المستودع فيها، وعلى سبيل المثال: إذا قرأنا الحديث الشريف المعروف في حب الإمام الحسين عليه السلام والذي يقول فيه المصطفى ﷺ: (حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً).

فيجب أن ندرك في يقين لا شك فيه، وعلم لا جهل معه، أن حب الحسين رياض لتغذية العقل وتربيته وإكماله، فالدمعة الواحدة على الحسين تكمل العقول، وكذلك زيارته وإقامة المآتم والبكاء عليه، بل إن تعظيم الشعائر الحسينية يفعل هذا الفعل، ويوصل الناس إلى مرحلة الرشد والرشاد، في الفكر والعقل، خصوصاً إذا تأملنا في قول الله عزوجل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(١).

من كل ما تقدم نخلص إلى نتيجة مفادها: إن أهم ركنين أساسيين في بناء الإنسان الكامل، إنما هما العلم والأخلاق...

ومن أكمل من المصطفى محمد ﷺ، ومن أهل بيته، لذلك قال له الحق: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾^(٢). وفي آية ثانية يقول له فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

علماً أن الدنيا وما فيها من اتساع وعرض وعمق يصفها القرآن

(١) الحج / ٣٢.

(٢) النساء / ١١٣.

(٣) القلم / ٤.

بالمُتاع القليل، وما مُتاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، فأَي عالم هذا العالم الذي فيه المصطفى محمد ﷺ؟ إنه عالم الملك والمُلكوت، بل أكثر من ذلك أن كل شيء أحصاه الله في روح النبي، ولا تبتعد عن قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

والإمام المبين هو علي أمير المؤمنين وهو نفس النبي ووصيه وإمام المتقين، فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو الذي اجتمعت هذه الصفات والخصال فيه، فصارت روحه مؤثلاً لعالم ومكان ثم دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، وكذلك قلبه صار نزلة للعرش وما حوى، والمُلكوت وما حوله من الخلق، وهذا هو الواقع الذي يبين لكم من هو المصطفى ﷺ.

وهنا ملاحظة تجدر الإشارة إليها، وهي أن النبي، عندما يذكر الزهراء، يذكرها على أنها روحه، وبضعته وقلبه ومهجته، وفي حديث ذكره الحفاظ كافة من الفريقين.. يذكر فيه فاطمة على أنها شجرة منه، والشجرة لها علاقة بالشجرة، فهي الفصن أو الفرع الذي يلتف به وعليه الثمر والغصون والأوراق كلها، من قولهم: أشجن الكرم إذا التفت الورق، والتفت الأغصان بالشجر، ثم يقول: (إنما فاطمة شجرة مني، قبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها).

أي أن كل شيء يقبض فاطمة فإنما يقبضني معها، وكل شيء يسبب انبساطاً لفاطمة، فإنه يبسطني في ذات اللحظة معها لأنها روحه التي بين جنبيه، هذا مفاد كلام الرسول الأعظم محمد ﷺ..

(١) يس/ ١٢.



وإذا عرفنا أن الانبساط والانقباض الذي يحدث في شخص النبي محمد ﷺ، إنما يحدث في كل شيء خلقه الله مما يرى ومما لا يرى في عالم الغيب والشهادة، في عالم الملك والملكوت من الأرض إلى مكان دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، كل ذلك ينقبض لانقباض النبي وينبسط لانبساطه.

أقول: إذا عرفنا ذلك، وعرفنا أن النبي ينقبض لانقباض فاطمة، وينبسط لانبساطها، أدركنا أن الأنة التي تتطلق من فم فاطمة تجعل العالم كله حزيناً، تؤثر تأثيراً عميقاً في العالمين جميعاً، حقيقة لا مجازاً، فيبكي لبكائها آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران مع الناس كافة، بل إن كل الملائكة تجهش لأنة واحدة من قلب فاطمة عليها السلام، فلا عجب ولا غرابة إذا انفجر الناس بالبكاء لسماع أنة حزينة من الزهراء عليها السلام.

على أننا هنا ننقل من كتب الحديث كافة وكما يقول المثل أو تقول القاعدة: ألزموهم بما ألزموا أنفسهم...

فإذا ذكرتم يا أقطاب العامة كل ذلك في حق فاطمة الزهراء، فإن الحجة البالغة تقوم عليكم وتستدعي منكم أن تقيموا مجالس العزاء والبكاء على فاطمة الزهراء أيام وفاتها واستشهادها، لأن الأدلة كلها تأخذ بأعناقكم، وتبين لكم أن فاطمة عندما تبكي فإن الوجود كله يبكي لبكائها، بل إن الأنبياء والأوصياء وكل الأولياء يكونون يحزنون لحزن فاطمة عليها السلام.

ومن هنا أقول: الويل كل الويل لمن يستخف بحقها، ويستهزئ بمقام فاطمة عليها السلام.



إذن: فقد أصبح واضحاً السبب الذي جعل القوم يجهشون في البكاء عند أول أنةٍ أطلقتها الزهراء قبل البدء بخطابها، وإذا كانت الأنة الواحدة تصنع هذا الصنيع، فما بالكم بقولها وفكرها وخطابها والكلمات التي أطلقتها في ذلك الحشد المتلفع بإبراد العار والشنار والانقلاب على الأعقاب!!

* النقطة الرابعة:

دور المرأة في رفع قواعد المجتمع والحفاظ على الحقوق وأداء الأمانات الى أهلها، واضح وصريح جداً وذلك للأمور التالية:

عندما يقدم القرآن المرأة فإنه يقدمها عزيزة قوية منيعة، شأنها في ذلك شأن الرجل وإن كان للرجال على النساء درجة في الإنفاق والاقتصاد، وهو استثناء يؤكد القاعدة لأن الأصل وحدة المخلوق البشري سواء كان ذكراً أو أنثى.. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١).

وفي آية ثانية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (٢).

يضاف الى ذلك أن كل ذكر للإنسان في القرآن إنما جاء للرجال والنساء، وكل خطاب موجه الى المؤمنين فإنه يريد المؤمنات أيضاً، على

(١) الحجرات/ ١٣.

(٢) النساء/ ١.



أن في القرآن سورة كاملة اسمها سورة النساء، ونزلت تتحدث عن شؤون المرأة وقضايا الأسرة التي تتعلق بالنساء أولاً قبل كل شيء..

هذا بالإضافة الى وجود سور في القرآن تتحدث عن مشكلات المرأة والحلول التي تحتاجها في ذلك.

على أن بعض السور في القرآن تعد المرأة إعداداً تربوياً لمواجهة التحديات التي تقف في طريق المرأة، وتعيقها عن التقدم والنصر والفلاح، مثل سورة المجادلة التي نزلت في حل مشكلة وقعت في أسرة فقيرة رقيقة الحال.

والأمثلة على ذلك كثيرة والشواهد عديدة، غير أننا أردنا أن نثبت أولاً أن المرأة في الحقوق والواجبات مثل الرجل تماماً، إلا ما أخرجه الاستثناء الذي يظهر في اختلاف الدور أحياناً بين المرأة والرجل وفق ما تؤكده طبيعة الأشياء وسجية الخلقة التي تجري في البشر، وما عدا ذلك فالأمور فيه متساوية لا تجد فيها عوجاً ولا أمتاً.

وعلى سبيل المثال، خذ المسؤولية التي تضطلع بها المرأة في الحياة، فإننا نجد أن المرأة تسبق الرجل في هذا المضمار، فلو فرضنا أن صبياً وبنثاً يتيمان في سن العاشرة، كأن يكون لهما إرث من الأب والأم، وهما توأماً، وللذكر مثل حظ الأنثيين، فلبنت مبلغ كبير من المال والذهب ولأخيها مثل ذلك وأكثر، وهنا نجد الإسلام في تشريعه يعطي البنت حق التصرف في المال والذهب والعقار والميراث بخلاف أخيها الذي يمنعه الإسلام من التصرف في هذا الإرث إلا بعد خمس سنوات، لأن أخته سبقته الى البلوغ وسن التكليف بخمس سنوات أو أكثر أحياناً، وهذه حقيقة ليس عليها غبار ولا لبس.



ولك هنا أن تفكر في هذه البنت التي تجعل هذا المال في التجارة والعمل وتحريك الأسواق، كم يأتيها من الفوائد والمنافع فتثري وتستغني الى درجة أن أموالها هذه تتصاعد وترتفع الى أضعاف ما عند أخيها من مال وقد تفوقه أحياناً بعشرات المرات، هذا بالإضافة الى أنها تأخذ المهر في زواجها، وليس عليها العاقلة أي ليس عليها الاشتراك ولا المشاركة في دفع الدية التي تقع على أخيها بفعل بعض الأقارب من التجاوز والقتل، كما هو مذكور في كتب الفقه، وسيأتي الكلام حوله في موضعه من هذا الكتاب انشاءالله.

إذن: فالبنت هنا ليس عليها أن تدفع مالاً لدية في هذا المجال، كما أنها معفوة من دفع المهر، وإنما تأخذ المهر في زواجها بخلاف أخيها الذي يدفع المهر في زواجه، وعليه المشاركة في دفع العاقلة كما هو معروف، والذي أريد أن أبينه هنا إنما في هذا المجال بالذات أي أن الحق الذي جاء في القرآن على أنه نصف حق الرجل، إنما هو للأخت فقط وفي هذا المكان بالذات، وهي كما رأينا تستطيع أن تنمي وتثري المال الذي عندها بفعل السبق الذي يعطيها الإسلام حق التصرف في المال والعقار والذهب والفضة بسبب هذا السبق والمسارة التي تسبق أخاها بها في خمس سنوات أو أكثر أحياناً، وإلا فالمرأة في الميراث شأنها شأن الرجل في ذلك، ولربما سبقت المرأة الرجل في عدد الأسهم وكثرة الحصص، كما في الطبقات الأخرى من الميراث في مسألة أبناء العم وبناته، وأمثالهم في غياب الطبقة الأولى من الورثة.

على أن هذا يحتاج الى شيء من التبسيط والتوضيح الذي سيأتي في محله من هذا الكتاب انشاءالله تعالى.

وعلى ذكر حقوق المرأة وسن البلوغ والتكليف، فقد قرأت في جريدة (الديلي ميل) البريطانية بحثاً عن سن التكليف للرجال والنساء في الدول الأوروبية والعالم الغربي والذي أقرته مجالس البرلمان في بعض تلك الدول وفيها على سبيل المثال وعلى ما أتذكره - على أنه يمكن الحصول على هذه المعلومات عن طريق شبكة الانترنت في أقل من لمح البصر إذا أراد أحدكم ذلك - أن هولندا جعلت سن التكليف والبلوغ عند البنات في الثانية عشر من العمر، وفي أسبانيا لا تزيد عن سن الثالثة عشر، وكذلك الحال في ألمانيا، وفي فرنسا شرعوا قانوناً يقضي بأن يكون سن البلوغ والتكليف في الخامسة عشر من العمر، على أن مجلس العموم البريطاني تقدم بطلب يقضي بتقليل سن التكليف الى الثانية عشرة ودون الرابعة عشرة والأمثلة في ذلك كثيرة والشواهد عديدة.

وإنما ذكرت ذلك لأنني كنت يومئذ أتحدث مع بعض المثقفين في هذا الشأن، وكان ذلك البعض يأخذ على الإسلام أنه جعل سن البلوغ في العاشرة في البنات، فلما أريته التحقيق الذي نشرته الصحيفة المذكورة أذعن واعترف بالحق، وأقر أنه لا اعتراض لديه على الإسلام، لأن الصحيفة المشار إليها قد أكدت هذه المعلومات بشكل لا يقبل التشكيك على الإطلاق.

وأخذتني الدهشة في حينها وأنا أقلب طرفي في الأفق لعلني أجد تفسيراً لما يحدث لكثير من شبابنا حيث إنهم يعترضون على بعض أحكام الله، فإذا وجدوا ذلك مقبولاً لدى الغرب، ذهب الاعتراض

منهم، ومالت نفوسهم الى القبول بعد الرفض، والى الاعتراف بعد الاعتراض، وما ذلك إلا من قلة الفهم وكثرة الجهل.

أعود الى أصل الموضوع الذي انطلقت وإياكم في رحلته هذه، وهي الحديث عن شؤون المرأة وقضايا الأسرة في الإسلام، فأقول لكم أيها الأحبة:

أن الإسلام يرفع المرأة في أرفع قمة عالية في سماء العزة والمجد والكرامة، ويكفي دليلاً على ذلك إلقاء نظرة على أبواب الفقه الخاصة بشؤون المرأة والأسرة، فإننا سنجد الكثير الكثير على أبواب الفقه الخاصة بشؤون المرأة والأسرة، فإننا سنجد الكثير الكثير من العلم والمعرفة والفكر في هذا الخصوص، وإليكم نقاطاً مضيئة في ليل التعظيم الإعلامي على حقوق المرأة في الإسلام، وأولها: إن الإسلام يقدم المرأة قوية عزيزة في مواقفها وشؤونها في الحياة، ففي العقيدة والكمال يقدم الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام، على أنها الحوراء الإنسية وهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، وهي التي امتحنها الله قبل أن يخلقها، بل إن الله عز وجل ضربها مثلاً لنوره العظيم، إذ كانت المشكاة التي حوت نور الله العظيم فأضاءت به كل العوالم في الوجود، لأن الله ليس كمثله شيء، وإنما هو مثل ضره الله لفاطمة الزهراء عليها السلام، وجعل النور كله في خلقها وروحها وشخصيتها، فكانت بحق المثل الأعلى لنور الله كله..

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ..﴾^(١).

(١) النور/ ٣٥.

أجل.. إن فاطمة عليها السلام هي نور الله الذي لا ينطفئ أبداً..
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١).
وفي آية ثانية.. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ
نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

إذن: فالكافرون يسعون في الأرض فساداً لإطفاء نور الله بأفواههم،
أي بأقوالهم وخطبهم وكلامهم، ولكن من يقوى على إطفاء هذا النور؟؟
كلا والله ما كان لهم ذلك أبداً، ومن هنا كان عقابهم يوم القيامة أن
يختم على أفواههم لأنهم حاولوا وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم
فكان الحق أقوى منهم، وإذا كان هذا النور متمثلاً في شخصية
الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنها هي المشكاة التي
اشتملت على نور الله العظيم.

فمن يا ترى يستطيع إطفاء هذا النور الذي يشع من وجه فاطمة
الزهراء عليها السلام؟؟

ويتألق في كلامها، ويتفاعل في حياتها؟؟

من يتمكن أن يخمد هذا الصوت، أو يطفئ هذا النور العظيم الذي
نقرأه في سورة النور وآية النور، فاقرؤها معي أيها الإخوة والأخوات
لتروا بأنفسكم كم هو هذا النور قوي ومشع وواسع وعريض، أضاءت
به السموات السبع والأرض، ومن فيهن وذلك يوم غطت سحابة من

(١) الصف / ٨.

(٢) التوبة / ٣٢.

الظلمة عالم الملائكة والملوكوت، واستمرت الظلمة عليهم حتى ضجوا الى الله بالتضرع والدعاء والابتهال: أن يا رب اكشف عنا هذه الظلمة وارفع الظلمات هذه التي لم نر لها مثيلاً فيما سبق، فأوحى الله إليهم أني سأضيء العالم كله بنور أمتي وحبيبتي وابنة حبيبي، الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها..

فاستتار الوجود بنورها، لأنها المشكاة التي انعكس نور الله من خلالها..

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

وأول أهل البيت هذه الآية وفسروها، بأن المشكاة فاطمة الزهراء عليها السلام والمصباح الأول الإمام الحسن عليه السلام، وأما المصباح الثاني فهو الإمام الحسين عليه السلام، يدل على ذلك الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه المصطفى صلى الله عليه وآله: (رأيت مكتوباً عند يمين العرش أن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة).

وهذا يدل على أن الله عزوجل، لما أراد أن يُعرف الحسين للعالم عرج بأعظم وأكبر شخصية في الوجود وهو الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، ليريه من آياته الكبرى وكان مما رأى وشاهد، رأى الحسين عليه السلام على حقيقته، وقرأ عن يمين العرش الكتابة التالية: (أن الحسين

(١) النور / ٣٥.

مصباح الهدى وسفينة النجاة، وإمام خير ويمن، وعز وفخر وبحر علم
وذخر^(١).

كما ورد هذا الحديث في كتاب عيون أخبار الرضا للصدوق في
الجزء الثاني منه، على أننا يمكن أن ننطلق مع الحديث هذا بشيء من
التفصيل في موضعه من هذا الكتاب انشاء الله تعالى.

وإنما فقد أردنا هنا أن نشير إلى حقيقة غابت عن أذهان كثير من
الناس، وهي أن المشكاة التي ورد ذكرها في سورة النور، إنما هي
فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ وليس غيرها أحد، لأنها هي النور
العظيم الذي كشف الحقائق للعالم كله، وأضاء الوجود في العالمين، وما
هذا الذي أذكره لكم إلا قطرة واحدة من سبعة أبحر نفدت قبل أن
تتفد كلمات الله.

ففي أسماء فاطمة عليها السلام كنوز من المعرفة، وفي عقلها آفاق واسعة
من العلم والنور والحياة، وفي قلبها تكمن الأسرار التي يتحدث عنها
الأنبياء والملائكة والرسل، ويحملها الأئمة الطاهرون في أرواحهم
وأفئدتهم علماً ونوراً وحباً وإخلاصاً لفاطمة عليها الصلاة وأزكى
السلام..

وما يقال في أسمائها، يقال في أقوالها وكلماتها، وفي دعائها
وعبادتها، وفي جهادها وكفاحها، وفي طاعتها وأمرها، إذ كانت
مفروضة الطاعة على كل الأنبياء والرسل والملائكة والجن والإنس
والطير وما خلق ربنا مما نراه ومما لا يراه أمثالنا..

(١) نقلته دائرة المعارف الحسينية عن عيون أخبار الرضا عليه السلام ٦٢/١.



إنها عالم من أسرار الملكوت، وبحار من العلم والسمو والمعرفة، بل أن أكبر سر في الوجود كامن فيها، وأعظم تحدي للعالمين موجود في شخصها العظيم الذي لا تحيط له العقول، ولا تعبر عنه الكلمات، بل يكفي أنها فاطمة فطم الخلق عن معرفتها، فلا يعرفها أحد إلا الله وأبوها وبعلمها وبنوها، وهذه حقيقة ليس عليها غبار ولا غبش، وليس فيها لبس ولا غموض.

وهي بعد ذلك مضيئة في قلوب الأحرار المخلصين، الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن فاطمة وحقها الذي أضاعه الظلمة وأعوان الظلمة، والفجرة وأعوان الفجرة، والكفرة وأعوان الكفرة، وإلى الله المشتكى، وعليه المعول في الشدة والرخاء، والسراء وفي الضراء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي القرآن الكريم تقديم رائع للمرأة ودورها في الحياة فهذه مريم البتول عليها السلام التي نادتها الملائكة وهي تصلي في المحراب: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١﴾.

على نفس هذا النداء كانت الملائكة تتادي الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام..

يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين،
يا فاطمة اقنطي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين..

(١) آل عمران / ٤٢-٤٣.

وقد قال المصطفى مفسراً هذا كله أن فاطمة هي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، في حين أن مريم بنت عمران عليها السلام كانت سيدة نساء العالمين في زمانها، وليس في زمان بعدها، ففاطمة الزهراء عليها السلام - كما روت كتب الحديث - سيدة نساء أهل الجنة ومريم إحدى نساء أهل الجنة وعلى هذا التفسير، تكون فاطمة عليها السلام سيدة لمريم عليها السلام.

يدل على ذلك أن مريم حضرت مع النسوة اللواتي حضرت عند ولادتها فكانت مريم عليها السلام قابلة لفاطمة الزهراء عليها السلام، كما أن عيسى بن مريم سيصلي خلف الإمام المهدي، الذي هو ابن فاطمة عليها السلام، وهذه الحقائق تأخذ بأعناقنا إلى أن فاطمة عليها السلام هي الأفضل، وهي الأطهر وهي الأكثر قرباً إلى الله عزوجل من بقية نساء العالمين كما هو واضح وصريح..

وما يقال في مريم يقال في آسيا بنت مزاحم التي ضرب الله تعالى بها مثلاً للعالمين لأنها رفضت الدنيا وزخرفها، وطلبت جوار ربها من أجل إعلان كلمة الحق، حتى قدمت نفسها في مشهد تقشعر له القلوب والأبدان، يوم طرحها بعلمها اللعين فرعون، إذ كانت آسية زوجة لفرعون اللعين، ولما لم تخضع لكفره وإرادته وأعلنت أنها آمنت بالله رب العالمين، والتحقت بركاب موسى بن عمران والأنبياء والرسل، وسألت الله عزوجل أن يني لها بيتاً عنده في الجنة وقدمت العندية على البيت إذ قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

(١) التحريم/ ١١.

وهذا هو الواقع، فقد سألت ربها ذلك في دعاء وخشوع ودموع، فاستجاب لها ربها وأعطاهما كل ما سألت حتى جعلها مثلاً يُقتدى به في التضحية والفداء من أجل الحق، وخصوصاً عندما يعرف المرء الحق، ويستعد للتضحية من أجله..

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

على أننا نعرف أن هناك رجلاً مؤمناً من آل فرعون، كان يكتُم إيمانه، وقد أنزل الله فيه سورة في كتابه العزيز، ولكنه لم يجعل منه مثلاً للناس وإنما جعل المثل الأعلى حسب ذلك الزمان امرأة، هي زوجة فرعون لأنها صرخت وأعلنت ورفضت حكم الطاغوت.

في حين أن زوجات الأنبياء ضلّلن الطريق فسقطن في وادٍ سحيق من الكفر والعار، والنفاق، فضرب الله باثنتين منهن مثلاً للذين كفروا، ويا للمفارقة أن تكون زوجة فرعون مثلاً للإيمان وللهدى وللمؤمنين، وتكون زوجة نبي مثلاً للعار والهزيمة والكفر والنفاق.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن زوجات الأنبياء لسن كلهن على مستوى من الإيمان، بحيث لا يصل إليهن التقريع والعتاب والسقوط في حمأة الخطايا والمعاصي والذنوب، فهذه زوجة لوط وتلك زوجة نوح عليهما السلام وهما نبيان، واحد من أولي العزم، والآخر كان معاصراً لأولي العزم من الأنبياء مثل إبراهيم الخليل الذي يكون لوط ابن خالته، يضرب الحق سبحانه بهما مثلاً ومثلاً للذين كفروا.

(١) التحريم/١١.



وذلك أن هاتين المرأتين كانتا قد خانتا الله والأنبياء..

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾^(١)..

على أن هذه الآيات وردت في سورة التحريم، وهي السورة التي تبين انحراف بعض نساء وبالتحديد انحراف اثنتين منهما بصريح القرآن الكريم إذ يقول: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(٢).

.. وصغت أي مالت عن الحق، كما هو معروف من أمرهما بالتوبة، لأن التوبة إنما تقع بعد حدوث الذنب وممارسة الخطيئة خصوصاً في أجواء سورة التحريم التي تبدأ بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾^(٣).

وهذا يعني أن مرضات أزواج النبي لا قيمة لها ولا وزن في هذا المجال، طبعاً باستثناء خديجة الكبرى أم المؤمنين عليها السلام، لأنها ماتت قبل نزول هذه الآيات والسور في القرآن الكريم، أضف الى ذلك أن لخديجة منزلة كبرى تختلف عن كل نساء النبي، إذ أنها كانت صديقة وعظيمة وموفقة، فقد صدقت برسالة ربها وكتبه، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناصرة والمدافعة والباذلة نفسها، وما تملك من شيء في سبيل الحق والصدق والعدل، وكانت الروح الطيبة التي يحن النبي للقائها إذا

(١) التحريم / ١٠.

(٢) التحريم / ٤.

(٣) التحريم / ١.

غاب عنها، ولو لوقت قصير جداً، وسيأتي الكلام عن هذه المرأة العظيمة خديجة والكبرى أم المؤمنين عليها السلام في موضعه في هذا الكتاب عند باب ولادة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها إنشاء الله تعالى.

وإنما فقط أردت أن أذكر وأبين لكم أيها الأحبة أن خديجة هي غير أزواج النبي، وليست كأحد من النساء اللواتي كن في ذمة النبي ﷺ، وعلى أنها كانت عذراء لم تتزوج قبل النبي بأحد قط، وكانت في سن الثامنة والعشرين من العمر يوم زواجها من رسول الله ﷺ.

على أن ما يشاع ويذكر من أنها تزوجت باثنين من رجال قريش قبل النبي، فهو محض اختلاق وكذب وافتراء، وكل من يلقي نظرة عميقة على تاريخ هذه المرأة التي كانت تلقب بملكة الحجاز، يدرك أنها لم تتزوج قبل النبي بالجزم والقطع والتأكيد، وإنما كانت فتاة عذراء لم تجد كفواً لها من الرجال إلا الحبيب المصطفى محمد ﷺ.

يضاف الى ذلك أنها كانت محفوظة لتكون أمّاً لفاطمة عليها السلام.. فاطمة وما أدراك ما فاطمة؟

التي جعلها الله عنده في الجنة، ولم ينزلها في أصلاب الأنبياء، أو قل: لم يخرجها من أصلاب الأنبياء، وإنما أراد أن يخرجها من صلب أبيها رسول الله ﷺ، كما صرح بذلك النبي نفسه ﷺ، حيث قال في حديث معروف: (لما أخرجني الله من صلب آدم، أحب أن يخرج فاطمة من صلبي..).

وهذه ملاحظة تجدر الإشارة إليها وسأذكرها إنشاء الله عند ذكر الحديث المشار إليه هنا بشيء من التفصيل والتفسير أكثر، بحيث يعطي الحديث بعض حقه من المعرفة والتوضيح والبيان.

أقول: إذا كانت فاطمة الزهراء عليها السلام بهذه المنزلة الكبرى عند الله عزوجل، بحيث لم تستطع أصلاب الأنبياء من احتمال نورها، على أن إثبات الشيء لا ينفي ما عداها، فلا يقولن قائل: كيف احتملت أصلاب الأنبياء نور أبيها النبي ؟؟

أقول: لقد وردت الإجابة على هذا السؤال في حديث النبي الذي سبق ذكره في هذه المقالة، على أن لفاطمة خصائص تتفرد بها عن أبيها النبي، وهذا غير الفضائل فلا يعني أن مقامها أعظم من مقام أبيها أبداً، لم يقل أحد بذلك، لأن القول بهذا يعني عدم المعرفة بمقام المصطفى، وهو خروج عن دائرة الحقيقة، وإنما نقول: إن لكل واحد من أصحاب الكساء الخمسة خصائص تختلف عن خصائص الآخر، مع العلم بأن هناك خصائص مشتركة تجمعهم كلهم جميعاً، وهذا حق لا يتطرق الباطل إليه، وصدق لا يشوبه الكذب، ويقين لا شك فيه أبداً، وقد ضرب النبي الأكرم ﷺ، مثلاً لذلك بالإمام الحسين عليه السلام، وكان ذلك في المسجد النبوي الشريف، وكان رسول الله ﷺ على المنبر، حين وقع بصره على الحسين يدخل المسجد، وقد تعثر بذيل ثوبه ووقع على الأرض، فلم يملك الرسول أن قطع كلامه ونزل إلى الحسين، فاحتمله على صدره وقد فاضت عيناه بالدموع لرؤية ولده الحسين عليه السلام، ثم قال كلمته المشهورة: (حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط..) ثم قال: (.. إن للحسين خصائص ليست لأحد من الخلق، حتى ولا لي أنا..) «إنما أنقل لكم مضمون الحديث لا نص الحديث، لأن نص الحديث مذكور ومثبت في موضعه من هذا الكتاب، أما هنا فقد أردت الإشارة إلى هذه الحقيقة التي

تركها النبي الكريم تلمع في قلوب الأحرار، كما تلمع الشمس المضيئة في الآفاق...»

فأثار كلام النبي الدهشة في الوجوه، إذ كيف يكون للحسين خصائص ينفرد بها عن البشر حتى عن سيد البشر الرسول المصطفى، فراح النبي يوضح هذه الحقائق بقوله: (إن للحسين خصائص وفضائل ينفرد بها عن الناس كافة حتى عني أنا رسول الله، إذ أمن المشاركة فيها، وحين سألوه عن كيفية ذلك أجابهم، بأبلغ جواب قائلًا لهم: انظروا: إن للحسين أمًّا مثل فاطمة وأنا أمي ليست مثل فاطمة...، وهنا استولى وجوم عميق على الناس، ولاحت لهم الحقيقة مثل مطلع الشمس، فالكل يعرف أن آمنة أم النبي لم تصل إلى مقام فاطمة، ففاطمة سيدة نساء العالمين، وآمنة هي واحدة من نساء العالمين، ففاطمة سيدتها وهذه حقيقة أظهرها النبي للعالم بقوله (إن للحسين أمًّا مثل فاطمة، وأنا أمي ليست مثل فاطمة).

ثم أضاف قائلًا: (وإن للحسين أبا أو والدًا مثل علي، وأنا والدي ليس مثل علي) فأبو النبي عبدالله لم يصل إلى مرتبة علي بن أبي طالب، ولا يبلغ درجته وأنّى له بهذا والإمام علي هو نفس النبي بنص القرآن، وهو الإمام الذي أحصى الله فيه كل شيء يقول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

والإمام المبين هو الإمام علي عليه السلام، لأن كلمة الإمام تتصرف إلى أنه رجل، وليس كتاباً، كما هو معروف لدى من له قلب أو ألقى السمع وهو

(١) يس/ ١٢.

شهيد، فأين منزلة عبدالله من منزلة الإمام علي، والذي هو من النبي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعد النبي لأنه خاتم الأنبياء، ثم يواصل النبي تعريفه بالحسين عليه السلام، فيقول: (وإن للحسين جداً كرسول الله، وأنا جدي ليس كرسول الله). وهنا عرف الناس هذه الحقيقة ففاضت أعين العارفين بالدموع.. (وترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق.. الخ).

إلى هنا أكون قد بينت لكم بعض خصائص الزهراء عليها السلام من خلال هذا المثل الذي ضربه النبي للناس بشخصية الإمام الحسين صلوات الله عليهم أجمعين، فكما بالحسين.. كذلك بفاطمة عليها السلام، حيث لم يتمكن الأنبياء من حمل واحتمال نورها، لأن له خصوصية ليست لنور أحد من البشر.

على أن النتيجة التي أصل إليها من خلال هذه المقدمة هي: كيف يقبل المنطق أن تكون خديجة تزوجت برجلين قبل زواجها من النبي، أي تزوجت مرتين من مشركين مع العلم، أن بطن خديجة عليها السلام جعلها الله وعاءاً لفاطمة عليها السلام، فهل يمكن أن يكون هذا الوعاء الخاص بفاطمة يدخل فيه رجلان من المشركين النجس!!

إن هذا لا يقبله العقل ويرفضه المنطق، لأن الله الذي حفظ نور فاطمة عنده في سدره المنتهى، ولم يجعلها حتى في أصلاب الأنبياء كما مرّ علينا، بل جعله من صلب أبيها، فكيف يأذن الله للوعاء الذي ستحل فيه فاطمة وينزل فيه نورها، أو قل: كيف يسمح الحق أن يدخل ماء من المشركين نجس في المكان الذي ستنمو فيه الطاهرة المطهرة والحوراء الإنسية؟

وهذا لا يمكن أن يكون وإني لعلّى يقين من أن الذين يذكرون زواج خديجة برجلين قبل زواجها بالنبي، لا يعرفون حقيقة فاطمة، وليس لديهم علم بهذه القضية حتى!!

ولو كانوا من علمائنا أمثال المفيد والمجلسي!!

ثم إنني لاحظت أن العلماء الذين يذكرون زواج خديجة قبل النبي، يعودون للقول بأنها أي خديجة كانت عذراء يوم دخل بها رسول الله ﷺ..
والآن نترك الحديث عن خديجة وإلى مكان آخر..

وتجدر الإشارة إلى أن زينب ورقية وأم كلثوم، هؤلاء البنات لسن بنات خديجة أبداً، وإنما هن بنات هالة أخت خديجة التي رحلت إلى ربها قبل ذلك بوقت غير قصير، وتركت بناتها عند أختها خديجة، وحين تزوج النبي بخديجة عليها السلام ربي هؤلاء البنات، وصار يعاملهن كرياتب وكأنهن بناته، ويدل على ذلك أشياء وأمور كثيرة منها:

أن أول أبناء خديجة هو القاسم ثم الطاهر، وهكذا إلى ثلاثة أولاد جاؤوا قبل البنات كما هو في التاريخ، ثم الذين يزعمون أن البنات المذكورات بنات خديجة يؤكدون ولادتهن بعد الصبيان الثلاثة، وهذا يعني أن طرح خمس سنوات على أقل تقدير لولادة الصبيان الثلاثة، فيكون قد تمت ولادتهم قبل البعثة بعشر سنوات.

وعلى هذا الأساس يكون مولد البنات الثلاث اللواتي تزوجن من رجال مشركين قبل زواجهن بعثمان قد تم خلال عشر سنوات!!

فبالله عليكم في عشر سنوات، كم يكون عمر كل واحدة منهن يوم

المبعث؟؟



وكم يكون عمر كل واحدة منهن يوم تزوجن قبل المبعث؟؟
إنه بين الخامسة والسابعة من العمر، وهل تستطيع بنت أن تتزوج
في سن كهذه؟؟!!

على أننا نتحدث مجرد افتراض أن يكون الأمر كذلك، وإلا فالتاريخ
يضرب بعضه بعضاً، كل ذلك من أجل إثبات تزويج عثمان من اثنتين
منهن، وهما رقية وأم كلثوم، وإذا كان الأمر هكذا..

فمتى تم زواج رقية من عثمان وهي في السنة الثانية من البعثة،
هاجرت الى الحبشة وكانت حاملاً فأسقطت علقه في السفينة؟؟
يا للتناقض!!

إذ كيف تكون رقية بنتاً للنبي، وهي حامل في السنة الثانية من
المبعث؟؟!!

وهذا يعني أنه تزوجها قبل البعثة أو حتى في نفس السنة التي نزل
فيها الوحي على رسول الله ﷺ!!

وهذا الواقع يؤكد أن البنات لسن بنات النبي لأنه لو كن بنات النبي،
لما زوجهن من رجال مشركين من أبناء أبي لهب!!

هذا على فرض إنهن من خديجة، وكيف يكون ذلك كذلك والتاريخ
الصحيح يبين لنا أن أول أبناء النبي من خديجة، هو القاسم وقد ولد
في أول سنة البعثة النبوية الشريفة كما يقول أهل البيت، ويؤكد ذلك
الإمام زين العابدين عليه السلام، أن أولاد النبي كلهم ولدوا في الإسلام، أي
بعد المبعث النبوي الشريف.



على أنه من المؤكد والثابت الذي لا ريب فيه هو مولد السيدة البتول الطاهرة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها بعد المبعث بخمس سنوات، وهذا هو التاريخ الصحيح، فإذا كان القاسم وهو أول أبناء النبي ﷺ، قد ولد في أول سنة المبعث ومات في السنة الثانية، قبل أن يتم الرضاعة، لأن النبي قال لأمه خديجة: (يا خديجة إن له مرضعاً في الجنة، وإن شئت أسمعك صوته في الجنة).

ومن أجواء هذا الخبر يظهر أن خديجة كانت تسمع صوت القاسم من خمائل الجنة وأنهارها، لأن الرسول قال لها ذلك، وهي لم ترفضه، وإنما قبلت أو على أقل تقدير سكنت، وسكوتها معناه الموافقة على الاستماع لصوت القاسم، هذا على أن مجرد إلقاء نظرة واحدة على تاريخ بنات النبي ﷺ، يريك التناقضات المدهشة في هذا التاريخ، ومنها على سبيل المثال: أن التاريخ يذكر دخول أبي هريرة على رقية بنت النبي - بزعمهم - زوجة عثمان بن عفان، فيسأل عن زوجها عثمان وطريقة معاشرته لها، فتجيبه بالجواب المليء بالإعجاب لعثمان وتثني عليه في كلامها، فيقول لها أبو هريرة: بارك الله لك في زوجك عثمان!!

والحقيقة أن رقية ماتت في العام الثاني للهجرة، وأبو هريرة دخل الإسلام في العام السابع للهجرة، أي بعد وفاة رقية بخمس سنوات، فكيف رآها ودخل عليها يسألها عن طريقة حياتها مع بعلها؟؟

ما هذا الافتراء والكذب؟؟!!

وهل أحد من هؤلاء الكتاب يسأل نفسه يوماً ويقول: هذه كتب



التاريخ بين أيدينا يضرب بعضها بالبعض الآخر، في موج كالجبال من التناقضات، فهذا أبو هريرة يدخل على رقية!!

والتاريخ يبين وفاة رقية وتاريخ دخول الدوسي في الإسلام وبينهما خمس سنوات من الوقت، فكيف حدث هذا وكيف صار ذلك كذلك؟؟
ولكنه اللؤم والعمى، فقط يريدون أن يؤكدوا أن عثمان تزوج باثنتين من بنات النبي في مقابل علي الذي تزوج بفاطمة عليها السلام.

والخلاصة:

أن التاريخ لا يستطيع أن يثبت أن للنبي بنات غير فاطمة الزهراء، وهذه حقيقة ليس عليها غبار، وقد أشارت الزهراء عليها السلام إليها في خطبتها العظيمة والتي تقول فيها: (اعلموا أني فاطمة، وأبي محمد عليه السلام، أقول حقاً عوداً ويدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً).

إلى أن تقول: فإن تعزوه وتعرفوه - أي الرسول - تجدوه أبي دون نساءكم وأخا ابن عمي دون رجالكم).

وهذا نص واضح وصريح، «تجدوه أبي دون نساءكم»، فليس له بنت غير فاطمة، ثم أعطت قرينة أخرى لترسيخ هذا المعنى في الأذهان، حيث قالت:

«وأخا ابن عمي دون رجالكم»، أي كما أن له أخاً واحداً، وهو علي بن أبي طالب، حيث جرت المؤاخاة في المدينة، وحتى في الواقع فهو أخوه، لأنهما من نور واحد، وجدهما واحد وهو عبدالمطلب، وجدتهما فاطمة الخزامية هي الأخرى تشد بين النبي والوصي..



إذاً: فليس هناك بنت أخرى للنبي غير فاطمة، كما أنه ليس له أخ غير علي بن أبي طالب..

على أن هذه الحقائق أظهرتها الزهراء في خطابها العظيم الذي هز القلوب والعرش وعالم الملكوت كما هو واضح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

والحصيلة التي خرجنا بها من كل ما تقدم:

أن ليس للنبي بنت سوى فاطمة، وأن رقية وأم كلثوم وزينب لسن بنات النبي ولا حتى ربائبه، لأن الربيبة هي بنت المرأة التي تزوجها رجل بعد زواجها من رجل غيره، وخديجة لم تكن متزوجة قبل النبي ﷺ، وإنما هي كانت عذراء لم تعرف الرجال قبل الرسول.

ومرة أخرى ننطلق معكم من ذات الموضوع الذي انطلقنا منه في رحلة العلم هذه، وهو موضوع المرأة وشؤون الأسرة وقضايا النساء، حيث أثبتنا بالقطع والجزم واليقين أن القرآن قدم نموذجاً للمرأة الصالحة، ليس له مثل ولا نظير.

فهذه بلقيس ملكة سبأ، انظروا إليها كيف يقدمها القرآن على أنها لبية جزلة تقود شعبها وأمتها إلى الخير والفلاح، وهذا إن دل على شيء، فإنه إنما يدل على ضعف الأحاديث التي تصف المرأة بأنها ضعيفة وناقصة في إيمانها ودينها وعقيدتها، ولكي تجيء الفكرة واضحة عندكم أسوق لكم بعض الشواهد، ضارباً لكم من كل شاهد مثلاً على ذلك..

وأول الشواهد الحديث الذي مفاده نفي الفلاح عن القوم الذين



يولون أمرهم امرأة، وهو حديث إذا صح التعبير عنه، لا يخص كل النساء وإنما هو في امرأة خاصة، وهي ابنة كسرى ملك الفرس وملخصه أنه حين مات كسرى، وولوا عليهم ابنته، فلما سمع النبي بذلك، قال: (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة).

وهذا - كما قلت - إذ صحَّ فإنه يشير إلى بني فارس في بلاد الفرس، لأنه كانوا في حالة حرب ضد الإسلام، فسواء عليهم ولوا أمرهم امرأة أم لا، فإنه لا محالة لهم من السقوط في عدم الفلاح لأن الفلاح للإسلام والإيمان.

هذا على أحسن تقدير للحديث المذكور، يدل عليه أن بلقيس ملكة سبأ قد أفلح قومها بها، لأنها قادتهم إلى الفلاح والصلاح والإسلام مع نبي من أنبياء الله العظام، وهو سليمان بن داود على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، فكيف يقال بعد ذلك، أنه ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة؟؟

هذا بالاضافة إلى أن الزهراء فاطمة عليها الصلاة والسلام هي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، فهل تكون الزهراء سيدة نساء على عالم ليس فيه فلاح ولا نجاح؟؟

لا أظن أحداً من العقلاء يرضى بذلك، بل هي سيدة نساء العالمين لأن المرأة مثلها مثل الرجل، في كل الواجبات والحقوق إلا ما خرج بالدليل والاستثناء، الذي يؤكد القاعدة علماً أن الوظيفة التي تختلف بين المرأة والرجل، إنما هي تؤكد مشوار الحقوق العظيم للرجال والنساء على حد سواء...



ومن تلکم الأشياء والأمور أن الله عزوجل جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنکر، فريضة في أعناق الرجال والنساء كما هو واضح وصريح، ومقدمة الواجب واجبة، فلا بد لمن يريد أن ينهض ويقوم بالمهمة، أن يعرف المعروف والمنکر، وهذا علم وفقه ولغة وتفسير، وآداب وتأويل وانطلاقة في مدرسة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وهو واجب على المرأة والرجل، وهو يستدعي دخول المرأة في مدرسة الفقه واللغة والتفسير والآداب، كما يقتضي أن تفرغ المرأة نفسها لهذا العمل، وطلب العلم والفقه على أن لا يؤثر ذلك على حياتها في الأسرة والبيت والمجتمع، فلا بد لها إذا أرادت أن تقوم بهذا الواجب، أن تجعل أوقاتها من الليل والنهار بذكر الفقه والتفقه والعلم معمورة، وبالدراصة والدربة على طريقة الإلقاء وأصول الخطابة موصولة، أي أنها يجب عليها أن توصل الليل بالنهار والحر بالبرد والصحة بالسقم.

طبعاً حسب قدرتها فإن الله لا يحملها فوق طاقتها ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولهذا الحديث متسع ومستساغ من الوقت والمكان، ليس هذا موضعه، وإنما سيأتي تمام هذا الحديث في محله من هذا الكتاب انشاء الله تعالى فنتركه إلى ذلك الموضع.

إذن: فقد أثبت القرآن الكريم أن للمرأة دوراً عظيماً، يجب عليها أن تقوم بهذا الدور، وأن لا تنسى أن لها رسالة في الحياة هي غير الرسالة المألوفة، ورسالتها أن تكون أمّاً في الإيمان والعقيدة والآداب لرفع قواعد المجتمع الثقافية والعلمية والاقتصادية، قبل أن تكون أمّاً في بيتها وأسررتها.

على أن الأم أو الأمومة في الأسرة لا تقل أهميته عن ذلك

فالمعروف، أن رسالة المرأة الأم أو البنت أو الزوجة، أو الأخت هي رسالة الأنبياء جميعاً.

وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام الى هذه الحقيقة في يوم عاشوراء عندما قال: (ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة وهيئات منا الذلة، يأبى لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وظهرت وأنوف حمية، ونفوس أبية، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر، ثم قال: فإن نهزم فهزامون قدماً، وإن نهزم فغير مهزمينا، وما إن طبنا جبن ولكن مناينا ودولة آخرينا، فقل للشامتين بنا أفيقوا، سيلقى الشامتون كما لقينا).

وموضع الشاهد هنا هو قوله: (وحجور طابت وظهرت)، أي أن الأمهات الطاهرات الطيبات يابن أن نذل ونخزي وأن للمرأة دوراً تربوياً عظيماً يأخذ بيد العزة والكرامة ويرفعها الى أعلى عليين، وكفى بذلك فخراً وعزاً للمرأة في ظل الإسلام أن تكون بهذا المستوى الرفيع من التكريم والتعظيم.

إذاً: فخرج الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، إلى المسجد لإلقاء خطابها التاريخ العظيم الذي لم يسبق له مثيل في الإسلام، بل هو أول خطاب في الإسلام لسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، وحتى تتضح الأمور أكثر أمامنا، تبدو الصورة واضحة عندنا، فلا بد من أن نمشي في ظل نور هذا الخطاب نتأمله كلمة.. كلمة، وجملة.. جملة، لأنه خطاب يموج كالبحر بالمعاني والأفكار والعلوم والمعرفة.

فقد تناولت الزهراء عليها السلام في هذا الخطاب كل أركان الإسلام، وأوضحت بشكل لا لبس فيه، ولا ريب أن ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام والقرآن والإيمان، وهي التي يزن الله بها أعمال العباد، فما أفلحت أمة وقفت ضد علي ورفضت ولايته.

بخلاف الأمة التي تقف معه وتأخذ بولايته وترضاه إماماً لها فإنها أمة ناجحة مفلحة منتصرة يهابها الأقربون والأبعدون، وقد ضربت الزهراء الأمثال للناس في خطابها هذا فما وجدت فيهم ناصراً ولا معيناً، خرجت كاظمة وعادت راغمة قد غضت المهاجرة طرفها، والجماعة نصرها فلا دافع ولا شافع ولا مانع ولا شاهد حق أبداً، فيا لها من أمة نقضت عهود النبي، والنبي لما يقبر، والجرح لما يندمل، كل ذلك إنما وقع زعماً منهم إنهم يخافون الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين.

افتتاح الخطاب

لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فذكاً وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله ﷺ، حتى دخلت على أبي بكر، وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست ثم أنت أنه أجهدش القوم لها بالبكاء، فارتج المجلس ثم أمهلت هنيئة، حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام: وأول ما يقابلنا في هذا النص خمس ملاحظات لا بد من إظهارها وتبسيط الضوء عليها لتعميم المنافع والرشاد، وهي على الشكل التالي:

أولاً: لون الصراع الذي وقع في هذه القضية بين الزهراء العظيمة وأبي بكر وعمر.

ثانياً: لون الطريقة التي خرجت بها للمطالبة بهذا الحق العظيم.

ثالثاً: اصطحابها ثلة من حفدتها ونساء قومها، أي أن هناك معها بنات شبيهة الحمد وعبدالمطلب مثل صفية وعاتكة وأم هاني بنت أبي طالب، وبعض أزواج النبي ﷺ.

رابعاً: شدة الحجاب الذي ضربته على نفسها من لحظة خروجها من البيت إلى حين عودتها إليه.

خامساً: الطريقة الحزينة التي افتتحت بها خطابها العظيم والتي أدت الى تفجير المجلس بالبكاء والحزن والدموع، بحيث وصل البكاء الى درجة أن أجهش القوم لها بالبكاء، والإجهاش والجهش إنما يحصل عند حلول الفاجعة العظمى والرزية الكبرى التي يسقط الكل تحت تأثيرها، ويتفاعل الجميع معها، دون استشفاء لأنها قوية كالقدر، صادقة كالوحي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهذا هو الذي أريد أن أشير إليه في هذه العجالة السريعة هنا لأننا لا زلنا في ملاحظات افتتاح الخطاب، وبعد لم ندخل في رحاب الفكر الفاطمي، وإنما نحن نهى أنفسنا ونستجمع أنفاسنا لسماع صوت الزهراء الحزين، الذي ما سمعه أحد من العالمين إلا أقرح قلبه، وأسال دمعته، فلا يملك أحد أمام الزهراء إلا أن يصغي لها في خشوع، لأنها هي الكتاب الناطق وهي ليلة القدر، وهي الكوثر الذي لا ينقطع عطاؤه أبداً.

إذاً: فلنذهب في إثارة عقولنا لتتفقه في الدين من خلال هذا الخطاب الفاطمي العظيم، ونبدأ بالملاحظات الخمس هذه في روية ودراية وحكمة، لنتبين لون الصراع الذي ظهر في خطاب فاطمة عليها السلام.

أولاً: لون الصراع الذي لا يخلو من ثلاثة أوجه، صراع بين حق وحق، وهذا لا يمكن أن يقع لأن الحق لا يتعدد وماذا بعد الحق إلا الضلال..

الوجه الثاني أن يكون صراع بين باطل وباطل وهذا منفي بالشكل والتفصيل لوجود فاطمة الزهراء عليها السلام التي هي الحق بعينه، وهي الكلمة التامة التي جعلها الله في هذا العالم وهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي فاطمة التي يغضب الله لغضبها ويرضى

الله لرضاها، فلا يمكن أن يكون الصراع على الوجه الثاني هذا لأن فاطمة هي بضعة النبي وروحه ومهجة قلبه، فلم يبق أمامنا سوى اللون الثالث.

والوجه الثالث وهو الصراع بين الحق والباطل، وفاطمة هي الحق، إذ لا يستطيع أحد أن يصفها بغير الحق، وإلا فإنه يخرج من الدين والإيمان والعقيدة، بل تبرء منه ذمة الإسلام لأن القرآن يقدمها على أنها طاهرة مطهرة معصومة، والله عزوجل يشهد لها بالعصمة، والصدق والطهر والعدل، فلا يستطيع أحد أن يشكك في هذا الواقع وهذه الحقيقة، وهي واضحة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

ثم الدنيا كلها تعلم أن فاطمة ماتت وهي غاضبة وواجدة على أبي بكر وعمر، كما هو مدون ومذكور في صحيح البخاري ومسلم وكتب الحديث والتاريخ وروايات أهل البيت عليهم السلام، تؤكد أن فاطمة ماتت وهي غاضبة على أبي بكر وعمر وأوصت علياً عليه السلام أن يدفنها في الليل إذا هدأت الأصوات ونامت العيون.

إذن: فهي غاضبة على أبي بكر وعمر، على أن العامة تذكر حديثاً يقول: (إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها).

والحديث هذا أخرجه الذهبي في ميزان الاعتدال والبخاري في صحيحه، وهو حديث ليس فيه ضعف ولا شك ولا حتى غبرة واحدة من الريب في صحته.

أقول: هذا لأن كتب الحديث كافة تشير إليه من قريب وبعيد، وهذا معناه واضح.. الله عزوجل يغضب لغضب فاطمة عليها السلام، فإذا ماتت وهي غاضبة على أقوام ومنهم أبو بكر وعمر، فالنتيجة واضحة لا يغفل عنها إلا كل أعمى القلب، مريض النفس، سقيم الروح، وفي عملية حسابية سريعة، تظهر النتيجة خصوصاً إذا عرضناها على القرآن الذي يبين أن الذي يحلل عليه غضب الله يهوي في أعماق الغضب والعذاب: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ..﴾^(١).

وهي آية في سورة طه، ولكن كما قال الحق: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢).

إن الله تعالى جعل غضب فاطمة دليلاً على غضبه، ورضاها دليلاً على رضاه، فلا يرضى على أحد حتى ترضى عليه فاطمة كما هو واضح وصريح جداً في هذا الحديث النبوي الشريف، أضف إلى ذلك إننا إذا عرقنا أن المؤمن إنما يغضب لغضب الله ويرضى لرضا الله، فإننا ندرك كم هي منزلة الزهراء عظيمة عند الله عزوجل، لأنه عزوجل جعلها ميزاناً لغضبه، ورضاه وفي هذا المجال واسع للتدبر والتفكر، كما أن فيه آفاقاً واسعة للمعرفة بسيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، فطوبى لمن رضيت عنه فاطمة، والويل لمن غضبت عليه فاطمة، وفي قراءة سورة الفاتحة كنز من العلم والفقه والمعرفة خصوصاً في تأمل قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

(١) طه / ٨١.

(٢) الحج / ٤٦.

إذن: فحين تغضب فاطمة تغضب السموات والأرض ومن فيهن مما يرى ومما لا يرى، بل يغضب لغضبها الأنبياء والرسل والملائكة وعالم الملكوت كله، ثم أئمة الحق يغضبون لغضب فاطمة لأن الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها، وهذا يدل على أنها معصومة لا تخطئ أبداً، فهي طاهرة مطهرة وراضية مرضية، وهي الزهراء التي أضاءت السموات والعرش بنورها، فطوبى لمن عرف قدرها، وأعطاه ولو بعض حقها، إذ ليس في إمكان أحد أن يعرفها حق معرفتها إلا أن يكون مؤمناً امتحن الله قلبه للثبوت، فإذا عرفها مثل هذا الإنسان فقد أدرك ليلة القدر لأنها هي ليلة القدر، وسيأتي الكلام في هذا الباب في موضعه اللائق به في هذا الكتاب انشاء الله تعالى.

ثانياً: الطريقة التي خرجت بها لإلقاء خطابها العظيم، فقد كانت نابعة من أعماق الحق والصدق والعدل، أنها اختارت الطريق العام للذهاب للمسجد، وخرجت في مظاهرة من النساء اللواتي قررن نصر فاطمة في الوقت الذي سكت فيه الرجال ولاذوا بالصمت، فخذلوها ولم ينصروها، حتى خرجت كاظمة وعادت راغمة.

على أننا يمكن أن نذكر عدة نقاط في هذه الملاحظة وهي:

١ - أرادت فاطمة أن تحدث هزة في نفوس هؤلاء القوم لاستنهاض آخر ذرة من الإنسانية في قلوبهم فما رأت منهم من مجيب، ولعل الإصغاء والاستماع إلى بعض كلماتها التي وردت في هذا المضمار، توحى لنا صوراً فكرية وحقائق علمية، يمكن الاستفادة منها في كشف الطريق ورؤية الحق والواقع.

وتعالوا معي لنسمعها وهي تخطب ونصغي إليها وهي تقول موجهة

خطابها الى القوم، وهم السادة والذادة والوجوه والأعيان والزعماء على حد زعمهم، أو كما يراهم الناظر، وقد وصفتهم الزهراء ببعض هذه الأوصاف في خطابها هذا، ثم أنحت عليهم باللائمة:

(.. ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت: أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغائه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم:

كتاب الله الناطق والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، تجلية ظواهره، مفتبطة به أشياعه، قائداً إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المخدرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة..).

إلى هنا بينت عليها السلام هذه الحقائق عن القرآن الكريم، على أنها أشارت إلى حديث الثقلين بقولها **الطهارة**: (وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق..).

وهذا هو حديث الثقلين الذي يقول فيه المصطفى **صلى الله عليه وآله**: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وترتي أهل بيتي..).

وتأملوا جيداً في قولها:

(كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق)..

فالكتاب هنا يشير إلى العترة الطاهرة لأنهم هم كتاب الله الناطق،

كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (.. أنا كتاب الله الناطق، والقرآن كتابه الصامت..).

الزهراء هنا أشارت الى هذه الحقيقة في قولها: (كتاب الله الناطق والقرآن الصادق..).

ثم راحت تواصل خطابها عليها السلام وتتناول فيه أهم أركان الإسلام، وكل الشرائع التي تنطوي تحتها شرايع أخرى حتى قالت في عودة لها الى هؤلاء الذين يستمعون خطابها، قالت:

(أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد عليهما السلام، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، فلنعم المعزي إليه، فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارياً ثبجهم.. الخ).

ثم توجه خطابها الى القوم كافة، فتقول: يا معشر النقيبة وأعضاء الملة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميلة في حقي والسنة عن ظلامتي (أي لماذا أنتم نائمون عن ظلمي، أما أن لكم أن تستيقظوا من نومكم هذا وسباتكم البغيض) حتى تتصروا الحق ولا تفرطوا في جنب الله، لأن التفريط في حقي هو تفريط في جنب الله، ينتهي الوقوع في أهوال الدنيا وخزيها وعذاب الآخرة وبؤسها.

ثم قالت تخاطب الأنصار:

إيها بني قيلة، أ هضم تراث أبي، وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنتدى ومجمع؟؟

تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة ٩٩

وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلام والجنة،
توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون..!!

وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح..!!

والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت..!!

قاتلتهم العرب وتحملتكم الكد والتعب وناطحتهم الأمم..

وكافحتكم البهم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون.. حتى إذا
دارت بنا رحى الاسلام ودرّ حلب الأيام.. وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت
فورة الإفك.. وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج.. واستوسق نظام
الدين، فأنى حزتم بعد البيان..

وأسررتهم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان!!
فبؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهمّوا بإخراج الرسول،
وهم بدأوكم أول مرة، أتخشونهم!!؟

فأله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين... الخ!!

وسيأتي الكلام عن هذا الخطاب في تفسير وتفقه وتأويل وآداب في
محله من هذا الكتاب انشاء الله.

وإنما فقط أردت أن أبين لكم أيها الأحبة التطابق بين القرآن وكلام
فاطمة عليها السلام في الانقلاب الذي وقع بعد رحيل المصطفى صلى الله عليه وآله، فالقرآن
يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ

عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾.

هذا القرآن.. أما الزهراء عليها السلام فإنها قالت: (.. فأني حزتم
بعد البيان، وأسرتكم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد
الإيمان، فبؤساً لقوم نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم، وهموا بإخراج
الرسول.. الخ).

على أن هذا التطابق الشديد بين القرآن وخطاب فاطمة، يدل على
خذلان الناس لفاطمة وعدم نصرهم لها، حتى أن أم سلمة رضوان الله
عليها جاءت الى المسجد بعد خطاب الزهراء، ووقفت تتحدث عن
فاطمة ومنزلتها وفضائلها، ثم تحدثت عن خذلان القوم لها، ونتيجة
لكلام أم سلمة، أن قطعوا عنها حصتها من بيت المال فترة طويلة من
الوقت.

٢ - بهذه الطريقة كانت الزهراء عليها السلام تربي جيلاً كبيراً من
النساء والرجال وقد ضربت رقماً قياسيًّا في هذه المجال، حيث ظلت
مظلوميتها تغلي في القلوب حرارتها لا تبرد أبداً.

ثالثاً: اصطحابها ثلة من المؤمنين من النساء والحفدة والفتيات
اللواتي كن على درجة كبيرة من الاستعداد للتضحية في سبيل الحق،
وفي هذا الطريق الذي انتهجته الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام،
على أن هؤلاء النساء اللاتي حضرن عندها وسألنها عن صحتها
بقولهن: كيف أصبحت من علتك هذه يا بنت رسول الله؟

(١) آل عمران / ١٤٤.

قالت: أصبحت بحمد الله عاتفة لدنياكن، قالية لرجالكن..الخ
فهؤلاء غير أولئك، حتى كأن الناس صاروا صنفين: إما ناصر
للزهاء، فهو على نور من ربه، وإما خاذل لها فهو في الظلمات ليس
بخارج منها.

على أنني أردت هنا أن أسجل انطباعي، وتأثري بهذه الطلعة
الفاطمية التي أعادت الى القلوب والأذهان صوت المصطفى وحتى
طريقته في المشي والحديث، لأن فاطمة كانت كأبيها ﷺ، في العلم
والعقل والخلق والنور والطلعة والهيبة، حتى كان جابر بن عبد الله
الأنصاري يقول: (ما رأيت فاطمة عليها السلام تمشي إلا ذكرت رسول
الله ﷺ)..

وهذا هو الحق الذي لا يشوبه باطل، واليقين الذي لا شك في دربه
أبداً.

إذاً: فالأمر أكبر من أن تحيط به نظرة أو حتى نظرات العلماء، لأن
هناك أسراراً عميقة في كل حركة لفاطمة وكل سكة لها، بل كل كلمة
تخرج من فمها الطاهر، لها ثقل في ميزان الحق والصدق، ومن هنا
فتحن مأمورون بالوقوف معها والدفاع عنها، بالمال والأهل والأنفس
والثمرات.

وماذا بعد فاطمة إلا الضلال والقهر والإذلال، لأنها هي الحق وماذا
بعد الحق إلا الضلال.

على أنني أود أن أشير هنا الى حقيقة تتعلق بالمعرفة، معرفة الحق
أو أي شيء، فإن المعرفة تزيد في قيمة ذلك الشيء، وكذلك في كشف

الحقائق، إذ يرتفع ثمن الحقيقة الى درجة طوبى، وهذا ما نلمسه في المثال التالي:

تصور أن اللؤلؤ والمرجان في أعماق البحار، حيث تضربه الأمواج ذات اليمين وذات الشمال، واقصد اللؤلؤ هنا، والذي يقبع في حيوان الصدف البحري، فإذا مرت الصدفة بحجر وانجرححت من ذلكا لحجر، دخلت في داخلها ذريرات من الرمل، فشككت أغلى درر العالم وأثمن جواهر اللؤلؤ، وهذا يعني أن الدرة إنما هي نبت الألم، والألم العظيم هو الذي يصنع القلب العظيم.

وهذه حقيقة أردت ذكرها هنا لتقلنا الى حقيقة ثانية أقرب منها الى الأذهان والعقول، وهي أن اللؤلؤ وهو يجري تحت ثايا الماء وفي أعماق البحار له ثمن لا يكاد يذكر لأنه في داخل طيات الأمواج، أما حين يخرج هذا اللؤلؤ الى الحياة في البر، وذلك عندما يقيض له غواص ماهر لاستخراجه من البحر، ثم يقع في يد صائغ قدير ليصوغ من ذلك اللؤلؤ قلادة جميلة تتألق على جيد فتاة حسناء، فإن ثمن اللؤلؤ هنا يرتفع وقيمتة تزداد قوة.

على أن هذا المثل كما ينطبق على اللؤلؤ، فكذلك ينطبق على الحقائق والمبادئ والقيم، ففي إمكان كل أحد أن يموت كما يشاء هو، أو كما يشاء القدر وفقاً لمبدأ ولكل أجل كتاب، غير أن المسألة تظل تبحث عن الإنسان العظيم الذي يخطط لموته ومقتله في سبيل الحق والمبادئ والقيم، لترتفع بمقتله راية الحق، وتعلو كلمة الله على كل الكلام، ويقوم هذا الإنسان العظيم بإرسال الحق على الباطل، فيدفعه فإذا هو زاهق ولهم الويل مما يصفون.

فإذا ذلکم العظیم هو الإمام الحسین علیه السلام الذي خطط لمقتله حتى
هز العروش به... فقال: (خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على
جيد الفتاة، وما أولهني الى أسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف، وخير
لي مصرع أنا لاقیه كآني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين
النواويس وكريلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربه سغباً، لا محيص
عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه
ليوفينا أجور الصابرين.. الخ).

إذا:

فالإمام الحسین علیه السلام يقول هنا:

(خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة..).

أي كما أن اللؤلؤ إذا صار على جيد الفتاة في قلادة حلوة وجميلة
ارتفعت قيمته، كذلك الموت من أجل الحق إذا وقع في طريق الشهادة،
ارتفعت قيمته وزاد تألقه وجماله لأن الحياة بلا حق هي سجن مظلم.

وقد أشار الإمام الحسین علیه السلام لهذه الحقيقة بقوله:

(أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وتغيرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلا
صباغة كصباغة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الى الحق لا
يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً
فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا شقاءً وبرماً).

من هذا المنطلق أستطيع أن أقول في قطع وجزم أن الصديقة
الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام قد جعلت للحق قيمة كبرى في
خروجها هذا وإلقائها هذا الخطاب العظيم.

لأنها تحدثت عن الله تعالى وعدالته، وعن النبي وهدايته وخلقه، وعن أمير المؤمنين وولايته، ثم تحدثت عن منزلتها ومقامها، وعن أهل البيت، وعن الإمامة أي إمامة أهل البيت وطاعتهم، وأوضحت للناس في صدق ليس فيه كذب وجد لا يشوبه لعب، أن نظام الأمة ووحدةها، وانتصارها وفوزها، إنما هو بالاعتراف بحق آل محمد والتمسك بحبلهم، والإقرار بولايته وإمامتهم، وهذا - لعمري - أعظم عمل صنّعه فاطمة الزهراء عليها السلام، بحيث ظل أثره يتفاعل مع الحدث طول الليالي والأيام بشكل فضحت فيه كل المنافقين وأهل الزيف والنفاق والأهواء، ومن أراد الاطلاع على ذلك فليقرأ خطابها هذا قراءة جديدة بغية إظهار الكنوز من المعارف والعلوم والأنوار.

وها نحن معكم نمشي في ظلال هذا الخطاب الفاطمي العظيم، على أنني شديد النفور من الذين يطلقون على هذا الخطاب اسم الخطبة الفدكية، إنه ليس خطبة في فذك، بل هو في الإسلام كله وفي الإيمان كله، وفي القرآن كله، هو خطاب يشهد له الله بذلك والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

رابعاً: شدة الحجاب الذي خرجت به فاطمة يستدعي تناول النقاط التالية لتوضيح الهدف، وتبيان الغاية من وراء الحجاب.

وللضرورة أود أن أبدأ هذه النقاط برسالة وردتني من سيدتي ومولاتي الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، على أنني تلقيت أكثر من رسالة منها يأتيني بعض المؤمنين والمؤمنات فيكون لها شأن عظيم في حياتي، بل أن بعض الرسائل التي وردتني من سيدتي الزهراء قد

غيرت مجرى حياتي ونقلتني من عالم الى عوالم أخرى، تظل معرفتها من الأسرار التي أحتفظ بها لنفسى.

ففي ذات يوم كنا مع ثلة من المؤمنين في بيت أحد السادة وهو السيد ثابت آل ثابت رحمه الله من أهالي كربلاء المقدسة، وكان يومها يقطن في الكويت، فكنا نحن ثلة من أرباب العلم وحملة الفكر في بيته، حيث دعانا الى مأدبة بمناسبة طيبة، وكان الوقت ظهراً وعند الفراغ من الطعام كنانتجاذب أطراف الحديث حول حجاب فاطمة عليها السلام، وكانت المسألة هي:

هل كانت الزهراء عليها السلام تغطي وجهها أم لا؟

فالبعض كان يؤكد ذلك والبعض الآخر ينفي أن تكون فاطمة تغطي وجهها مستدلاً بروايات جابر وسلمان وغيرهم من كرام الصحابة، الذين كانوا يرون صفرة الجوع على وجه فاطمة عليها السلام، وتبين لي فيما بعد أن الصفرة هذه كانت ترى ممزوجة بنور فاطمة المتشر والمتألق حتى من وراء حجابها، وكان جابر وسلمان وأمثالهما ممن بلغ درجة في العلم والتقوى والمعرفة يرى تلك الصفرة لا برؤية العين المجردة، وإنما رآها بمشاعره وأحاسيسه، وبصيرته.

ثم يضاف الى ذلك خبر النبي ﷺ، حيث كان ينقله الى بعض أصحابه ممن هم في مستوى سلمان وجابر وأبي ذر والمقداد وعمار رضوان الله عليهم أجمعين، فكانت المسألة أشبه بالشمس الطالعة من الوضوح وعدم الالتباس والغموض... المهم كنا جالسين نتجاذب أطراف الحديث في هذا وما شابهه.



على أن الشيء اللافت للنظر، والذي انتبهت له فيما بعد أن الحديث الذي دار بيننا حول حجاب فاطمة، لم أكن أنا قد دخلت طرفاً فيه لا سلباً ولا إيجاباً، لا نفيّاً ولا إثباتاً أبداً، وإنما كنت مشغولاً بالتأمل والتدبر في موضوع أريد إلقاؤه على المنبر في مجلس الليل.

حيث كان عندي مجلس عشرة أيام في آخر شهر صفر في حسينية الإمام الحسين عليه السلام في منطقة سلوى في الكويت، فكنت أعد الأفكار وأنسقها لذلك الموضوع ولم أوفق للدخول في الدفاع عن حجاب الزهراء عليها السلام، وهذا مما ترك في قلبي حسرة، وفي عيني دمة وفي نفسي لوعة، لازالت آثارها باقية كلما ذكرت هذا الحدث، وكانت الجلسة في الساعة الثالثة عصراً، فخرجنا وانفض المجلس.

وفي المساء عندما كنت أهم بالدخول في الحسينية لصعود المنبر، رأيت امرأة مؤمنة تقف في باب المجلس ويدها رسالة، ويبدو من مظهر المرأة أنها من نساء الشيعة من جنوب لبنان، وقد اعتادت أن تحضر هذه المجالس مع ثلة من نساءها كل يوم، فدفعت إليّ بالرسالة وانطلقت لم تذكر اسمها ولا رقم هاتف لها، وكانت الرسالة بغير ظرف، أي أنها رسالة على الورق، ففتحتها وقرأت أول سطر فيها ما يلي:

سلام وتحية،،،

اليوم الساعة الثالثة عصراً، رأيت حلماً، وهو كأني دخلت هذا المجلس في قسم النساء فرأيت امرأة ذات هيبة وجلال ونور ومقام رفيع جالسة في صدر المجلس، وهي غارقة في ثياب السواد، وسألتها:



لماذا أنت ترتدين هذا السواد؟

فقالت: أني لم أرفع هذا الغطاء عن وجهي طول حياتي، وإني آتي كل يوم مع أبي محمد بن عبدالله رسول الله ﷺ، لحضور هذه المجالس كل يوم، فأنا مع النساء وأبي مع الرجال، ثم تضيف المرأة صاحبة الرسالة متسائلة وكأنها مدهوشة، لم تلتفت الى معرفة هذه المرأة العظيمة التي جاءت في المنام ورأتها في هذا المنام المعجزة.

تقول لي صاحبة الرسالة بعد نقلت المنام: فمن هي هذه المرأة يا شيخنا عبدالحميد؟

وهنا لاحظوا جيداً، فرغم أن المرأة العظيمة عرفت نفسها لهذه المرأة بقولها: فأنا وأبي محمد بن عبدالله ﷺ، نحضر هذه المجالس كل يوم، وأبي مع الرجال، وأنا مع النساء، وهذا يعني أن المتحدثة إنما هي الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، ولكن مع هذا الوضوح فالمرأة الناقلة للحلم لم تدرك من هي هذه المرأة؟؟

وذلك لأن الأصل في هذا المنام إنما رسالة تصل إليّ أنا من سيدتي ومولاتي فاطمة الزهراء تبين أن الحجاب لم يرتفع عنها طول حياتها، بل أكثر من ذلك فقد قالت: إنني لم أرفع هذا الغطاء عن وجهي طول حياتي.

وفي ذلك شواهد وآيات وروايات سأذكرها في موضعها من هذا الكتاب انشاء الله، وهي تدل على أن أحداً من النساء ومن غير النساء لم يستطع ولا يقدر رؤية فاطمة الزهراء عليها السلام، فلم يرها على حقيقتها سوى أبيها وبعليها وبنيتها فقط وفقط، بدليل كل الأحاديث التي تؤكد شدة حجاب الزهراء عليها السلام.

على أن في الرسالة هذه التي وردتني من سيدتي ومولاتي فاطمة
عليها السلام، عتاباً أشعل الحزن في قلبي، ومفاده: لماذا لم تدافع عن حجابي
في ذلك المجلس؟

وأقول لكم:

إذا كان مجرد السكوت عن شأن من شؤون فاطمة الزهراء عليها السلام
يعد خطيئة تستحق العتاب والتقريع، فما بالكم بمن يقلل من قيمة
ويحط من شأنها، ويستخف بمقامها ومنزلتها، ويدعوها كامرأة عادية
من سائر النساء؟؟

بل ما بالكم بمن يشكك في عصمتها وفي حقوقها، وينفي
مظلوميتها كما نسمع بين الحين والآخر مما يظهر علينا في الكتابات
التي ليس لها نصيب من العلم والفقه والمسؤولية.

* النقطة الثانية في الحجاب:

تبين أن الحجاب فيه جانبين: جانب شخصي وجانب اجتماعي، بل
أكثر من ذلك يظهر من خلال التأمل في آيات الحجاب، حين أكدت أن
الحجاب ينزع الغل والأمراض من القلوب والنفوس..

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (١).

(١) الأحزاب / ٥٣.

كما أن الآية الأخرى تبين الجانب السلبي في ذلك فتقول:
﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾^(١).

إذاً: فالمسألة هنا هي مسألة تطهير القلوب والأرواح والنفوس بالحجاب، فأنا - بالمثل - أظهر بدني بالماء فبأي شيء أظهر قلبي وروحي؟

ويأتي الجواب أن الحجاب أحد الأشياء التي تطهر القلوب والنفوس، كما أن الوضوء يساهم في تطهير القلوب، والتوبة كذلك، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فهذا تائب أحببه الله لأنه طهر قلبه بالتوبة وذاك متطهر بالماء أحبه لأنه طاهر يريد الطهور.
على أننا من كل هذا نخرج بفائدة تقول:

إذا كان الحجاب في المرأة العادية من سائر النساء يؤدي الى تطهير القلوب، فما بالكم بسيدة نساء العالمين، ومن طهرها الله تطهيراً واطفاها على نساء العالمين، وأذهب عنها الرجس وامتحنها قبل أن يخلقها، وهي الحوراء الإنسية فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

إذاً: فشدة الحجاب عند فاطمة لهذه الغاية وهذا الهدف، ومن هنا يمكن تفسير الحديث الذي يقول أن الرسول ﷺ، عندما طرح سؤالاً على أصحابه:

ما يزين المرأة؟

(١) الأحزاب / ٣٢.

فلم يجب أحدهم بجواب شاف وعميق، ولكن حين وصل السؤال إلى فاطمة الزهراء، أجابت: (ألا ترى رجلاً ولا رجلاً يراها..).

فاستحسن النبي هذا الجواب، وقال: (فاطمة بضعة مني..).

والذي أراه في هذا الجواب من العمق الفكري مالا تسعه العبارة ولا تشرحه الكلمة، لأن الزهراء صلوات الله وسلامه عليها إنما أرادت أن تبين حقيقة تشبه قول الله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ...﴾^(١).

أي أن الوضع الأمثل للمرأة أن تكون في بيتها تؤدي دورها التربوي في قيادة الأسرة الى شاطئ السلام والأمان والطمأنينة، وها هو بالضبط، الهدف الذي رمت إليه الزهراء بقولها وفكرها، وتريد أن تقول:

أن المرأة لا يزينها شيء مثل شخصيتها عن كل ما يشينها، وهو حديث يشرحه حديث النبي ﷺ، عندما يقول:

(أحب من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرعة عيني الصلاة)، فجعل مكانة المرأة بين العطر والصلاة، وفي العطر إشارة الى أنوثتها وتأنقها وتألّقها، وفي الصلاة إشارة الى نضالها وكفاحها وقوة شخصيتها، فلا هذا يزد على هذا، ولا هذا يزد على هذا، وإنما جعلها بين ركنين أساسيين...، الأنوثة المتألّقة، والكفاح الطويل.

(١) الأحزاب / ٣٣.

إذاً: فيمكن أن يكون المراد بقول الزهراء: (أحسن للمرأة أن لا ترى رجلاً ولا رجل يراها).

أي أن تكون ربة بيت تقوم بتهيئة أبنائها لحمل المسؤولية وتحملها، وحمل الأمانة وأدائها، وهذا هو الواقع الذي يفتح أمامنا آفاقاً واسعة من المعرفة.

ولعل في إثارة النقاط التالية وهي:

كون الحجاب يساهم في تطهير القلوب - كما مر علينا - على أنه يقتصر على قلب المرأة فقط، بل وأيضاً يطهر الحجاب قلوب الرجال لأنه قال: ﴿ذَلِكَ أَطَهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ...﴾^(١).

وأي شيء أعظم من حجاب يطهر قلوب الناس جميعاً، يضاف الى ذلك أن في الحجاب وظيفة اجتماعية أخرى تتمثل في دفع الأذى والضرر عن المرأة، لأنه قال: ﴿يُذَنِّبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾^(٢).

إذاً: فدفع الأذى عن المرأة إنما يتحقق بالحجاب.

على أن القرآن قد وصف الفتاة ذات الحجاب، بأنها شعلة من العفة والحياء، فقال في وصف بنت شعيب يوم جاءت تدعو موسى لبيت أبيها:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا

(١) الأحزاب / ٥٣.

(٢) الأحزاب / ٥٩.

سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١).

ويقص القرآن علينا هذه القصة بأن الفتاة قالت لأبيها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، فقال لها أبوها: من أين علمت - كما في التفسير - أنه قوي أمين؟؟

قال: رأيت قوته في حمله الدلو لوحده دون مساعدة من أحد ولا عون من جماعة، والدلو كان لا يسحبه أقل من أربعين رجلاً من الأشداء، لأنه كان جلد بغير وأكبر، في حين أن موسى بن عمران عليه السلام سحب الدلو بيده دون مساعدة أحد.

إذا: فهذه قوة الرجل تدل على رجولة قوية تبحث عنها المرأة في فارس أحلامها، وأما أنه أمين - هي تقول - فقد كنت أمشي أمامه فأمرني أن أسير من خلفه حتى لا يقع بصره على بدني وهاتان خصلتان تكشفان الشجاعة والأمانة والأريحية في الرجل وهذا كل ما تتمناه المرأة في الرجل الذي ترتبط به زوجاً لها، ومن هنا كان الزواج آية من آيات الله.

ويستمر حديث القرآن حول الحجاب من خلال هذا المشهد الذي نحن بصدد، فها هي الفتاة تقول لأبيها: يا أبتى استأجره كما مرّ علينا، وإذا تأويل كلامها غير ظاهره، فهي تريد أن تخطب موسى زوجاً لها، ولكن الحياء يمنعها من ذلك فكان الله حباها بوالد ذكي فطن واع،

(١) القصص / ٢٥.

فعرف وأدرك نيتها، وقام بتفسير ذلك لموسى فقال: إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين..

وتأملوا جو العفة ومناخ الحياء في الكلام هذا الوالد الذي هو شعيب، إذ أنه لم يجعل الإشارة متوجهة الى الفتاة الطالبة للزواج مباشرة، وإنما جعل الإشارة ذائبة بين الأختين لحفظ ماء الوجه عند الأولى وحفظ المشاعر عند الثانية، لأنه لو قال إنى اخترت لك هذه البنت، فممكن تتألم البنت الثانية من هذا الاختيار، ولذلك لا يجوز الجمع بين الأختين حفاظاً على هذه الحالة، وحفظاً لأسرار الله وحكمته البالغة.

على أن هذا كله يعد نوعاً من التأملات، والنظرات في الزواج وبناء الأسرة.

ثم عندنا هنا فكرة لابد طرحها في فلسفة الزواج، وهي أن كل شيء قائم على أساس الذكورة والأنوثة، لأن الله عزوجل يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

ومن هنا كان الجانب السلبي والإيجابي في كل شيء، فلو فرضنا أن سلكاً كهربائياً منزوع الحجاب أي لا غلاف له فإنه لاشك سيضرب بعضه بالبعض الآخر، أي السالب والموجب، فيحدث دماراً شاملاً وخراباً عاماً مدمراً، في حين إذا جعلنا التيار الكهربائي في أسلاك معزولة عن بعضها البعض حتى إذا تلاقت في المصباح أعطت ضوءاً ونوراً وراحة.

(١) يس/ ٣٦.

فكذلك الأمر في العلاقة بين الرجل والمرأة، حيث الحجاب يجعل المرأة في معزل عن الاحتكاك بالرجال، حتى إذا تزوجت المرأة وصار اللقاء أعطت الطبيعة البشرية ثمارها بإنجاب الأولاد وهم زهرة الحياة الدنيا، فكانت الأسرة آية من آيات الله عزوجل، والتي يقول فيها الحق سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

على أن هذه الأسرة تكشف عن عمق فلسفة الحجاب من خلال طرحها الأسرة كآية من آيات الله لأنها تغذي الفطرة البشرية في هذا الزواج، فهو عقد يغذي العقل بالفكر والروح بالرحم والقلب بالموددة والنفس بالسكينة، وهذا هو الذي يجعل مثل هذا العقد يختلف عن بقية العقود، فكل عقد إنما يجري على الورق إلا عقد الزواج، فإنه يجري على القلوب قبل الورق وفي الأرواح قبل الأقلام والمحابر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الحكمة العميقة التي جعلها الله عزوجل في آية الحجاب.

على أن لزواج فاطمة الزهراء عليها السلام شأناً غير هذا يتلخص في كونه آية من آيات الله الكبرى التي لم يحدث أن وقعت لأحد قط حتى الأنبياء وذلك لأن زواج الزهراء عليها السلام كان من قطبين عظيمين، وبحرين يلتقيان، وذلك أن الزهراء آية كبرى وعلي أمير المؤمنين آية

(١) الروم/ ٢١.

كبرى، وهذا هو الذي يجعل الزواج آية كبرى وسيأتي الكلام حول هذا الموضوع في موضعه من هذا الكتاب انشاء الله تعالى.

خامسا: السر الكامن من وراء الأنة التي أطلقتها الزهراء في حزن أقرح القلوب، وأبكى العيون، فارتج المجلس وأجهش القوم لها بالبكاء، فأمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على أبيها رسول الله فأعاد القوم في بكائهم، فلما سكتوا عادت في كلامها فقالت: الحمد لله على ما أنعم...الخ.

والكلام هنا يقتضي مقدمة لابد منها وهي أن الله تبارك وتعالى، لما أراد أن يعرف الرسول المصطفى، عرفه بآيتين هما آية العلم وآية الخلق، لأن الكمال كله في الحقائق والأشياء، إنما يبدأ وينطلق من هاذين الشئئين:

العلم والخلق، لأن العلم يشير الى صدق الحديث والفكر والحكمة والمعرفة، بل إنه الشرايع كلها، في حين أن الخلق - بضم الخلق - يشير الى طريقة العيش في الحياة، والى السيرة والأفعال والتطبيق العملي للأفكار، حتى كأن الفكرة لا تظهر حقيقتها إلا بالعمل، ومن دون عمل تظل الفكرة جامدة لا تسمن ولا تغني من جوع، وبكلمة فإن الأشياء لا تتحقق والحقائق لا تتم إلا بعلم صادق وتطبيق عادل.

ومن هنا فإننا نجد مشكلات العالم التي تعصف بالناس اقتصاديًا وسياسيًا، واجتماعيًا وثقافيًا، إنما هي بفعل خلل يصيب الفكر، أو خلل يصيب العمل (التطبيق).

على أننا في الإسلام لا نعاني من خلل الأفكار، ولا من خلل الفعل لأن الفكر في القرآن والتطبيق في النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، ويمكن توضيح ذلك بالمثال التالي:

إن كل نظرية - أية نظرية لا فرق - لا تظهر حقيقتها إلا بتجربة عملية وبغيرها تغدو النظرية باهتة لا تثير اهتماماً ولا تحرك شوقاً.

وعلى سبيل المثال النظرية النسبية لأنشتاين، ما ظهرت حقائقها إلا بالتجربة العملية التي أطلقتها سفناً فضائية تجوب الآفاق، وكذلك الأمر في الطب، فهذا كتاب القانون لابن سينا يعد تجربة نظرية لا بد لها من تجربة عملية لإظهار حقيقتها، وكانت حقيقتها ظاهرة في مناهج الطب التي تعتمد على هذا الكتاب النفيس، وإني لأتذكر حكاية وقعت لابن سينا هذا تشهد على صدق هذه الفكرة.

والحكاية أن شاباً أعمى شرب من ماء النهر، فدخلت العلة - وهي دويبة ناعمة تجري فوق الماء - في جوفه وعلقت في حنجرتة فجعلته كالمحتضر من الألم والاختناق في هذا الموضع، وحين جيء به إلى ابن سينا، وأجرى عليه الفحص قرّر أنه لا يتمكن من إجراء عملية له، لأن العملية ربما تؤدي بحياته، إذ أنه لا يملك الوسائل والأدوات التي تساعد وتعينه على إجراء مثل تلك العملية، غير أن ابن سينا ما كاد يقف يصلي ركعتين طالباً من الله العون وسائلاً إياه الإمداد، حتى لمع الحل في رأسه في لحظة واحدة، فأرسل خادمه إلى الشاطئ لي جلب له قبضة من حشيش كان يطلع على حافة النهر وضاف الشاطئ، ثم أمر الشاب المصاب بمضغ ذلك الحشيش، وقذفه بعد المضغ، فكانت النتيجة أن خرج العلق كله، وتم إنقاذ الشاب بعد أن كانت حياته على حافة الهلكة.

كل ذلك بفضل التجربة العملية لنظرية الطب عند ابن سينا، وذلك ببركة ركعتي صلاة الحاجة التي صلاحها الطبيب ابن سينا.

على أن هناك مجالاً واسعاً في هذا الشأن بحيث يمكن أن يقال أن القرآن تجربة نظرية، وأهل البيت تجربة عملية ولعل حديث الثقلين يؤكد هذه القاعدة، لأن الكتاب شيء نظري في حين أن العترة شيء عملي.

ومن هنا نجد الذين أبعدوا العترة عن الكتاب وأخرجوا هذا الإسم الأعظم من حديث الدين واستبدلوه بالسنة بدل العترة، وهو حديث لم يروه أحد من كتب الحديث، ولا كتب الصحاح وإنما انفرد به مالك بن أنس إمام المالكية في كتابه الموطأ.

على أنه أرسله هكذا دون سند وعميق ولا خبر صحيح، وإنما أرسله على أنه بلغنا أن رسول قال: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وسنتي..).

وهو حديث لا يستقيم مع الواقع، ولا يمشي مع الحق، فضلاً عن مخالفته الصريحة لكل علماء الأمة وعلماء العامة، وكل كتب الصحاح التي لم تروي هذا الحديث، وإنما روت حديث الثقلين: (كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي)..

هذا هو الحديث المروي والموجود والموثق في كتب الصحاح والتفسير غير أننا لم نجد أحداً من خطباء القوم ولا من علمائهم يذكر حديث (الثقلين) الصحيح، الذي فيه: كتاب الله والعترة، وإنما الكل هرعوا إلى حديث لأهل البيت، وإني لأظن هؤلاء لو كان في إمكانهم لأسقطوا آية التطهير، لأن فيها ذكر لأهل البيت، ولكن أنى لهم ذلك وكتاب الله بين

أظهرهم أمورهم ظاهرة وأحكامهم ظاهرة، وأوامرهم واضحة، وزواجرهم لائحة رغبة عنه يريدون، أم بغيره يحكمون بئس للظالمين بدلاً، ومن يبتغي غير الإسلام ديناً، فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

إذن: فكل حقيقة إنما تتم معالمها بشيئين اثنين: صدق في العلم والفكر، وعدل في التطبيق والعمل، ولذلك نسمع فاطمة الزهراء عليها السلام تقول:

(اعلموا أني فاطمة وأبي محمد، أقول حقاً عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً).

وهذا القول يؤكد تلکم القاعدة، ففكرها ليس فيه غلط وقولها ليس فيه شطط وعملها ليس فيه انحراف ولا التواء ولا باطل، وهذا هو معنى العصمة، فالزهراء عليها السلام معصومة بنص القرآن في آية التطهير وبنص السنة في حديث:

(إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها).

ولو كانت ممن يجوز عليه الخطأ والغلط، لما كان الله يغضب لغضبها ولا يرضى لرضاها، لأنه حينئذ يكون غضباً على غير أساس الحق، ورضا على غير أساس الصدق، وهذا منفي عن فاطمة الزهراء جملة وتفصيلاً، فقد أكد القرآن الكريم في آيات محكمة إنها معصومة، وكذلك الرسول المصطفى ﷺ، صرح بعصمتها في أحاديث مشهورة معروفة واضحة ليس فيها لبس ولا غموض ولا غبش، وإنما هي تتلى كآيات الله آناء الليل وأطراف، لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، هذا جانب وجانب آخر فنحن مأمورون بطاعته

وإتباعه، فالحق يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (١).

وفي آية ثانية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (٢).

وآية ثالثة:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٣).

على أن قول الزهراء عليها السلام في هذا المضمار دليل ليس فوقه دليل، وبينه ليس بعدها بينة أنها طاهرة مطهرة، معصومة مكرمة، تقية نقية يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها، وخصوصاً إذا أخذنا حديث النبي ﷺ، الذي يقول فيه:

(إنما فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها، ويقبضني ما يقبضها).

وعرفنا من هو القائل لهذا الحديث من خلال آيتين أنزلهما الله عزوجل في محكم كتابه يكشف بهما عن عظيم منزلة النبي ﷺ، وهما آية في العلم وآية في الخلق، فأية العلم تقول:

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٤)

(١) الحشر / ٧.

(٢) النساء / ٥٩.

(٣) المائدة / ٥٥.

(٤) النساء / ١١٣.

والآية الثانية التي يقول فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وقد مرت الإشارة في هذه المقدمة للآيتين هاتين لأنهما تشيران الى مجال الصدق في الفكر والعلم والمعرفة، وفي مجال الفعل والعمل والتطبيق والممارسة، فأية العلم للمجال الأول، والأخلاق في المجال العملي كما هو واضح وصريح، وهذا يعني قمة الكمال في الحبيب المصطفى، ومعنى ذلك أن الكون كله خلق من أجل هذا الإنسان الكامل، بمعنى أن النبي هو روح عالم الملك والملكوت، هو جوهر عالم الغيب والشهادة، إنه خلق من مكان ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، كما يقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام، وإذا كان خلق من ذلكم المكان فإنه أعلى وأكمل مخلوق في هذا الوجود، وكذلك أهل بيته معه لأنهم منه وهو منهم بصريح الأحاديث الصحيحة، وهنا نتبين عظمة الحديث الذي يقول:

(إنما... «وهي أداة حصر أي حصرت هذه القضية بفاطمة الزهراء دون غيرها..» إنما فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها، ويقبضني ما يقبضها..).

ونجد الرسول ﷺ ها هنا قد استخدم كلمتي البسط والقبض، وهما في غاية الدقة ومنتهى الحكمة، فيما أن الرسول ﷺ هو روح الوجود، وروح الملكوت، فإن شيئاً وحيداً يستطيع أن يبسط هذه الروح، ويقبضها، وذلك الشيء والشخص هو: فاطمة بنت محمد.. صلى الله عليها وعلى أبيها وبعلمها وبنيتها والسر المستودع فيها.

(١) القلم/ ٤.

على أننا نستفيد من ذلك أن فاطمة الزهراء عليها السلام إذا حزنت حزن كل شيء لحزنها، وإذا فرحت فرح كل شيء لفرحها، وإذا انبسطت انبسط كل شيء لانبساطها، وإذا انقبضت انقبض كل شيء لانقباضها، لأنها تؤثر على أبيها النبي، وإذا تأثر النبي بانبساطها وانقباضها، فإن ذلك يعني أن كل الأنبياء والرسل تأثروا هم الآخرون أيضاً بل كل ملك وكل كائن في الوجود حتى الحور في الجنان، والحيتان في البحار، وحتى الطير في الهواء، كل شيء يتفاعل مع فاطمة الزهراء عليها السلام، والنتيجة التي نصل إليها من خلال ماتقدم هي:

أن أنة واحدة من فاطمة الزهراء تشعل عالم الملكوت بالحزن، لأنها تضرب قلب أبيها أولاً وقلب أبيها هو قلب العوالم كلها، وهذه الصورة هي التي تبين لنا بعض معرفة الزهراء عليها السلام، وإلا فليس في استطاعة أحد أن يدعي أنه يعرف فاطمة الزهراء عليها السلام، وليس في مقدور أي مخلوق أن يزعم أنه يعرف فاطمة حق معرفتها، ما عدا أباهما وبعلمها وذريتها، ليس أكثر من ذلك.

على أن هذا مرتبط بالله عزوجل، كما قال النبي ﷺ، لعلني أكون من المؤمنين عليهم السلام:

(يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا..).

ولعل هذا الحديث يفتح لنا أفقاً جديداً في الحديث الذي يشتمل عليه الدعاء الذي نقرؤه:



(اللهم عرّفني نفسك، فإنك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف نبيك،
اللهم عرّفني رسولك فإن لم تعرّفني رسولك لم أعرف حُجَّتكَ، اللهم
عرّفني حُجَّتكَ، فإنك إن لم تعرّفني حُجَّتكَ ضللت عن ديني).

وهذا هو الواقع الذي لا تحوم حوله شكوك ولا شبهات لا من قريب
ولا من بعيد.

إذا: فقد عرفنا السر الكامن وراء أنَّهُ حَزِينَةٌ أَطْلَقَتْهَا فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ
الْعَظِيمَةُ قَبْلَ إِقْلَاعِ خُطَابِهَا، فَفَجَرَتْ الْمَجْلِسَ بِالْبَكَاءِ وَالْعَوِيلِ، وَهَذَا مَارَاتِهِ
الْعَيُونَ أَمَّا الَّذِي لَمْ تَدْرِكْهُ الْأَبْصَارُ وَلَا الْأَسْمَاعُ، فَإِنَّمَا هُوَ الْحُزْنُ الَّذِي
أَشْعَلَ عَالَمَ الْمَلَكُوتِ مِنْ بَكَاءِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ الْعَظِيمَةِ، وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ
فَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ تُوَكِّدُ أَنَّ لِفَاطِمَةَ الْعَظِيمَةِ مَوْقِفًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ
تَرْفَعُ بِيَدِهَا رَأْسَ وَلَدِهَا الْحُسَيْنِ وَقَمِيصَهُ الْمُضْمَخَ بِالدَّمَاءِ، فَتَشْهَقُ
شَهْقَةً لَا يَبْقَى مَلِكٌ مَقْرَبٌ وَلَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ وَلَا وَلِيٌّ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ
إِلَّا صَعِقَ لِبَكَائِهَا وَأَعُولَ لِدُمُوعِهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْهُودِ.

فاطمة الزهراء عليها السلام كلمة الحمد

فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت:

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم من
عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن وآلاها، جم عن
الإحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمددها، وتفاوت عن الإدراك أبددها،
ونديهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها.

الكلمة تأخذ حقها من المعنى إذ قالها من يعرفها قدرها، لأن
لل كلمات مستويات مختلفة ودرجات متفاوتة تأخذ حجمها بقدر الذي
هو قائلها.

وعلى هذا الأصل فإن الإنسان صاحب المعرفة كلما ارتفعت معرفته،
زادت قيمة الكلمة لديه وارتفعت منزلتها عنده، بل إن الكلمة لتتحول
إلى كائن حي يجسد المبادئ والقيم والعلوم والأخلاق، وها هنا تتوضح
الأمور أكثر فأكثر عندما نعرف أن فاطمة عليها السلام إنما هي كلمة الحمد
التي تتم فيها كل المعاني وتتكامل تحت نورها كل النعم، فمما من نعمة إلا
وهي كاملة عند فاطمة، وما من إلهام إلا وهو تام لدى فاطمة
الزهراء عليها السلام.

على أننا نتفتح أمامنا آفاق واسعة من المعاني كلما تأملنا معاني كلمة
الحمد أكثر فأكثر، ولتوضح الفكرة، أضرب لكم المثال التالي:
يولد وتولد معه نعم لا يعلم عددها إلا الله عز وجل...



﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(١).

غير أننا نستطيع أن نشير الى بعضها مثل نعمة الحواس، ونعمة المحسوسات ونعمة التطابق بين الحس والمحسوس، فهذه أصوات وهذه أذن، فحاسة السمع للأصوات والتطابق بينها معروف وواضح، فلو لم تكن الأصوات فلا قيمة للأذن، ولو كانت الأصوات ولو تكن هناك آذان سامعة، فلا تعد الأصوات حكمة لأنها إنما وجدت للسمع.

وهكذا الأمر بالنسبة للصور والأشياء وتوافقها مع العين، فلو لم تكن العين فلا معنى للصور والأجسام، ولو لم تكن الأشياء فلا معنى لوجود العين، لأنها إنما وجدت للنظر، ويجب أن يكون هناك شيء تنظر إليه العين، وما يقال في الأذن حاسة السمع والعين حاسة البصر، يقال أيضاً في الروائح وحاسة الشم، ويقال في الأجسام وحاسة اللمس، وما ينطبق على الحواس والمحسوسات، ينطبق أيضاً على العقل والفكر والأفكار، فلو لم يكن هناك عقل كيف كان يعرف الحق.

ولذلك كان لله حجتان:

العقل والأنبياء والرسل والأئمة، أو قل: حجة ظاهرة: وهم الأنبياء والرسل والأئمة.

وحجة باطنة: وهي العقول.

وهذا تعبير الإمام أبي الحسن الكاظم عليه السلام، كما وردت في وصيته لهشام بن الحكم، كما أوردها صاحب الكافي في كتاب (العقل).

(١) إبراهيم / ٣٤.



إن الله تبارك وتعالى ضرب مثلاً للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء وهي راسخة بجذورها في الأرض وبفروعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أي أن عطاءها لا ينقطع أبداً من العلم والمعرفة والنور والفكر والعدل والإحسان إلى مالا نهاية أبداً، لذلك وإنما ضرب الله مثلاً للكلمة الطيبة بالشجرة لأن الشجرة فيها غذاء للبدن، والكلمة تغذي العقول، وهذا ظاهر المثل وتفسيره، أما باطنه وتأويله، فالشجرة هي الحبيب المصطفى محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

من هنا فإن النعم ليس لها حدود خصوصاً عندما نربط نعمة العقل بنعمة الوجود من جهة ونعمة العلم من جهة أخرى، فإننا نحصل على نتيجة رائعة تبين لنا، أن كل ذلك لا يتم إلا بالإيمان والولاية لأن الإيمان وحده من دون الولاية يظل ناقصاً.

وهذا واضح في محكم آيات الذكر الحكيم، لاحظوا دقة التعبير:
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١).

فإذا كان كمال الدين بولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام، فإن لفاطمة الزهراء عليها السلام دوراً عظيماً في بناء كلمة الحمد، وإتمام هذه النعمة. على أننا ليس في إمكاننا أن نحيط بهذه الكلمة معرفة وعلماً إلا بعد معرفة فاطمة، ومعرفتها مرتبطة بمعرفة ليلة القدر، كما قال الإمام الصادق عليه السلام:

(١) المائدة / ٣.

(فمن عرف فاطمة حق معرفتها، فقد أدرك ليلة القدر).

ثم انتقلت الزهراء من الحمد الى الشكر، والحمد على النعمة، والشكر على الإلهام، وكل ذلك من الله عزوجل، فهو زودنا بالنعم وألهمنا معرفتها، ومعرفة التعامل معها، فهذا الطفل الذي ينزل من بطن أمه ونعم الله تحيط به من كل جانب ومكان، بالإضافة الى أن الله عز وجل ألهم هذا الطفل كيف يتعامل مع أول هذه النعم، وهي نعمة الأمن والطعام، إذ أوجد الله له الأمن في حجر الأم، والطعام في ثديها، وإذا بالطفل يأنس لمحالب أمه يرتضع اللبن من ثديها، ويرتاح في حجرها.

وهو رغم صغر سنه، إلا أنه يدرك هذه النعمة إدراكاً كاملاً بحيث إذا أحس بعدم راحة الأم، أو أنه شعر بانزعاجها واضطرابها، فإنه يلوذ بالبكاء ويفرق بالدموع وعيناه شاخصتان في وجه أمه وكأنه يخاطب بلسان الحال يقول لها: (يا أماه إنني لست في حاجة الى حليب ليس معه حب وحنان، فأنا أرتضع من صدرك الحليب غذاءاً لبدني وهو بمثابة الخبز، وفي الوقت ذاته أرتضي الحب والحنان من عينيك، وذلك بمنزلة الأمن والطمأنينة لأن روحي تحتاج الى الأمن، كما أن بدني يحتاج على الخبز، فالخبز في حليب سائغ شرابه، والأمن في عيون مليئة بالحب والحنان والعاطفة).

إذاً: فالحمد على ما أنعم الله علينا بنعم ظاهرة وباطنة، والشكر لله على ما زودنا بقدرة نستطيع أن نتفاعل مع هذه النعم، ونتعامل مع تلكم الآلاء التي هي واضحة كالشمس في رابعة النهار..



يقول عزوجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (١).

أي أنه قدر الأشياء وهدانا أو هدى الخلق للتعامل معها والاستفادة منها، وهذا هو التفسير الصحيح لكلمة فاطمة الزهراء عليها السلام.

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم..

وكأن المسألة تأخذ نفس حجم الكلمة التامة، أو الحقيقة الكاملة، فما دام كل شيء لا يتم إلا بفكرة صحيحة وتطبيق عادل، فإن ذلك يعني أن الله أعطانا نعمة العلم، وألهمنا مرحلة الشكر، وهي مرحلة العمل، لأن الأغلب في هذه المفردات أن يأتي الحمد في العلم والمعرفة، ويأتي الشكر في العمل والممارسة..

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ (٢).

إذا: فالعمل هو الشكر لهذه النعم، فمن أعطاه الله نعمة ولم يعمل من وحيها فإنه كفر بها ولم يشكر، وقد قال الحق عن أقوام بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها بئس القرار.

ثم قالت: (والثناء بما قدم من عموم نعمة ابتداها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاهـا، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمددها، وتفاوت عن الإدراك أبددها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها).

(١) الأعلى / ٢-٣.

(٢) سبأ / ١٣.



الوعي الإسلامي

في مدرسة الزهراء عليها السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد ﷺ أقول حقاً عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطا ولا أفعل ما أفعل شططا، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم وأخا ابن عمي دون رجالكم فلنعم المعزي إليه فبلغ الرسالة صارعاً بالندارة مائلاً عن مدرجة المشركين ضارياً ثبجهم آخذاً بأكظامهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة... الخ».

بعد مقدمة الخطاب وافتتاح الكلام بحمد الله والثناء عليه قالت فاطمة الزهراء عليها السلام: «أيها الناس اعلموا أني فاطمة» وحتى يعرف الناس من هي فاطمة فإنه لابد لها من أن توصيهم بتقوى الله لأن التقوى منظار النفس، واتقوا الله ولتتظر نفس ما قدمت لغد، وبغير التقوى لا يمكن معرفة الأسرار في هذا الوجود، لأن للعالم ظاهراً وباطناً ولابد لمن يريد معرفة الباطن من التقوى فالمتقون فيها هم أهل الفضائل منطلقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيمهم التواضع غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم..

لذلك قالت لهم «اعلموا أني فاطمة وأبي محمد ﷺ أقول حقاً عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطا، ولا أفعل ما أفعل شططا، لقد جاءكم رسول الله من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم وأخا ابن عمي دون رجالكم».



ثم تستمر في خطابها على هذا المنوال حتى تصف الناس الذين خذلوها ولم ينصروها بأنهم أسرعوا إلى قيل الباطل فتقول فاطمة الزهراء عليها السلام:

«معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر، أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتكم من أعمالكم فأخذ بسمعكم وأبصاركم ولبئس ما تأولتم وساء ما به أشرتكم وشر ما منه اغتصبتكم، لتجدن والله محمله ثقيلاً وغبه وبيلاً إذا كشف الغطاء وبان ما وراءه الضراء ويدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون وخسر هنالك المبطلون».

أقول: في الغالب هناك عوامل وأغطية تحجب الحقائق عن السمع والبصر والفؤاد فيعيش الناس فيها في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج الواحد يده لم يكدرها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

على أن هناك طريقة واحدة فقط لرؤية الحقيقة ومعرفتها، وهي إزاحة الأغطية هذه ورفع الحجب تلك، وهنا فقط تظهر الحقائق عندما يتحول أهلها من الظلمات إلى النور، ولذلك نسمع الحق سبحانه. يخاطب نبيه موسى بن عمران عليه السلام..

﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾. (١)

وهذا هو الحق لأن الذكرى لا تنفع القابع في الظلام وإنما تنفع المؤمن الذي يسبح في ألق النور وشعاع الحقيقة.

(١) إبراهيم/٥.



على إننا - هنا - نجد الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام قد كشفت للناس عن الحق فأسفر عن محضه ونطق في خطابها زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقد الكفر والشقاق، وأوضحت الزهراء عليها السلام للناس جميعاً بما ليس فيه لبس ولا غموض ولا تشكيك أن الناس كانوا عن فاطمة عليها السلام مصدقين وعن حقها غافلين فلم ينصروها بل خذلوا واخذلوا إلى الأرض والدعة والراحة والنفاق فضربهم الله بسوق أوجع ظهورهم وقلوبهم حيث راحت الندامة تلفهم، والحسرة تأكل صدورهم حيث لا يفيد الندم ولات حين مندم وذلك عندما علموا باستشهاد فاطمة عليها السلام ورحيلها عن الحياة وهي غاضبة عليهم وتم دفنها في الليل البهيم وعفي موضع قبرها كما أوصت هي بذلك تعميقاً على أعداء الله المنافقين وإظهاراً لمظلوميتها صلوات الله وسلامه عليها إذ كانت قد أوضحت للناس بأنهم قد انقلبوا على أعقابهم خاسرين كما أخبر الله عزوجل بذلك:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١).

أعلنت لهم مسارعتهم إلى قيل الباطل وإلى الفعل القبيح الخاسر، لأنهم خسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

(١) آل عمران/١٤٤.

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾. (١)

أجل: كل الناس في خسارة ما عدا أصحاب الثقافة الفاطمية، ثقافة الإيمان والعمل الصالح، وواضح جداً أن الذي يخذل فاطمة عليها السلام لا يسمى مؤمناً، والذي يتقاعس عن نصرها لا يعمل صالحاً أبداً ومن هنا قال النبي ﷺ لمن سألته عن معنى خير العمل؟ قال: خير العمل: برّ فاطمة، فلا يوجد عمل أعظم من برّ فاطمة عليها السلام. أما الذين خذلوها فقد سقطوا في العذاب الأليم، كما قالت هي روي فداها: (ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، فهيئات منكم وكيف بكم وأنى تؤفكون.... الخ).

ثم تقول فاطمة عليها السلام: (أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)، تقرّ لهم هذه الآية ثم تؤكد أن قلوب القوم عليها أقفال من الذنوب والخطايا.. أقفال من المسارعة إلى قيل الباطل.. أقفال من الغضاضة على الفعل القبيح الخاسر، ولاشك أنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بتفريطهم بحق فاطمة عليها السلام، ولذلك تقول لهم: (كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتكم من أعمالكم)، أي أن السيئات التي احتطبتموها على ظهوركم هي ليست أقل خطراً وشأناً من الحطب الذي جمعتموه على باب بيت الوحي والنبوة ومختلف الملائكة.. وكان هذا العمل هو الذي أوصلكم إلى ما أنتم عليه من الانحطاط والخذلان والذل والخزي والعار الذي سيلازمكم إلى الأبد، فأخذ بسمعكم وأبصاركم ولبئس ما تأولتم - أي: أن الخطايا التي حملتموها أوزاراً على أوزاركم وأثقالاً



على ظهوركم إنما هي نتيجة طبيعية جداً للانقلاب الذي وقعتم فيه
فسلب منكم الإيمان والنور والأخلاق.

ثم تستمر الزهراء عليها السلام في توجيه اللوم إليهم بفعل تخاذلهم عن
نصرة الحق فتقول: (ولبئس ما تأولتم وساء ما به أشرتم وشر ما منه
اغتصبتم لتجدن - والله - محملة ثقيلاً وغبةً وبيلاً إذا كشف لكم
الغطاء ويان ما وراءه الضراء وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا
تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون)، وفي هذا معنى كبير لأن أغلب
الناس يعيش في غفلة من ولادته إلى وفاته فيتصل المهد بالحد في
غطاء كثيف من الجهل وعدم الفهم وفقدان المعرفة، ولكن سرعان ما
تتكشف الحقائق ويرتفع الغطاء عن القلوب والأبصار.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (١).

نعم لقد ظهرت الأمور على حقيقتها وانكشف الغطاء عن كل شيء
وبدت الأفعال أمامهم لا لبس فيها ولا غبار عليها فقد بدا لهم من
ربهم ما لم يكونوا يحتسبون، حيث يسمعون الصيحة من بطنان العرش
ألا يا أهل المحشر غضوا أبصاركم حتى تجوز فاطمة بنت محمد صلى
الله عليها وعلى أبيها وبعليها وبنيتها والسر المستودع فيها، ولعل من
السر المستودع فيها قرب ظهور ولدها الإمام المهدي صاحب العصر
والزمان صلوات الله وسلامه عليه الذي سيملاً الأرض قسطاً وعدلاً
بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ويأخذ بحق أمه فاطمة عليها السلام وسوف
يستخرج القتلة والظلمة وأعوانهم ممن شاركوا في ترويع فاطمة عليها السلام

(١) ق/٢٢.



وكسر ضلعها وحرق دارها وقتل جنينها المحسن وإسقاطه وعصرها بين الحائط والباب حتى ماتت مظلومة مهضومة، باكية العين منهدة الركن يغشى عليها من الألم ساعة بعد ساعة - وأوصت أن يتم دفنها في الليل بغير علامة تدل على قبرها، ولا إشارة تدل على ساحتها الحزينة..

أقول: أن الإمام المهدي صلوات الله وسلامه عليه وهو ابن فاطمة عليها الصلاة وأزكى السلام إنما يأخذ بحقها قبل أي حق آخر فالله عزوجل قدمها وقدم اسمها وقدم حقها فقال للملائكة عندما سأله عن أسماء أصحاب الكساء على لسان جبرائيل قال هم فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها، على أنني أترك لكم الوقت الكافي لتستمعوا بسماع ما قد كتبناه هنا في هذا المجال الذي يدل على قوة العقيدة وضعفها، قوة العقيدة مثلاً ضربناه لمن نصر فاطمة عليها السلام ودافع عنها وعن أبنائها، وضعف العقيدة مثلاً ضربناه لمن خذلها وشارك في ظلمها وأذاها ونبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم وآية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١).

فكونوا معنا أيها الأحبة في هذه المحاضرة التي عنوانها الوعي الإسلامي للإنسان وهي تصب في رحاب الزهراء سلام الله عليها لأن فيها ذكر أبنائها وخصوصاً إن الموضوع فيها يتناول وظائف الجوارح والأدوات والعقل في الإنسان المؤمن ثم يعطي نماذج للذين صدقوا بما

(١) الأعراف/١٧٩.

عاهدوا الله عليه، في نصر فاطمة عليها السلام وأبنائها، أمثال عبدالله بن عفيف الأزدي، وأبي الفضل العباس عليهما السلام من الذين وقفوا يوم عاشوراء وبعده يواصلون دفاعهم عن الحق وأهله حتى تهاووا صرعى على الأرض الطيبة مخرجين بدمائهم الزكية في أرض كرب وبلاء.

وأبدأ هذه القضية بقصيدة رأيت فاطمة الزهراء عليها السلام تأمرني بقراءتها فأسجلها هنا قبل الموضوع الذي نحن في صددده:

ولزينب نوح لفقد شقيقها	تدعوه يابن الزاكيات الركع
اليوم أصبغ في عزاك ملابسي	سوداً واسكب هاطلات الأدمع
اليوم شبوا نارهم في منزلي	وتناهبوا ما فيه حتى برقعي
اليوم قادوني بذل يا أخي	والسوط ألمني وأطفالي معي
أنعم جواباً يا حسين أما ترى	شمر الخنا بالسوط ألم أضلعي
فأجابها من فوق شاهقة القنا	قضى القضاء بما جرى فاسترجعي
وتكفلي حال اليتاما وانظري	ما كنت أصنع في حماهم فاصنعي

الوعي الإسلامي للإنسان

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١).

إن الآية الكريمة، تفتح قلوبنا وعيوننا لحقيقة لعلها من أدق الحقائق في الفكر الإسلامي. هي الوعي الإسلامي للإنسان؛ ما هو الهدف من وجوده؟ ما هي رسالته في الحياة؟ لماذا خلقه الله تعالى، وماذا يريد منه؟ كيف يسير في هذه الحياة، وإلى أين يتجه، وعلى من يتوكل؟ إن الآية الكريمة تجيب على هذه الأسئلة بإثارتها لمفهوم الوعي، فما هو الوعي؟

لنقرأ الآية تبعاً لمنطوقها. ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾. أمواج من البشر تتدفق وتنصب في جهنم. لماذا؟ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾.

أي أنهم عطلوا وظيفة القلب الروحية الربانية التي هي «الفقه» أي الوعي. فالقلب ليس مجرد عضلة تقوم بوظيفة فسيولوجية بيولوجية هي دفع الدم إلى أنحاء الجسم، وهي وظيفة يقوم بها القلب الحيواني كما يقوم بها القلب الإنساني. ولكن القلب الإنساني ينفرد بوظيفة أجل

(١) الأعراف/١٧٩.

وأسمى هي «الفقه» وهي وظيفة روحية ربانية ميز الله بها الإنسان دون الحيوان، و«الفقه» يعني الوعي، فإن التفقه يعني أن تعي ما يدور حولك.

أيها الإخوة والأبناء:

اقرأوا رسالة الحقوق التي كتبها الإمام علي زين العابدين - عليه السلام. هذه الرسالة أطلقها من محراب الصلاة، ليعلمها أن الصلاة تعني حقوق الفرد مع الله ومع المجتمع وحقوق المجتمع مع الفرد ومع الله. كما تعلمنا أن لكل عضو في جسم الإنسان وظيفة، وللعين وظيفتها، واللسان وظيفته، وللأذن وظيفتها، وقل ذلك بالنسبة لسائر أعضاء الجسم. فالكفار والأشرار يعطلون وظائف أعضائهم، أو يفعلونها في غير ما أعدّها الله له، فكانوا لجهنم حطباً، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾.

لماذا لأن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

هل هذا يعني أن العمى قد ضرب هؤلاء؟ عجباً إن عيونهم مفتحة وسليمة، إذن كيف لا يبصرون؟ إنهم عمى البصيرة لا يرون طريق الحق، طريق الصراط المستقيم. إنهم يخبطون في دروب الحياة خبط عشواء، فيضلّون في متاهات الضياع والفساد. يقول الإمام علي عليه السلام: «ولو فكروا في جسيم النعمة وعظيم القدرة، لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عيلة والبصائر مدخولة».

والعين المدخولة هي ما داخلها قذى أجرى الدمع وسبب الألم. والبصائر المدخولة في قول الإمام عليه السلام، هي البصائر التي داخلها الشيطان فحرفها عن جادة الحق، حرفها عن طريق الله. ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

هل يعني هذا أنهم مصابون بالصمم الفسيولوجي؟ لا، إنهم يسمعون الغناء الماجن. والموسيقى الخليعة، إنهم يسمعون الغيبة والنميمة والنفاق والبهتان، ولكنهم لا يسمعون كلام الله. وإذا سمعوه لا يعونه. فلا يكفي أن تسمع الأذن كلمة الله سمعاً عادياً بل لابد أن تعيها. ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (١).

فالقُرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً.

قال الإمام عليّ عليه السلام للمؤمن التقيّ كميل بن زياد، «يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، والناس ثلاثة، عالم ربّاني، ومتعلّم على سبيل النجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق ويميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق». فالصنف الأخير من الناس، أي الهمج الرعاع، يعيشون حياتهم كريشة في مهبّ الريح لا تقرّ على حال.

إذن فالمطلوب من الإنسان المؤمن المسلم أن يكون واعياً. والله تعالى لا يكلفنا أمراً لا نطيعه. فهو عزّ وجلّ لا يكلف نفساً إلا وسعها. فאלله تعالى إذ يوجب علينا الوعي، إنّما يفعل ذلك لأنّه خلقنا وخلق فينا استعداداً للوعي.

*** عظمة الله وحكمته في خلقه:**

من الشائع أن التوالد لا يحدث إلا في عالمين، هما عالم الإنسان وعالم الحيوان، ولكن التوالد بالمعنى العلميّ الدقيق، يحدث في أربعة

(١) الحاقة/١٢.



عوالم هي عالم الإنسان وعالم الحيوان، وعالم النبات وعالم الجماد .
نعم إنَّ النبات يتوالد، فالحبَّة التي تبذرُها في الأرض، تعطيك سبع سنابل، في كلِّ سنبله مئة حبة . والجماد يتوالد أيضاً، فالكواكب والنجوم والمجرات تتكاثر وتتوالد يومياً لأنَّ الكون في اتساع مستمرٍّ .
ولكن ما يهمنَّا في حديثنا عن الوعي هو توالد الإنسان، وتوالد الحيوان . فلنأخذ طفل إنسان، وولد حيوان، وكلاهما حديث الولادة ماذا نلاحظ؟ . نلاحظ أن طفل الإنسان يولد واعياً وضعيفاً . بينما يولد وليد الحيوان قويَّ الجسم عديم الوعي . وهذا ما نراه في الأفلام العلمية التي تعرض مراحل حياة الحيوان وأساليب معاشه . فما أن يبصر ولد الغزالة النور حتى يأخذ باللعب والعدو حول أمِّه، وما أن يرى أمِّه تعدو هاربة من الصيَّاد أو وحش حتَّى يعدو وراءها . وهذا يدل على عظمة الله وحكمته في خلقه .

أما ولد الإنسان فلا يستطيع القفز والعدو حتَّى السنة الرابعة من عمره، لأنَّ الإنسان يولد ضعيفاً ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ (١) .

فالإنسان يولد ضعيفاً، ويعد قوَّته في دور الشباب، يعود ضعيفاً في الشيخوخة، أي أنه يولد ضعيفاً ويموت ضعيفاً . ولذلك فإن الإنسان مسئول أمام الله عن السبل التي أنفق فيها قوَّته، وهو في دور الشباب .

قد يقول قائل: عجباً لولد الغزال، كيف يقفز ويعدو بمجرد أن يبصر النور؟ ومتى تعلَّم القفز والعدو؟ . ولهذا نقول: وأنت، ما أن تبصر النور

(١) الروم/٥٤ .

حتى تتدفع نحو ثدي أمك فترتضعه فمتى تعلّمت الامتصاص والارتضاع؟ والارتضاع عملية دقيقة تقوم على تحريك الفك وإقامة التوازن بين الحليب المندفع إلى المريء بالارتضاع والهواء المندفع إلى القصبة الهوائية بالتنفّس. فإذا اختل هذا التوازن اندفع الحليب في القصبة الهوائية فاخنتق الطفل. إذن أيهما أصعب وأدق وأخطر؟ العدو والقفز أم الارتضاع؟ لا شك أن عملية الارتضاع أصعب وأدق وأخطر من العدو والقفز علماً أن وليد الحيوان يمارس الارتضاع هو الآخر لحظة نزوله وخروجه من بطن الأم.

ولا تسأل كيف ذلك، لأن السؤال في هذا المجال قرينة على ضعف الإيمان بقدرة الله تعالى وحكمته. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١). وربنا الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى: أي هداه إلى طريق العيش والحياة والإيمان.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣).

فالأمر كله بيد خالق عظيم حكيم، ففي جسم الإنسان مثلاً ملايين ملايين المجرات الخلوية: لقد قرأت في تقرير علمي، أن في كل غرام واحد من جسم الإنسان مليار خلية، فإذا أردت أن تعرف عدد خلايا الجسم فعدّ من واحد إلى ثلاثمئة في ثانية واحدة. هل يمكن ذلك لأي إنسان؟

(١) يس/٨٢

(٢) آل عمران/٤٧.

(٣) البقرة/١١٧.

يقول التقرير لو فرضنا أن هناك إنساناً يستطيع أن يعدّ من واحد إلى ثلاثمئة في ثانية واحدة، لاحتاج هذا الإنسان إلى ثلاثمئة ألف مليون سنة حتى يحسب مجموع الخلايا في جسم الإنسان ﴿هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾^(١). وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر.

على أن السؤال الآن هو:

* لماذا خلق الله في جبلة الإنسان استعداداً للوعي لم يخلقه في جبلة الحيوان؟

لقد خلق الله في الإنسان استعداداً للوعي، لأنّ للإنسان رسالة في هذه الحياة، هي بناء الحضارة، فالإنسان خليفة الله على الأرض. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢).

وخلافة الله على الأرض مسؤولية ضخمة على عاتق الإنسان وأمانة إلهية في عنقه. هذه الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وحملها الإنسان ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾^(٣).

فمسؤولية الإنسان في هذه الحياة كبيرة. وقد خلقه الله مؤهلاً

(١) لقمان / ١١.

(٢) البقرة / ٣٠.

(٣) الأحزاب / ٧٢.

لتحمل هذه المسؤولية. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿(١)﴾.

لماذا ركب الله الإنسان على هذا المستوى من الإبداع؟ لماذا زوّده
بطاقة هائلة؟. إذا أردت أن تعرف الجواب فعد إلى تراث أهل البيت
عليه السلام، حيث تجد فيضاً من الأحاديث التي تفسّر الأبعاد العلمية في قوله
عز وجل ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

فهل فكرت في أصابع اليد مثلاً؟ هل تعرف أن أصابع اليد وقدرتها
على اتخاذ الأوضاع عاملاً أساساً في بناء الحضارة وتطورها؟. يقول
العلماء إن أصابع اليد الإنسانية تستطيع أن تأخذ أربعة آلاف هيئة
وشكل. وأدق جهاز اخترعه الإنسان لا يضاهيها في خفة الحركة
والقدرة على اتخاذ أوضاع تصل إلى أربعة آلاف وضع.

ولأنّ منطلق مسؤولية الإنسان هو وعيه، وحيث أن الله هو الذي خلق
فيه الوعي وأهله لتحمل مسؤولية بناء الحضارة وإعمار الأرض. فهو
مسؤول عن العمل بإرادة الله ولخدمة الإنسان. وحيث أن الحيوان غير
مكلّف بذلك فإن الله تعالى زوّده بالفرائض وركبّه ليكون في خدمة
الإنسان. وبينما يتصاعد الخط البياني لتطور الإنسان ونشاطه. لا
يتطور الحيوان، والخط البياني لنشاطه كان ولا يزال وسيبقى
مستقيماً. خذ النحلة مثلاً، فهي تبني بيتها بشكل سداسيّ مزدوج،
وستظل تبنيه بذلك الشكل إلى أن يشاء الله. لماذا؟ لأنها لا تعرف من
الأشكال الهندسية إلا الشكل السداسيّ. وهي تعرفه بالوحي بالغريزة

(١) الانفطار / ٦ - ٨.



وليس بالوحي، زد على ذلك أن النحلة مزودة بامداد الوحي في كل لحظة ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ في سورة النحل ولكن ماذا نصنع بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١).

إذن: فهي صاحبة حضارة في عالمها الذي يخدم الإنسان فאלله لم يخلق النحلة لتبني حضارة. وإنما خلقها لتكون في خدمة الإنسان. أما الإنسان فقد طور مسكنه من مأوى بسيط يبنيه من جذوع الأشجار وفروعها، إلى ناطحات سحاب مختلفة الأشكال والألوان والتجهيزات التي تكاد لا تحصى. وهو لم يصل إلى ناطحات السحاب إلا مروراً بالحصر فالطين فاللبن فالآجر فالأسمنت المسلح. وعلى خط تصاعدي مواز، تطور من اكتشاف النار إلى اختراع الحاسوب، ومن اختراع العجلة إلى اختراع الطائرات الخارقة لجدار الصوت والمركبات المحلقة في الفضاء.

* ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٢).

إن الله سبحانه وتعالى إذ يكلف الإنسان بإعمار الأرض وبناء الحضارة، لم يكلفه بهذه المسؤولية إلا لأنه أنعم عليه بالوحي وأبدعه بتركيب يؤهله القيام بتلك المسؤولية الضخمة. وزيادة في الإنعام عليه، وزيادة في تأهيله لمهمته سخر له كل شيء. ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٣).

(١) الأنعام/٣٨.

(٢) الجاثية/١٣.

(٣) لقمان/٢٠.



ولنأخذ على ذلك النحلة مثلاً.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

راجعوا كتاب «الطب محراب الإيمان» وكتاب «العسل شفاء» وكتباً أخرى تتناول موضوع العسل، تجدوا أن أكثر من مئتي مرض مستعص يمكن علاجها بالعسل. فالعسل يقتل الميكروبات والجراثيم. خذ قارورة من الدبس وضعها على الرفّ وعد إليها بعد شهرين أو ثلاثة تجدها متعفّنة فاسدة. أمّا إذا كانت القارورة ممتلئة بالعسل، فإنّك لن تجدها فاسدة متعفّنة ولو بعد عشر سنوات. فإذا تركت القارورة بدون غطاء فإن الجراثيم والميكروبات قد تجد لها أرضاً في ذرات الغبار التي تتجمع على فوهة القارورة أمّا في العسل فلن تجد جرثومة واحدة ولا ميكروباً واحداً. لأن العسل لا يقبل الجراثيم والميكروبات. ولتدرك إلى أي مدى سخر الله لك المخلوقات، اعرف أن النحلة تقطع في كلّ رحلة، للبحث عن الرحيق وامتصاصه، من خمسة إلى ستّة أميال. حتّى إذا عادت بالرحيق أخضعته لعمليات كيميائية في جوفها، يتحوّل بعدها إلى عسل لا تلبث أن تفرزه لك، ويقول العلماء أن النحلة تقوم بثمانين ألف رحلة لتوفر لك ملعقة واحدة من العسل . وبعملية ضرب بسيطة للعدد ستّة بالعدد ثمانين تعرف أن النحلة تقطع ما يساوي محيط الأرض

(١) النحل / ٦-٦٩.

سبع مرّات لتعطيك ملعقة واحدة من العسل، فتأمل إلى أي مدى سخر الله لك المخلوقات. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (١).

إذن، للإنسان رسالة في هذه الحياة، فهو مكلف ببناء الحضارة وإعمار الأرض بكل ما فيه رضى الله وخير الإنسان، وقد زوّده الله بالوسائل التي تؤهله للقيام بتلك الرسالة، وأهم تلك الوسائل ثلاث: القلب والبصر والسمع. ولكل من هذه الجوارح وظيفتها التي خصّها الله بها ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (٢).

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (٣).

والإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٤).

* وظيفة الفؤاد:

الفؤاد هو القلب وما يعنيه من عقل ووعي وفكر، والوظيفة الإلهية للقلب، هي ذكر الله والتفكير في خلق السموات والأرض. وتفعيل العقل في كل ما يرضي الله وينفع الإنسان. هذه هي وظيفة قلب الإنسان المؤمن المتوجه إلى الله تعالى. أمّا إذا انحرف الإنسان وانحاز إلى صف

(١) الإسراء/ ٣٦.

(٢) السجدة/ ٩.

(٣) الملك/ ٢٣.

(٤) الإسراء/ ٣٦.

الشیطان فإن أفكاره تتحول إلى وساوس. فلان عنده سیارة آخر مودیل من نوعها، وأنا عندي سیارة مضی على صنعها سنتان. فلان عنده زوجة جمیلة، أما أنا فزوجتي بینَ و بین. فلان عنده أرصدة كبیرة في المصارف، أما أنا فأحمل دفتر توفير. فلان عنده البنايات الكبیرة، أما أنا فأسكن بالإيجار في شقة تضیق بی وبعائلتي. إلى ما شاکل ذلك من الوسائوس الشیطانیة التي تجعل صاحبها فریسة للحسد وطعمة لنیرانه. فیمتصر الألم قلبه، وینطفئ نور الإیمان في نفسه ووجهه، ویتحول إلى حیوان شرس، یتربص بالناس سواءً أو یشتفی بكل مصیبة تنزل بهم، ویشمت بهم لدى كل نكسة تصیبهم. وقد یجر الحسد صاحبه إلى ارتكاب جريمة وهو یجلس إلى الطعام مع زوجته وأولاده، ولنضرب مثلاً على ذلك. لنفرض أن تاجراً یبیع نفس السلعة التي یبیعها جاره. ولكن الناس أكثر إقبالاً على دكان جاره و بینما یبیع جاره بعشرين ألف دینار في الیوم، فإن مبیعاته لا تتعدی الألفی دینار في الیوم. وذلك یؤدي إلى اشتعال الحسد في قلبه، فیصبح همّه الوحید هو رؤية جاره مفلساً. ذات صباح، وأثناء تناوله طعام الإفطار مع عیاله یسمع من المذیاع أن لصوصاً خلعوا أبواب محلّ الجار وسرقوا كل ما فیه من بضاعة وأموال. فیشعر بغبطة لا حدود لها. ویلتفت إلى زوجته قائلاً: الحمد لله یا أمّ فلان. لقد خلصنا من شرّ جارنا، الیوم نحن في عید فاطبخی لنا أشهى الأطعمة. هذا الرجل اقترف جريمة وهو یجلس إلى طعامه، فهو شریک للصوص الذین سرقوا محلّ جاره، وكما یجرون بالسلاسل إلى نار جهنّم یوم القيامة، فإنه یجرّ بسلسلة معهم. قد یقول لمالك خازن جهنّم: «أنا لم أسرق یا سیّدي، وكنت في بیتي

ساعة حصول جريمة السرقة» فيقول له الملك: «لكنك رضيت بعمل اللصوص وفرحت به، فاشتركت معهم». فمن أحبّ عمل قوم أشرك في عملهم وحُشِر معهم يوم القيامة. وعليه نخاطب الإمام الحسين عليه السلام في زيارته قائلين: «لعن الله أمة قتلتك، لعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به».

وهذا يعني أنّ إنساناً يعيش اليوم، أي يفصله عن واقعة الطفّ ألف وثلاثمئة وأربعون سنة، يوم القيامة يحشر مع عمر بن سعد وسائر الذين قاتلوا ريحانة رسول الله الإمام الحسين عليه السلام. لأنّ قلبه رضي بعمل أولئك النفر من الناس.

وظفّوا قلوبكم بذكر الله. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

وليفض ذكره تعالى على لسانكم بالقول: «يا من اسمه دواء وذكره شفاء وطاعته غنى إن ذكر الناس داء. لكن ذكر الله سبحانه وتعالى شفاء».

أيّهما أجمل وأفضل، أن ينشغل الإنسان بذكر الله، أم ينشغل بحسد الناس؟ وعلام يحسدهم؟ أيحسدهم على أموالهم؟.. إذا كانوا قد كسبوها بكدهم وعرق جبينهم، فذلك حلال لهم، وحرّيّ بكل إنسان مؤمن أن يحذو حذوهم، فالإسلام يعتبر العمل عبادة، والكدّ في سبيل العيال جهاداً. والقاعد عن العمل مع قدرته عليه ساقط الشهادة. كان الرسول ﷺ إذا رأى رجلاً لا يعرفه سأل عنه قائلًا: «هل له حرفة؟ فإذا قالوا له: لا، قال ﷺ: سقط من عيني».

(١) الرعد/٢٨.

أما إذا كسبوا أموالهم بطرق غير مشروعة، فإنهم سرّاق ولصوص،
فهل يُحسدون على السرقة واللصوصيّة؟

أحمد الله، فليس بيننا حاسد، لأنّ من يحضر مجالس الإمام
الحسين عليه السلام، الذي كان يبكي إشفاقاً حتى على أعدائه، لا يمكن أن
يحمل بين جنبيه قلب حسود. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)
وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا
حَسَدَ (٥)﴾ (١).

* وظيفة العين:

إنّ وظيفة عين الإنسان المؤمن ثنائية. فالمؤمن لا ينفك ينظر إلى آيات
الله في خلقه من النملة وما دونها حتى المجرة و ماحولها. أمّا المجال
الثاني لوظيفة عين المؤمن فهو القراءة. فأوّل آية نزلت قوله تعالى:
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٢).

فتكون أول كلمة نزلت من القرآن هي «اقرأ». أما كلمة «ربك فربّ
وثيقة الصلة بالتربية، إذ تقول: ربّي يرّبّي تربية. فالقراءة التي يأمر الله
تعالى بها، هي القراءة ذات المقاصد والأبعاد التربويّة. فيجب على
المؤمن أن يقرأ القرآن وتراث أهل البيت عليه السلام والكتب العلميّة
والتاريخية. تلك هي الوظيفة الأساسية التي يكرّس لها المؤمن عينه، أما
المنحرف عن الصراط المستقيم، فإنّه يكرّس عينه لوظيفة ذات مقاصد

(١) سورة الفلق.

(٢) العلق/١.



وأبعاد شيطانية. كأن يقضي أوقاته في التلصص على أعراض الناس حيناً، ومطالعة كتب الخلاعة والمجون حيناً آخر. فهو لا ينفك ينظر إلى المحرمات بعين الشهوة. والله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١).

* وظيفة الأذن:

إنّ الوظيفة الإلهية للأذن هي سماع القرآن وحديث أهل البيت وأخبارهم عليهم السلام. وسماع المحاضرات والمحاورات التي تدور في مجالس أهل الذكر. أمّا الذي يصفى لوساوس الشيطان، فإنه يكرّس أذنه لسماع الغيبة والنميمة والنفاق بقصد الدسّ والفتنة فإذا أراد أن يروّح عن نفسه انصرف إلى سماع الغناء. أي أنّ أذنه لا تترك محرّماً إلا إلى محرّم. نعم إنّ الغناء محرّم بالنص. قال الرسول ﷺ: «الغناء حرام حرام حرام». فهل بعد هذا التوكيد على حرمة الغناء توكيد أشد؟. وهذا حديث رواه الجمهور كافّة ولا خلاف فيه. وهو مثبت عند الشيعة والسنة على حدّ سواء. وقال ﷺ: «وإنّ بيتاً فيه غناء لا ينظر الله إليه ولا تدخله الملائكة».

كتبت إليّ إحداهنّ تستفتيني في الغناء، قالت: يقول بعضهم إنّ الغناء قبل الصلاة حلال، لكنّه بعدها حرام، ويقول آخرون إنّ الغناء حرام قبل الصلاة حلال بعدها. فما رأيكم؟. عجباً، ما الفرق بين ما

(١) غافر/١٩.

قبل الصلاة وما بعدها في هذا الشأن؟ فالحلال حلال، والحرام حرام، ومن المؤسف حقاً أن نسمع خطباً، أو نقرأ مقالات لبعض رجال الدين يحللون فيها الغناء. يا ويلهم من عذاب النار يوم القيامة. إنهم لا يكتفون بتفكيرهم الخاطئ بل يجزّون الناس إليه. وهم إذ يعتبرون الغناء مثلاً في عداد ما أحل الله، أين يذهبون بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيْطُمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (١).

هل وصلت الفوضى في التحليل والتحرير إلى هذا الحد؟! هل المجتمع الإسلامي بأمس الحاجة إلى الغناء لنقول: «إن الضرورات تبيح المحظورات»؟ هل تكون تربية الأجيال بالغناء أم بتعاليم القرآن والسنة؟ أما بالنسبة لما وضعه بعض الكذابين من أحاديث تبرّر فجور البلاط الأموي وفسقه، فإنّ واضعي هذه الأحاديث وناقليها والعاملين بها، جميعاً إلى جهنم وبئس المصير.

* طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة:

إنّ طلب العلم يستلزم قلوباً واعية وأبصاراً مفضوضة عمّا حرّم الله وأسماعاً موقوفة على العلم النافع. وقد جمع أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام كلّ ذلك بقوله في وصف المتّقين: «فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيمهم التواضع، غضّوا أبصارهم عمّا حرّم الله، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع».

(١) الأحزاب / ٣٢.

فَالْعِلْمُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَبْنَاءُ . فَبِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ
يُؤَدِّيَ رِسَالَتَهُ فِي هَذَا الْوُجُودِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « طَلِبَ الْعِلْمُ فَرِيضَةٌ
عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ » فَالْمَرْأَةُ مَكْلُفَةٌ بِطَلَبِ الْعِلْمِ كَمَا الرَّجُلُ سَوَاءً
بِسَوَاءٍ . وَهَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ يَفْهَمُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَا يَنْفَكُونَ يَتَشَدَّقُونَ
بِحَقُوقِ الْمَرْأَةِ ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهَا مَهْضُومَةٌ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَهَذِهِ
مَعْزُوفَةٌ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ جَعَلُوا هَاجِسَهُمُ الْقَضَاءُ عَلَى الْإِسْلَامِ .
﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

إِنَّ الْإِسْلَامَ يَقْرَأُ وَيَقْدِّسُ حَقُوقَ الْإِنْسَانِ رَجُلًا كَانَ أَمْ امْرَأَةً . فَخُطَابُ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

يَتَوَجَّهُ إِلَى كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالًا وَنِسَاءً . وَحَرِيٌّ بِأَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَشَدَّقُونَ
بِحَقُوقِ الْمَرْأَةِ فِي الْغَرْبِ أَنْ يَكْفُوا عَنْ امْتِهَانِ حَقُوقِ الْإِنْسَانِ بِإِذْلَالِهِ
وَتَجْوِيعِهِ وَنَهْبِ خَيْرَاتِ بِلَادِهِ . إِنَّ مَبْدَأَ التَّلِيمِ الْإِجْبَارِيِّ الَّذِي يَتَغَنَّوْنَ بِهِ
أَقْرَهُ الْإِسْلَامِ مِنْذُ أَرْبَعَةِ عَشْرَةِ قَرْنًا . وَطَلِبُ الْعِلْمِ فِي الْإِسْلَامِ شَامِلٌ لِكُلِّ
عِلْمٍ نَافِعٍ دِينِيًّا كَانَ أَمْ دُنْيَوِيًّا . وَمَقْيَاسُ النِّفْعِ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ فَرْدِيًّا .
فَعَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَرَاعِيَ فِي تَخَصُّصِهِ الْمَنْفَعَةَ الْجَمَاعِيَّةَ أَيْضًا .
لَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ فُرُوعِ الْإِخْتِصَاصِ مُفِيدَةٌ . وَلَكِنَّ الْمَلْفِتَ لِلنَّظَرِ أَنَّ قِسْمًا
كَبِيرًا مِنْ طُلَّابِ الْجَامِعَاتِ يَتَزَاحَمُونَ عَلَى مَقَاعِدِ الطَّبِّ وَالْهَنْدَسَةِ .
وَنَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْأَطِبَّاءِ وَالْمُهَنْدِسِينَ وَإِلَى سَائِرِ الْإِخْتِصَاصَاتِ . وَلَكِنَّ
حَاجَاتِنَا إِلَى خِبْرَاءٍ فِي الْعُلُومِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْعُلُومِ السِّيَاسِيَّةِ لَا تَقِلُّ إِنْ

(١) التوبة/٣٢ .



لم تزد عن حاجتنا إلى الأطباء والمهندسين. فكم طالباً في جامعات البلدان الإسلامية جعل هدفه في الحياة أن يكون عالماً خبيراً في السياسة أو الاقتصاد؟ لماذا تستعين مؤسساتنا الاقتصادية والمالية بخبراء أجانب؟ وعلى ما أعلم إن كثيراً من تجار الكويت مثلاً يستدعون خبراء أجانب لينظموا لهم أعمالهم أو ليصفوا لهم حساباتهم وإلام الاعتماد على الأجانب في شؤوننا الاقتصادية والسياسية؟ هل يجوز أن نضع مصيرنا بيد اليهودي الصهيوني كيسنجر وأمثاله ممن تلاعبوا ويتلاعبون بحقوقنا وكرامتنا ومقدراتنا؟!

ذلك على صعيد العلوم الدنيوية، فماذا بالنسبة للعلوم الدينية؟ إن الإسلام في أيامنا يصيح قائلاً: واقلة ناصراه! وإن القرآن يهتف بنا منادياً: ألا هل من ناصر؟

إن الإسلام بحاجة إلى مبلغين يطوفون في الأرض ويدعون الناس إلى الصراط المستقيم، إلى دين الإسلام، يبلغون الناس رسالة خاتم الأنبياء وأعظم المرسلين محمد ﷺ. إن الإسلام بحاجة إلى من يبصر الناس بأمور دينهم ودنياهم. ومن يقدر على القيام بذلك خير قيام غير الشباب؟ إن عندنا معيناً من العلوم الإسلامية لا ينضب، فهلاً أقبلتم أيها الشباب على الحوزات العلمية لتغترفوا من ذلك المعين الصافي ولتتساحوا بعد ذلك، في أفريقيا وآسيا وأمريكا وسائر القارات مبشرين بدين الإسلام. هل تعرفون أن الأوروبي يزور عن الإسلام لأنه يجهله، وما أن يعرفه على حقيقته حتى يصبح مؤمناً به متحمساً له؟ إلام نسمح للصهيونية والتطرف بتشويه الإسلام وتصويره للأوروبي، والأميركي على أنه دين البداوة والهمجية؟ والارهاب مع أن الأوروبي أو

الأميركي أو أي أجنبي يقرأ التاريخ بإنصاف، يعرف حق المعرفة أن
الإسلام دين الحضارة والإنسانية.

أيها الإخوة والأبناء.

لا أذيع سرّاً إذا قلت أن الصهيونية تسيطر على الاقتصاد والإعلام
العالميين. وتسيطر على السياسة العالمية من خلالهما. فهل يجوز
للمسلمين الذين كانوا أساتذة الحضارة وسادة العالم أن يستسلموا
للصهيونية التي أغتصبت أرضهم وهتكت عرضهم ودنّست مقدساتهم !!
إنّ المسلمين اليوم مدعوون لإثبات وجودهم واسترداد حقوقهم وإنقاذ
مقدّساتهم، ليعلم كل قاصّ ودان أن ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).
فليتّحد المسلمون وليضعوا نصب أعينهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا
تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

*** لماذا يضلّ الغرب شبابنا: وكيف؟**

لقد بات واضحاً للعيان أن الاستعمار والصهيونية ناشطان لتضليل
شبابنا وحرفه عن الصراط المستقيم، وذلك بإغراقه في خضمّ من
الفناء الخليع والاستهتار الخلقي والأفكار الهدّامة التي يعلّبونها في
الغرب ويصدّرونها إليه معلّبة جاهزة تحت شعارات التحرّر والتقدميّة
الزائفة فيتلقّاها بعض شبابنا السذج الذين يجهلون حقيقة دينهم

(١) المنافقون/٨.

(٢) آل عمران/١٣٩.



الحنيف، كما أنهم يجهلون أهداف الغرب والصهيونية وما ترمي إليه هذه الأهداف الخبيثة. وكثيراً ما يصيح الشباب المغرر بهم قائلين: «خلّصونا من الدين ورجال الدين». أي دين يطالب بالخلاص منه هؤلاء المضللون؟ أيطالبون بالخلاص من الدين الإسلامي؟ وهو الدين الذي جاء لخلاص الإنسانية جمعاء؟

أيّها الأخوة والأبناء أيّها المسلمون في كل مكان اقرأوا كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون»، تعرفوا الخطط التي وضعها اليهود لتدمير الإسلام، بل لتدمير الإنسانية تمهيداً للسيطرة على مقدرات ومصائر الشعوب. وأقصر طريق إلى تلك الأهداف المنافية لأبسط المبادئ الإنسانية، هو تدمير القيم الدينيّة والأخلاقيّة للشعوب بعد الزجّ بها في متاهات الكفر والإلحاد والخلاعة بمختلف فنونها وأشكالها. وفي هذا الصدد تحضرني النادرة التالية: يُروى مختاراً، والمختار كما نعلم مسؤول إداري يُختار من رجالات المحلّة، كان يملك قطعاً ولبلاً. وكان هذا المختار شخصيّة محبوبة ومحترمة. إلّا أنّ هماً واحداً كان ينغص عليه حياته. أما هذا الهمّ فهو جمع القطّ والببل في قفص واحد. وكان في كلّ مرّة يحاول ذلك يصاب بخيبة شديدة، إذ يشب القط على الببل يريد افتراسه. ذات يوم، وبينما كان في مكتبه مرّ بقريه درويش، فناداه قائلاً: «تعال أيّها الدرويش فإن لي إليك حاجة». جاء الدرويش وقال للمختار: «ما حاجتك؟». فقال المختار: إنّ عندي قطعاً ولبلاً، أمنيّتي أن أراهما يعيشان بسلام ووئام في قفص واحد، فهل تستطيع أن تقوم بهذه المهمّة التي عجزت كلّ محاولات لتحقيقها؟ قال الدرويش حبّاً وكرامة. آتيني بالقطّ والببل والقفص وأمهلني ساعة

واحدة أخلو بالقطّ والببل في غرفة لا يدخلها عليّ أحد. ففعل المختار ما طلب إليه الدرويش. وبعد ساعة خرج الدرويش من الغرفة يحمل القفص وبداخلة القطّ والببل. والببل يغرّد ويمرح، والقط يقع مقابله مطأطئ الرأس لا يحرك ساكناً، ذهل المختار عندما رأى ذلك وأخذ القفص فوضعه أمامه وقال للدرويش: «ماذا فعلت حتى استطعت أن تحقق في ساعة ما عجزتُ عن تحقيقه في سنوات؟». قال الدرويش: «لقد قمت بعمل جبّار وحققت لك أمنيتك وانتهى الأمر» قال المختار: «حسناً فعلت وهاك عشرة دنانير مكافأة لك». أخذ الدرويش المكافأة وانصرف أمّا المختار فقد استغرق في تأمل القطّ والببل بسعادة غامرة. ولكن وبعد ساعة واحدة وبسرعة مذهلة وثب القط على الببل وافترسه. أسقط في يد المختار وأصيب بصدمة كبيرة عندما رأى حلمه يتبدّد فجأة أمام عينيه، فصرخ على شرطيين كانا عنده. وقال لهما: «في المحلّة درویش، فتشّا كل مكان وإتياني به على وجه السرعة، ومهما كلّف الأمر!» جدّ الشرطيّان في البحث عن الدرويش، وبعد فترة عادا به إلى المختار. فلما أدخلاه عليه، قال له المختار: لا بأس عليك أيّها الدرويش، كن مطمئناً فلن أصيبك بمكروه. ولكن أخبرني ماذا فعلت للقطّ حتى جعلته يصبر على افتراض الببل ساعة كاملة؟ قال الدرويش: لقد طلبت إليّ أن أجمع القطّ والببل في قفص واحد. واجتماع الضدين أمر مستحيل. وبما أن القط هو الذي يشكّل الخطر على الببل، رأيت أن الطريقة الوحيدة لجمعهما هو تعطيل عقله ولو لفترة يعمى فيها عن رغباته وأهدافه، فأخذت القطّ وغطيت رأسه بطرف عباءتي، ثم أخذت ألوح رأسه يميناً وشمالاً وبسرعة حتّى تأكّدتُ

أنه داخ، وبات لا يرى طريقه ولا يميّز عدوّه من صديقه. فلمّا زالت الدوخة عنه وعاد إليه وعيه قفز على البلبل وأكله.

ومثلنا، نحن المسلمين، مع الغرب الكافر الصهيونية المجرمة، كمثّل القطّ والبلبل، إنهم لا يفتأون يبتكرون الأساليب الذي يدوّنونا بها ليعطلّوا عقولنا ويضلّلونا عن أهدافنا ومصالحنا لنسلسل لهم قيادنا ونصبح كالأنعام بل أضلّ سبيلاً، ومن المحزن أن يستجيب بعض الشباب المسلم لدعوات الغرب الكافر والصهيونية المجرمة، فيقعوا ضحية لمخططاتهما الأثيمة. ويصحّ في هذا البعض التائه عن دينه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١).

إنّ الأنعام أفضل من أولئك الغافلين عن دينهم. لأنّ الأنعام مطيعة لله بغرائزها. أمّا هم فمنحرفون عن الله عاصون له بعقولهم التي دوّخها وعطلّوها أعداء الإسلام «أولئك هم الغافلون» أي الذين فقدوا الوعي. من هنا تتبيّن لنا الأهمية القصوى لحفاظ المسلم على عقله واعياً. يميّز الحقّ عن الباطل والصديق من العدو. فالوعي الإسلامي هو الخطر الأكبر على الاستعمار والصهيونية.

*** من هو المسلم المؤمن الواعي:**

المسلم المؤمن الواعي هو الذي يعتصم بدينه لأنه حبل الله المتين ويكون مستعداً للتضحية في سبيل الله بنفسه وأهله وماله كما فعل

(١) الأعراف/١٧٩.

أهل البيت عليهم السلام. يصف الإمام الصادق عليه السلام أبا الفضل العباس عليه السلام فيقول «كان عمنا العباس بن عليّ نافذ البصيرة صلب الإيمان جاهد مع أبي عبدالله عليه السلام وأبلى بلاءاً حسناً ومضى شهيداً» وأعياء يقطعون يمينه فيقول:

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأميني

هذا مثال للوعي الإسلامي، للمسلم المؤمن الواعي الذي لا يهرب من دينه ويتحمل المسؤولية في أخرج اللحظات وأدق الظروف. وأبو الفضل العباس عليه السلام شأنه في ذلك شأن سائر أهل البيت عليهم السلام.

أما المثال الثاني للمسلم المؤمن الواعي فهو من عامة المسلمين بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام اتخذ عبيد الله بن زياد مجلسه. وأدخل عليه من بقي حياً من أهل البيت عليهم السلام، وفيهم زينب وأم كلثوم وزين العابدين ومن معهم من الأطفال. بعد ذلك وقف ابن زياد خطيباً في الناس فقال «وأنى الله لا أدري أقول كل ما تقوّه به هذا الطاغية أم لا؟ ولكن لا بد من أن أقول لكم بعض ما قاله لتروا سياسته في محاربة الدين» قال من جملة ما قال: «الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته».

نعم ودون استحياء من الله، وعلى ملأ من الناس المفتح البصر المعمي البصيرة، إلا واحداً كان أعمى البصر، مفتح البصيرة هو عبدالله بن عفيف الأزدي الذي كان من أصحاب الإمام علي عليه السلام وقد جاهد معه ففقد إحدى عينيه في موقعة الجمل، وفقد الأخرى في موقعة صفين.

إلا أنه لم يفقد الوعي الإسلامي الذي رسّخه في نفسه الإمام عليّ عليه السلام. لقد انبرى هذا المؤمن الواعي البصيرة وردّ على ابن زياد قائلاً: «يا بن زياد، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عدوّ الله». فقال له ابن زياد بصلف وخطرسة متوهماً أنه يخيفه بهما: «من المتكلّم؟ من المتكلّم؟». فقال له عبدالله: أنا المتكلّم يا عدوّ الله أتقتلون أبناء النبيّين وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المسلمين؟! أين المهاجرون والأنصار ينتقمون منك ومن طاغيتك اللعين ابن اللعين؟! على لسان رسول رب العالمين؟! فاستشاط ابن زياد غاضباً وقال: خذوا هذا الأعمى واضربوا عنقه. إلا أن الموجودين في المجلس من عشيرة عبدالله أحاطوا به وأخرجوه إلى بيته. فجرّد ابن زياد عليه زبانيته وطلب إليهم أن يأتوه به. وكان لعبدالله طفلة صغيرة وقفت على تلة أمام بيتهم تنبّه أباهما قائلة: جاؤوك من اليمين.. جاؤوك من الشمال. وعبدالله يجالدهم بسيفه قائلاً: «والله لو كشف لي عن بصري، لضاق عليكم موردي ومصدري». ولكنهم تكاثروا عليه فأمسكوا به وأخذوه إلى ابن زياد. فلمّا أدخلوه عليه، قال له ابن زياد: الحمد لله الذي أخزأك. قال عبدالله: وبماذا أخزاني والله لو فرج لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري قال ابن زياد: أخزأك بموقفك هذا أمامي يا عدو الله ما تقول في عثمان؟! فشتمه ابن عفيف وقال: ما انت وعثمان أساء أم أصلح أم أفسد وان الله تبارك وتعالى ولي خلقه يقضي بينهم وبين عثمان بالعدل والحق ولكن سلني عن أبيك وعنك وعن يزيد وأبيه، فقال ابن زياد: لا سألتك عن شيء ولتذوق الموت غصة بعد غصة.

وقال عبدالله: اسمع يا بن زياد، إنني قد سألت الله تعالى أن يرزقني الشهادة على أيدي ألن خلقه وأبغضهم إليه، - لاحظوا كيف يتفنن هذا

الرجل في طلب الشهادة، إنه لا يريد شهادة وكفى، بل يريد شهادة على أيدي ألّعن خلق الله وأبغضهم إليه حتى يتعاضم ثوابه - ويتابع عبدالله قائلاً: «فلماً كفّ بصري يئست من الشهادة. والآن، الحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس». فقال ابن زياد متوهماً أنه مرة ثانية سيحصر عبدالله في زاوية ضيقة: وما أنت وعثمان؟».

فقال عبدالله: سلني عنك وعن أبيك فأعلمك أن سبعة عشر رجلاً ادّعوا الأبوة لأبيك. كل واحد منهم يقول هذا ابني، وتساءلني عن عثمان؟!!» فقال ابن زياد: «والله لا سألتك عن شيء حتى تذوق الموت غصّة بعد غصّة» فقبض عليه زبانية ابن زياد وجلادوه وقتلوه قتلة شنيعة فظيعة. فشحط بدمائه الزكيّة والتحق بمواكب الشهداء في سبيل الله في جنّات عرضها السموات والأرض.

هذا هو المسلم المؤمن الواعي. الذي يعرف أن أفضل عبادة الله هي كلمة حقّ عند إمام جائر يقولها المؤمن بشجاعة وصراحة، حتى ولو كلفه ذلك حياته. وهو غير ضنين بهذه الحياة لأنّه على حدّ تعبير عبدالله بن عفيف الأزديّ، يعتبر الشهادة في سبيل الله رزقاً ونعمة.

إنّ الوعي الإسلامي لا يتمثل في قلب شجاع فحسب، بل يتمثل أيضاً في عقل واع وبصيرة نافذة. والإمام الصادق عليه السلام إذ يخاطب أبا الفضل العباس عليه السلام قائلاً: «أشهد لقد هُتكت بقتلك حرمة الإسلام». إنّما يقول ذلك لا لأنهم قتلوا في أبي الفضل العباس شجاعاً بطلاً فحسب، بل لأنهم قتلوا فيه أيضاً عالماً فذاً من علماء ومجتهدي آل محمد عليه السلام. فالوعي لا يكون بالشجاعة فحسب، بل لابدّ من اقترانها بالعقل حتى يكون الوعي كاملاً متكاملًا، كما كان الأمر عند أبي الفضل العباس عليه السلام.

مسألة في الفقه

التفقه حالة في الإنسان يتم تحصيلها من خلال الطهر والصفاء، والإيمان والتقوى، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، والعلم ليس بكثرة التعلم وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، أو في قلب من يحبه، واتقوا الله ويعلمكم الله، فإذا قرأ العلماء خبرين في كتاب واحد موثوق ومسند وحكيم، والخبر الأول يفيد بأن الحائر الحسيني يمتد من القبر إلى عدة أمتار ليس أكثر، في حين يفيد الخبر الثاني ويؤكد أن الحائر الحسيني، وهو حرم الإمام الحسين عليه السلام، إنما يقع في خمسة فراسخ من القبر إلى أربع جهات..

إذا: فهذان حديثان وكلاهما صحيحان ويحظيان بنفس النسبة من الثقة في النقل والرواية والدراية والمصدر فأبي حديث فيهما يمكن أن يكون أكثر تطابقاً مع الواقع؟ وهنا تظهر قدرة الفقيه على الاستنباط الصحيح، فلو أخذ فقيه بحديث الحائر على بعد أمتار من القبر، فإن هذا لا يجري مع الواقع لأن كربلاء المقدسة يقصدها عشرات الملايين من الزائرين في كل عام، بل إن يوماً واحداً يوم الأربعاء، يتوجه فيه أكثر من أربعة عشر مليوناً من الزائرين إلى مرقد الإمام الحسين عليه السلام وهذا العدد يستدعي قبول رواية الخمسة فراسخ من أربع جهات لأنها رواية تنطبق على واقع الحال بخلاف رواية العدة أمتار، علماً بأن رواية الأمتار هي داخلة في هذه الرواية في حين أن رواية الفراسخ لا تدخل في رواية الأمتار إذا أخذنا بها فقط دون غيرها.

أقول: هنا تظهر عبقرية الفقيه وبعد نظره، عندما تكون المسألة
الفقهية مطابقة للواقع الملحوظ.

ومن هذه المقارنة نخرج بنتيجة تقول: أن الرواية الصحيحة إنما هي
الرواية الخمس فراسخ لأن حرم الحسين عليه السلام يمتد لخمسة فراسخ
في أربع جهات كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام.

كلام الزهراء عليها السلام
خلاصة الخلاصة

كلام الزهراء عليها السلام خلاصة الخلاصة

إن فاطمة الزهراء-سلام الله عليها-هي أم الأئمة المعصومين، وهي بنت الإسلام وأم الإسلام، ومعجزة الإسلام الخالدة، كما القرآن معجزة الإسلام كذلك الزهراء لأنها هي التي تحفظ المعادلة في حديث الثقلين قائمة.. فهي أم العترة الطاهرة، التي جعلها الرسول ﷺ عدلاً للقرآن الكريم في الحديث السابق: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي... ما إن تمسكتكم بهما لن تضلوا من بعدي.. وقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض...».

أقول: فما دامت فاطمة أم الأئمة وأم أبيها، فإن كلامها يعتبر خلاصة الخلاصة، وزبدة المخض، ونور النور ولذلك تجد الأئمة يأخذون كلام أمهم فاطمة وينطلقون من خلاله شرحاً وتفسيراً من أجل عرض مبادئ الإسلام بشكلها الصحيح. وتعالوا معي الآن حتى نمضي دقائق معدودة في قراءة من كتاب الكافي للشيخ الكليني رحمة الله عليه؛ هذا الرجل الذي سلخ من عمره عشرين عاماً في تأليف هذا الكتاب الذي هو كافٍ بحق لمن أراد الحقيقة، ولمن أراد الخلاص من الظلام، والحرمان.

* مضار السرقة في رأي الزهراء عليها السلام:

إن نظرة معمّقة نلقيها على نظرية الزهراء-سلام الله عليها- في السرقة، تكفي لإعطائنا صورة واضحة، تفسر لنا جانباً مهماً من



جوانب فلسفة تحريم السرقة... وملخص هذه النظرة أن تفشي السرقة، وانبعاثها في المجتمع يؤديان إلى انتشار رائحة البطالة فيه فزواج السرقة، يخلق أعداداً كثيرة من البطالين والسبب في ذلك أن السارق الذي يتعود السرقة، ويألفها سيترك العمل حتماً لأنه وجد طريقاً يدر عليه أرباحاً من دون عناء ولا تعب ثم إن تفشي السرقة يمكن أن يؤدي إلى عرقلة جهود أصحاب العمل في تشجيع الإنتاج مما يقف حجر عثرة في طريق مسيرة هذا العمل الذي لا بد منه من أجل دورة الحياة الإنتاجية لذلك يحرص الإسلام على حماية الحقوق بقسوة عادلة، فيقطع يد السارق عبرة للآخرين. واستتكار التمر على جهود الكادحين، إذ بوسع السارق أن يجتهد ويعمل ليحصل على الإنتاج نفسه من الطرق المشروعة النظامية.

* السرقة والزنا من خلال القرآن:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾.

يتبين لنا من هاتين الآيتين أن السرقة ظلم، لذلك قال: من بعد ظلمه.. فالسرقة ظلم للإنسان السارق، وظلم للآخرين، ففيها ظلم فردي وظلم اجتماعي. فالسارق ظلم نفسه لأنه وضعها في غير

(١) المائدة / ٣٨-٣٩.

موضعها الذي أراد الله سبحانه، وظلم المجتمع لأنه اعتدى على حقوق الآخرين ورؤع الأمنين.

كما يتبين لنا أيضاً من هاتين الآيتين أن القرآن الكريم قدّم السارق على السارقة، بينما في جريمة الزنا يتقدم ذكر الزانية على الزاني، ففي آية السرقة يقول القرآن: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ أما في الزنا فإنه يقول: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (١).

في السرقة قدم السارق على السارقة... وفي الزنا قدم الزانية على الزاني، والسبب في ذلك واضح وهو عبارة عن عوامل نفسية واجتماعية، فالعوامل النفسية هي التي جعلت السارق يتقدم السارقة، لأن السرقة تحتاج الى خشونة، وجرأة وإقدام، وهذه الصفات في العادة تكون متوفرة وموجودة في الرجل أكثر منها عند المرأة، التي بطبيعة تكوينها تضعف عندها هذه الخصال... في حين أن جريمة الزنا تحتاج إلى إغراء وغواية، وزينة ودلال وتغنج، وهذه عوامل مؤثرة في الاجتماع أوقل: في المجتمع... وهذه متوفرة في المرأة وليس في الرجل، فالمرأة هي التي تبث الفتنة، وتنشر الغواية، وتوزع الإغراء على الرجال الأجانب - طبعاً حين نقول: المرأة فإننا، لانعني - بالضرورة - كل النساء - وإنما نعني المرأة الفلتانة الساقطة، يقابلها الرجل الفلتان السافل الساقط الذي يلهث وراء أعراض الناس، وإرواء شهواته المشتعلة بنار الجهل والمراهقة.

إذن: فالغواية والزينة أو التزيين، والقدرة على الإغراء، إنما هذه

(١) النور/٢.

الخصال نجدها متوافرة في المرأة وليس في الرجل، لذلك قدمها القرآن الكريم على الرجل لأنها- أي المرأة- هي السبب المباشر في نشر هذا البلاء.. على أن ذلك لا يعفي الرجل من المسؤولية، ولذلك تقول الزهراء-سلام الله عليها- عندما سئلت: ما يزين المرأة؟ قالت: ألا ترى رجلاً، ولا رجل يراها...»

أضف إلى ذلك أن مهمة تطهير المجتمع من الفساد مهمة ملقاة على عاتق المرأة والرجل.. فالرجال والنساء وظيفتهم تطهير المجتمع من الظلم والفساد.. وذلك من خلال إجراء وتطبيق قانون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾ (١).

وتقول آية كريمة ثانية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٢).

وهذه الآيات تبين لنا وظيفة المرأة إلى جانب وظيفة الرجل الاجتماعية.. أي أن على المرأة وظيفة اجتماعية عليها أن تقوم بها وإلا فهي مسؤولة أمام الله... لا.. بل أكثر من ذلك أن وظيفة المرأة لم تكن تقتصر على المجتمع فقط، وإنما لها وظيفة لاتقل عن الأولى أهمية، وهي وظيفة قيادة الأسرة في الجانب التربوي فحجر الأم أعظم مدرسة تربية في الإسلام...

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

(١) الفتح/٢٥.

(٢) التوبة/٧١.

وإنما ذكرنا هذه الوظائف ذات الحيوية للمرأة، وذلك حتى يكون الكلام واضحاً من ملاحظة تقديم المرأة على الرجل في آية الزنا، فالمرأة المقصودة هناك إنما هي غير المؤمنة، هي المرأة الحافلة بالشر المنطلقة في ركاب الشيطان مثلها في ذلك مثل المرأة الناشز التي أمر القرآن بضربها، وضربها إنما هو لتأديبها لأن الضرب في حالة النشوز هو علاج لمرضِ نفساني، وسيأتي الكلام عليه في مكانه إن شاء الله في هذا الكتاب.

إذن: فتقديم المرأة على الرجل في جريمة الزنا، لايعني -بالضرورة- إعفاء الرجل من اللوم والعقاب، وإنما فقط أردت أن نستوعب دقة التعبير القرآني الكريم.

مخالفة الأمويين والعباسيين

أحكام الله في قطع الأيدي

تناول القرآن الكريم في بعض آياته موضوع قطع الأيدي، فقال في سورة المائدة مثلاً: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

والشيء الملفت للنظر، والغريب هو أن هذه الآية ذكرت موضوع قطع الأيدي، وهو بحث مشترك أو قل: له قاسم مشترك بين هذا الحكم، وحكم قطع يد السارق. أقول: والغريب أن أعداء الإسلام من حكام الأمويين والعباسيين وغيرهم الذين جاؤوا وحكموا رقاب المسلمين باسم الإسلام، والإسلام منهم بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، هؤلاء الحكام الخونة بدل أن يطبقوا هذه الآية على المفسدين، طبقوها على المؤمنين الصالحين، وطاردهم تحت كل حجر ومدر.. أجل لقد طاردوا أبناء فاطمة -سلام الله عليها- في كل مكان وزمان هادفين بذلك إلى محوهم وإزالتهم من الوجود حتى لا يبقى منهم باقية.

ولا عجب ولا استغراب في ذلك، فإن هؤلاء الظلمة وأعوان الظلمة، كانوا هم المفسدون في الأرض، وكانوا يعلمون أنهم هم المفسدون،

(١) المائدة/٣٣.

ولكنهم بسبب حقدهم وخوفهم على مصالحهم المادية طبقوا هذه الأحكام على المؤمنين من الرجال والنساء من أبناء وبنات الزهراء، الذين يخالفونهم في العقيدة والمنهج والسلوك.. يظهر ذلك جلياً من خلال قراءة كتاب «مقاتل الطالبين» لأبي الفرج الأصفهاني الذي يتحدث فيه عن مصارع أبناء فاطمة، وكيف طاردهم بنو أمية، وبنو العباس، وحاربوهم ليس فقط برفع السلاح في وجوههم، ولكن أيضاً بقطع الطعام والمعاش عنهم حتى كانت الفتاة الفاطمية لاتجد رغيفاً تسد به جوعها ولا ثوباً تستر به وجهها.

وقد ذكر المؤرخون أن ظروفها قاسية مرت على أهل البيت كانت فيه كل عشر فتيات من بنات فاطمة الزهراء، لا يملكن أكثر من عباءة واحدة كن يتناوبن في لبسها في أوقات الصلاة.

أجل.. فهذا هو دين الحكام الخونة، وخلفاء الجور، وسلاطين الحقد والاستبداد، فليس لديهم شيء أنفس ولا ألد من الشياطين تتلوى على ظهور الأبرياء، وليس لديهم شيء أطيب ولا ألد من السيف يحصد رقاب الفقراء والضعفاء، كما انه ليس لديهم شيء أكثر قيمة من السجون تختنق بالأحرار والأبرياء والشرفاء.. هذا هو دينهم، ودأبهم.. وهذه هي سيرتهم الذاتية.. بحيث ترى الواحد منهم يجلس وفي يده سوط، وعلى شفثيه كأس خمر، وفي قلبه إصرار على الجريمة لايمائله إصرار.. وفي صدره جشع وعدوانية، يذوب أمامهما كل جشع وكل عدوانية. نعم، هكذا كانوا، وهكذا حكموا البلاد.

وحتى نعرف كم كان الظلم مبيثوثاً ومنتشراً بين الناس، يكفي أن نسمع زهير بن القين - رحمه الله - وهو يقف يوم عاشوراء يلقي

خطابه التاريخي العظيم، الذي ألقاه قبالة جيش الحقد والعدوان، جيش بني أمية وأهل الكوفة الذي خانوا الله وخانوا الرسول، وخانوا أماناتهم وهم ينظرون. وقف زهير ليعلن للعالم عن استبداد الظالمين الذين أشارت إليهم الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- في خطبتها وحي تحذر العالم من مغبة السقوط في حبائل الظالمين، فها هو زهير بين القين يقف بين يدي ريحانة الرسول، وابن الزهراء البتول، أبي الأحرار وسيد شباب أهل الجنة، أبي عبد الله الحسين -صلوات الله وسلامه عليه- يقف زهير بين يدي الحسين وهو يسمع بكاء الأطفال وصراخ الصبية من العطش.. أقول: يقف هنا زهير، ليوجه خطابه إلى جيوش الحقد والعدوان، إلى رجال قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله العظيم، فتباً لهم ولما يريدون، إنا لله وإنا إليه راجعون.

يقول زهير: يا أهل الكوفة حذار لكم من عذاب الله.. إلى آخر خطبته.

* رأي العلماء في آية السرقة:

اهتم العلماء كثيراً بآية السرقة، فشرحوها وأفاضوا في تفسيرها والتعليق عليها، ومن جملة ما قالوا أن هذه الآية مجملة في إيجاب القطع على السارق، وبيان ذلك مأخوذ من السنة.. واختلفوا في القدر الذي يقطع به يد السارق.

فقال أصحابنا : يقطع في ربع دينار فصاعداً... وعلى هذا سار



الشافعي في مذهبه، والأوزاعي، وروت عائشة عن النبي ﷺ: أنه قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار، فصاعداً...»، واحتج أبو العلاء المعري في مجلس الشريف المرتضى كما مر علينا فقال:

يَدُ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ وَدِيَتْ مَا بِأَلْهَا قُطِعَتْ فِي رِبْعِ دِينَارٍ
فَأَجَابَهُ الشَّرِيفُ الْمَرْتَضَى قَائِلاً:

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا، وَأَرْخَصُهَا ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

وهنا يبدو واضحاً، كيف أن الأمانة ترفع الإنسان الى أعلى عليين في الدنيا والآخرة، في حين أن الخيانة تحط وتذل الإنسان، وتهوي به في أسفل سافلين.

واللام في «السارق» و «السارقة» للجنس ويكون المعنى عاماً شاملاً أي كل من سرق رجلاً كان أو امرأة. وقد بدأ بالسارق لأن الغالب وجود السرقة في الرجال.. أما في آية الزنا، فقد بدأ بالنساء فقال: الزانية والزاني، لأن الغالب وجود ذلك في النساء وقد تقدّم الحديث على هذا الموضوع، وهو ما قاله صاحب مجمع البيان، ولكن الذي لم يقله ولم يذكره، هو وجود الصفات التي مر ذكرها علينا في الصفحات الماضية.

قصة السارق والشیطان

من القصص الممتعة الواقعية التي نفيد من قراءتها، قصة السارق والشیطان التي تدل على عجب تدبير الأمور ومحاسن التقدير. تقول القصة:

دخل لص أحد البيوت، وأراد أن يسرق، فوجد أهله نائمین لأنه دخل في ساعة متأخرة من الليل .. وكانت الأسرة مؤلفة من الزوج وزوجته وطفل صغير، كانوا كلهم نائمین في حجرة كانت قائمة في البيت.. وهنا بدأ اللص يفكر في حيلة يهتدي بها إلى دخول الحجرة ليسرق ماخف وزنه وغلا ثمنه.. وفي العادة - أن الذي يفكر في طرق ملتوية كهذه، فإن الشیطان يكون حليفه وهو الذي يساعده ويمدّه في خطط جاهزة ومهيأة للتنفيذ.. وأخيراً اهتدى اللص بفضل الشیطان وإغوائه إياه، إلى خطة تقوده، وبأسهل الطرق وأسرعها إلى الجحيم . ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ . (١)

والخطة تتلخص في أن يدخل اللص إلى الحجرة في هدوء، وسكوت ويحمل الطفل الصغير إلى صحن الدار ثم يقرصه قرصة حتى يصيح الطفل ويرتفع صوته بالبكاء، فإذا سمع أبواه صوته خرجا إليه من الحجرة، وهنا فكر اللص أن يدخل الحجرة ويحمل الأشياء المسروقة ثم يغادرها في لحظات، وقبل عودة الزوجين إلى الحجرة.

وترأت له الخطة مزينة وجميلة، لأن وظيفة الشیطان هي تزيين الرذائل كما ذكرت الآية، وتجميل القبائح. وما كاد يستقر رأيه على هذه

(١) العنكبوت/٣٨.

الخطبة الشيطانية، حتى أسرع الى الحجرة في خفة بهلوان، ونفذها في سرعة ودون أن يحس به أحد، فها هو الطفل الصغير قد وضعه اللص في صحن الدار ثم لسعه في بدنه الناعم لسعة تركته يعج بالبكاء والصراخ وما كاد الزوجان يسمعان صوت طفلهما الصغير يبكي في صحن الدار حتى قاما مذعورين، وغادرا الحجرة متوجهين إلى حيث يأتي صوت الرضيع. وجلسا عنده والدهشة تطل من عيونهما، وهما مرتبكان لا يعرفان كيف يتصرفان.

أما اللص فقد أسرع إلى الحجرة يجمع الحلي والحلل، ويسرق النقود التي كانت هناك، وفي هذه الحال، وبينما اللص مشغول بجمع الأموال والثياب، إذ حدث زلزال قوي وعنيف أدى إلى سقوط الحجرة على اللص فدُفن تحت حطامها، وحجارتها، في حين نجا الزوج والزوجة والطفل لأنهم كانوا في صحن الدار وليس داخل الحجرة!!.

هذه القصة واقعية، وهي تدل على عجب تدبير الأمور، ومحاسن التقدير، ولاشك أن فيها عبرة ودرسا، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فما يُدرينا متى تقع الواقعة وتنتهي أيامنا في هذه الحياة؟! ولذلك ينبغي على كل واحد منا أن يحفظ نفسه دائما في طاعة الله، وأن يبتعد عن معاصي رب العالمين... إذ إنه لا يدري متى يختطفه الموت وعندها لا ينفع الندم.

وقد ورد في وصية الإمام علي أمير المؤمنين -سلام الله عليه- لولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، وطبيعي أن الوصايا من هذا القبيل، إنما هي من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة، وإلا فالإمام الحسن هو سيد شباب أهل الجنة، وهو حجة الله في الأرض، وهو الإمام العابد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبداً.. إنه سيد شباب أهل



الجنة، وهو وأخوه الحسين ریحانتا رسول الله ﷺ وأن حبهما دين
وبغضهما كفر وقربهما منجى ومعتصم.. بل هما الملجأ للهاربين،
والعصمة للمعتصمين، شأنهما في ذلك شأن جدهما النبي وأبيهما
الوصي، وأمهما سيدة نساء العالمين، أقول: في وصيته لولده الحسن
يقول الإمام علي: «واعلم يا بني إنك طريد الموت الذي لا ينجو منه
هاربه، ولا يفتوته طالبه، فكن منه على حذر، من أين يأتيك وأنت على
حالة سيئة، قد كنت تحدث نفسك في التوبة منها فيحول بينك وبينها،
فتكون قد أهلكت نفسك».

ونجد الإمام الحسن نفسه، يوصي جنادة، وهو أحد أصحابه، في
آخر لحظة من حياته، يوصيه بقوله: «يا جنادة استعد لسفرك، وحصد
زادك قبل حلول أجلك... واعلم أنك تطلب الدنيا، والموت يطلبك...».

إذن: فالإنسان المؤمن يجب أن يكون على حذر. وفي الوقت نفسه
يجب أن يكون خالي البال لأنه يكون قد أدى واجباته نحو الله سبحانه
وهذا المؤمن لا خوف عليه من تقلب الأحوال، فالخوف على الكافر الذي
لا يحسب حساب تقلب الأيام واقتراب الساعة:

دع التقادير تجري في أعنتها ولا تبیتن إلا خالي البال
مابين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

نعم، على الكافر أن لا يحسن ظنه بالأيام، وإن صفت له الليالي،
فساعة وداع هذه الدنيا لا ريب فيها، ونحن فيها في نزهة سيحين وقت
انتهائها، فلا يغرّتنا فيها شيء تحسباً لوقوع القدر:

أحسنْتَ ظنَّكَ بالأيام إذ حسنت ولم تخفُ سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ



أول حدٍّ أقيم على سارق في الإسلام!

جاء في الدر المنثور أن أول حدٍّ أقيم في الإسلام كان لرجل أُتي به رسول الله ﷺ، وكان قد سرق فشهدوا عليه، فأمر به النبي أن يُقطع، فلما حَفَّ الرجل - أي هَيَّأوا يده للقطع - نظر إلى وجه رسول الله ﷺ كأنما سقى فيه الرماد، - من شدة التأثر وعدم الارتياح - فقالوا: يا رسول الله، كأنه اشتد عليك قطع هذا؟ قال: وما يمنعني، وأنتم أعون للشيطان على أخيكُم، قالوا فارسله.. قال النبي: فهلاً قبل أن تأتونني به.. إن الإمام إذا أتى بحد لم يسغ له، أن يعطله..

وهنا لابدّ من ملاحظة وهي: أن الحد يسقط، ويمكن للإمام أن يسقطه عن المذنب إذا اعترف المذنب وأقر على نفسه قبل أن يُلقى القبض عليه متلبساً بالجريمة.. أما إذا قامت عليه البيّنة فليس للإمام أن يسقط عنه الحد... وفي هذه القصة أنصع صورة للنبي الكريم وهو يجاهد في محاولة جادة لعرض أجمل صورة للإسلام من خلال قانون العقوبات، وكيفية إجراءاته وتطبيقه في المجتمع.

وليس غريباً أن يظهر الحزن على وجه النبي أمام هذا السارق، لأن الله سبحانه قد وصف قلب النبي بأنه قلب رحيم فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

(١) التوبة/١٢٨.

ويقول: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١).

وهذا يعني أن قلبه كان رقيقاً إلى أقصى درجات الرقة. والرحمة.

* أحاديث وأقوال في السارق والسرقة:

* أخرج البخاري ومسلم عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً»^(٢).

* وقال الإمام الرضا عليه السلام: «لا يزال العبد يسرق حتى إذا استوى دية يده، أظهره الله عليه»^(٣).

وقال حرم الله السرقة، لما فيها من فساد الأموال، وقتل النفس، لو كانت مباحة، ولما يأتي في التفاضل من القتل والتنازع والتحاسد وما يدعوا إلى ترك التجارات، والصناعات في المكاسب، واقتناء الأموال إذا كان الشيء المقتنى لا يكون أحد أحق به من أحد.

وعلة قطع اليمين من السارق لأنه يباشر الأشياء بيمينه، وهي أفضل أعضائه وانفعها له، فجعل قطعها نكالا وعبرة للخلق لئلا يبتغوا أخذ الأموال من غير حلها، ولأنه أكثر ما يباشر السرقة بيمينه»^(٤).

(١) آل عمران/١٥٩.

(٢) الدر المنثور في تفسير آية السرقة، وراجع صحيح مسلم ١٣١٢/٣.

(٣) بحار الأنوار ١٨٢/٧٩.

(٤) تفسير نور الثقلين ٦٢٧/١.



* ومن لا قطع عليه أي لا يجري عليه القطع قول الرسول الأعظم ﷺ : «من أصال بفيه من ذي حاجة غير متخذ خبنة، فلا شيء عليه»^(١)

والخبنة: معطف الإزار، وطرف الثوب، أي: لا يأخذ في ثوبه يقال: أخبن الرجل إذا خبأ شيئاً في خبنة ثوبه أو سراويله كما جاء في النهاية لابن الأثير.

ويقول النبي: «لاتقطع اليد في ثمر معلق»^(٢).

وفي حديث ثالث يقول النبي ﷺ: «لاقطع في ثمر ولاكثر».

* ونقرأ أيضاً : «ليس على المنتهب، ولاعلى المختلس، ولاعلى الخائن قطع». ويقول: «لاتقطع الأيدي في السفر»^(٣).

* ورُفِعَ إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام رجلان سرقا من مال الله: أحدهما عبد من مال الله، والآخر من عرض الناس فقال: أما هذا فهو من مال الله فلاحد عليه، مال الله أكل بعضه بعضا، وأما الآخر فعليه الحد الشديد، فقطع يده^(٤).

* وجاء في الوسائل عن علي أمير المؤمنين عليه السلام، مايلي: قال: «لاأقطع في الدغارة المعلنة، وهي الخلصة، ولكن أعزره».

(١) من كنز العمال رقم ١٣٣٢٨ - ١٣٣٢٦.

(٢) من كنز العمال رقم ١٣٣٢٨ - ١٣٣٢٦.

(٣) من كتاب كنز العمال.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٦٠/١٩ وانظر كتاب الوسائل ٥١٨/١٨ باب حكم من سرق من المغنم والبيدر وبيت المال.

وفي حديث آخر: إن أمير المؤمنين عليه السلام أتى برجل اختلس درة من أذن جارية فقال: «هذه الدغارة المعلنة، فضربه وحبسه».

ويقول الإمام علي: «أربعة لا قطع عليهم: المختلس، والغلول، ومن سرق من الغنيمة، وسرقة الأجير فإنها خيانة».

وقال في حديث: «ليس على الطرار والمختلس قطع، لأنها دغارة معلنة، ولكن يقطع من يأخذ ويخفي».

وجيء لعلي أمير المؤمنين عليه السلام بطرار قد طرّ دراهم من كُمّ رجل، قال: «إن كان طرّ من قميصه الأعلى لم أقطعه، وإن كان طرّ من قميصه السافل، -الداخل- قطعته».

* ويقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «لا يقطع الأجير والضيف، إذا سرقا، لأنهما مؤتمنان». وقال: «لا يقطع إلا من نقب بيتاً، أو كسر قفلاً».

وقال في حديث ثالث: لا قطع إلا من نقب بيتاً أو كسر قفلاً، ولا قطع على من سرق الحجارة، يعني الرخام وأشباه ذلك».

ويقول الإمام الصادق أيضاً: لا يقطع السارق في عام سنة - يعني عام مجاعة -.

وقال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام لا يقطع السارق في أيام المجاعة»^(١).

وقال: «السارق إذا جاء من قبل نفسه تائباً إلى الله، وردّ سرقة على صاحبها فلا قطع عليه».

(١) راجع هذه الأحاديث في وسائل الشيعة ٥٠٣/١٨ - ٥٢١.

* ومن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يذكر فيها أهل البيت يقول: «نحن
الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا توتى البيوت إلا من أبوابها،
فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً»^(١).

* وقال الإمام الصادق عليه السلام: «السراق ثلاثة: مانع الزكاة، ومستحل
مهور النساء، وكذلك من استدان ولم ينو قضاء»^(٢).

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٥٤.

(٢) بحار الأنوار ١٢/٦ والخصال ١٥٣.



النبي العظيم

وحزمه في تطبيق قوانين السرقة

أحياناً يتدخل المكان، والزمان في إجراء الحكم، أو قل: شروط الزمان، والمكان، والحالة العامة التي تحرك الجماهير، هذه أحياناً تدخل في قضية إجراء الحكم فتزيده قوة، أو تضيف عليه هدوءاً وسكينة.

وعلى سبيل المثال، في فتح مكة كلنا نعرف أن الرسول أعلن عفواً عاماً عن أهلها، وقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء هذا كله قد وقع وحصل، ولكن من جانب آخر، يريد الرسول ﷺ أن يبين عظمة الإسلام، وعزته وكرامته، صحيح أن الإسلام عفا عما قبله، وصحيح أن الرسول كان قد عفا عن أهل مكة ومن عليهم لأنهم ماكانوا مسلمين، ولamuؤمنين يوم ارتكبوا الجرائم.. هذا كله صحيح.. ولكن الصحيح أيضاً هو أن الرسول أراد أن يعطي صورة قوية ومؤثرة عن قوة الإسلام، وعظمته، خصوصاً في مكة وهو يواجه زعماء الشرك مثل أبي سفيان وخالد وعمرو بن العاص وغيرهم- فأراد النبي أن يعكس صورة تدل على قوة الإسلام وعظمته وعزته وجلاله، ومن أجل هذا ماكان النبي ﷺ يتسامح ولا يتساهل في أي اعتداء أو تجاوز أو عدوان، أو تعدد لحدود الله بأي شكل من الأشكال، ولذلك استطاع أن يترك مكة التي كانت عاصمة الشرك، وكانت مدينة محاربة بقيادة أبي سفيان وأعوان بني



أمية، أقول: استطاع النبي أن يترك مكة وعليها أمير في العشرين من عمره وهو عتاب بن أسيد، وقد دانت مكة له ونزلت على حكمه، دون أن يظهر حتى ولا رأس واحد ليقف بوجه عتاب هذا، وهو أول أمير صلى بمكة المكرمة، جماعة وكانت جماعته أول جماعة تعقد في ساحة المسجد الحرام.

لاحظوا هذا الموضوع بدقة وإمعان.. وتأملوا سيرة الرسول الأعظم محمد ﷺ في أهل مكة. إنها سيرة ذاتية قائمة على العفو، والصفح، والرحمة بحيث تصل الرحمة الى درجة أن يعفو النبي حتى عن هبار الأسود الذي تسبب في قتل زينب بنت النبي، وكان الرسول قد أباح دم هبار، وقل: «اقتلوه ولو كان معلقا بأستار الكعبة»، ولكن حين جاءت عشيرة هبار، واستشفعوا لصاحبهم، قبل النبي شفاعتهم في هبار، وعفا عنه وكذلك عفا النبي الكريم عن هند بنت عتبة التي مثلت بقتلى المسلمين وجذعت آذانهم وأنوفهم وجعلتها قلائد وخلاخيل، وكانت ممن أهدر النبي دماءهم يوم فتح مكة وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، أقول: تأملوا هذا كله لتدركوا كم هو عظيم الإسلام بقيادة النبي وأهل بيته الطاهرين.

كل هذا كان قد صنعه النبي الأكرم - لأن أحداثه جرت قبل أن يدخل الإسلام في مكة. أما الآن وقد دخل الإسلام مكة المكرمة، وأضاء بنوره كل شعابها، وجبالها، وبيوتها.. أما الآن فإن الأمر يختلف تماماً عن السابق.. الآن يجب أن تكون القوانين الإسلامية حازمة وقوية، وإذا وقع «أي خطأ في التطبيق فإن الإسلام سيضرب بيد من

حديد، لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(١) وها هو الإسلام أصبح في ساحتهم وفي جوار بيوتهم فينبغي لأهل الإسلام أن يأخذوه بقوة وألا يتساهلوا في أي حكم من أحكامه، وكل ذلك إنما هو من أجل تركيز قواعد الإسلام وتعميق هيئته في النفوس.

إذا عرفنا هذه الحالة التي كانت سائدة في المجتمع آنذاك، و عرفنا أن شرائط الزمان والمكان في فتح مكة تختلف عن غيرها في المدينة أو في أي مكان آخر، أقول: إذا عرفنا ذلك أدركنا السر الكامن وراء حرص الرسول الشديد، وإصراره العميق على إجراء الحدود كاملة دون نقص ولافتور، ومن هنا أيضا سندرك ونستوعب الموقف الذي اتخذه النبي تجاه المرأة التي سرقت في فتح مكة وشاع خبرها بين الناس.. والرسول هنا -وفقا لمبادئ الإسلام، ولشروط الزمان والمكان، والحالة الاجتماعية التي كانت تظل بأجنحتها على شعاب مكة وأهلها.. أقول: وفقاً لهذه الشروط والمبادئ، فإن موقف الرسول من المرأة السارقة هو موقف صارم وقوي ليس فيه هوادة ولا تساهل حتى بمقدار شعرة، لأن النبي في مواجهة بناء مجتمع جديد، يختلف في تركيبته عن مجتمع المدينة من الألف الى الياء.

والآن وبعد أن عرفنا هذه المقدمة تعالوا لتقفوا على قصة المرأة التي سرقت وكيف أصر الرسول على قطع يدها، ولم يقبل شفاعا احد فيها. فقد جاء في صحاح المسلمين، وفي التاريخ الإسلامي الصحيح؛

(١) الأنفال/٦٠.

أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها الذين سرقتهم، فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا، فقال قومها: نحن نفديها، فقال رسول الله: اقطعوا يدها، فقطعت يدها اليمنى... فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك» فأُنزل الله: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وهذه المرأة، هي المرأة المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في الصحاح، وفي كتب السير، والتاريخ... وذكروا أن قريشاً أهمهم شأن هذه المرأة^(٢) التي سرقت في عهد النبي، في غزوة الفتح، وتساءلوا: من يكلم فيها رسول الله؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه، إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله، فكلمه فيها أسامة بن زيد، حب رسول الله، فلكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حدٍّ من حدود الله عز وجل؟ فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله، فاخطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإنما أهلك الذي من قبلك، إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإنني والذي نفسي بيده: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها.

(١) المائدة/٣٩.

(٢) من تفسير القرآن العظيم لابن كثير، والآية في سورة المائدة ٣٩.

قيل: فحسنت توبتها - أي توبة المرأة التي سرقت - وتزوجت وكانت تأتي إلى بيت النبي في قضاء حوائجها^(١).

فباب التوبة مفتوح، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، فإن الله يتوب عليه ويرجع إليه بالمغفرة والرحمة لأن الله غفور رحيم.

قل: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾^(٢).

وفي البرهان في قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ جاء عن أبي إبراهيم عليه السلام أنه قال: «تقطع يد السارق، ويترك إبهامه، وراحته، وتقطع رجله، يترك عقبه يمشي عليه»^(٣).

وفي التهذيب أيضاً - بإسناده عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: في كم تقطع يد السارق؟ فقال: في ربع دينار.

قال: قلت له: في درهمين؟ فقال: في ربع دينار بلغ الدينار ما بلغ...

قال: فقلت: رأيت من سرق أقل من ربع دينار هل يقع عليه حين سرق اسم السارق؟ وهل هو عند الله سارق في تلك الحال؟ فقال: «كل من سرق من مسلم شيئاً قد حواه، أو أحرزه فهو يقع عليه اسم السارق، وهو عند الله سارق، ولكن لا تقطع يده إلا في ربع دينار أو أكثر، ولو قطعت يد السارق فيما هو أقل من ربع دينار، لألفيت عامة الناس مقطعين»^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) النساء/١٤٧.

(٣) نقلت هذه الرواية من تفسير الميزان.

(٤) الرواية نقلت من تفسير الميزان عن التهذيب.



وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إني لأستحي من ربي إن أدعه - أي السارق الذي يجري عليه الحد- بلا يد يستتظف بها، ولا رجل يمشي بها إلى حاجته»^(١)

* قصاص السرقة للتوجيه وليس للانتقام:

يوجد دليل على أن اليد إنما تطلق على الأصابع، وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ونحن حين نمسك القلم فإنما نمسكه بالأصابع دون اليد... مع ذلك أطلق القرآن الكريم اسم اليد على الأصابع، ثم يقول في إجراء الحكم بالنسبة للسارق والسارقة، فاقطعوا أيديهما فيصدق الحكم بالكامل. هذا أولاً، وثانياً إنك إذا حلفت ألا تمس فلاناً بيدك، وجدت أن لمسته بأصابعك، ألا تحنث وتدفع كفارة اليمين؟ طبعاً تدفع الكفارة، وذلك أن الأصابع تطلق على اليد، كما أن اليد تطلق على الأصابع.

إذاً: فاليد اسم يقع على الأصابع وحدها، ويقع على الأصابع مع الكف، ويقع أيضاً على الأصابع والكف والساعدين إلى المرفقين، وبالتالي فإن اسم اليد يقع على كل اليد من أطراف الأصابع إلى المنكبين.

من أجل هذا، كان الإمام علي أمير المؤمنين - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- يقطع يد السارق من أطراف الأصابع، أو قل: من

(١) من تفسير الميزان.

العقدة الأخيرة من الأصبع لأن الحكم يصدق على ذلك كما مر علينا،
وكما رأيت أنت هنا. وذلك أن الإسلام لا ينوي الانتقام من اللصوص
والسراق، وإنما يريد أن يوجههم إلى سواء السبيل، ويريد أن يخفف
عنهم. وخلق الإنسان ضعيفاً.

حديث:

«لو أنَّ فاطمة بنت محمد..»

لا نصيب له في الرحمة

حديث: « لو أن فاطمة بنت محمد . . . »

ضعيف ولا نصيب له من الصحة ولكن مع ذلك نسلط الأضواء عليه في إجراء الحدود، يقول الإسلام: لا شفاعاة في الحدود، وقد أكد النبي ﷺ أن الشافعة مرفوضة في الحدود، مهما كان مبعثها، ومهما كان هدفها حتى أنه في هذا المجال صرح ذات يوم قائلاً: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها..» وإنما قال هذا الكلام بالنسبة لفاطمة ليس لأن فاطمة لا يمكن أن تدنو من هذه المعصية فقط، وحاشاها ذلك، وإنما أراد النبي أن يؤكد حتمية إجراء الحدود وهذه الكلمة، كلمة: لو أن فاطمة سرقت تشبه قوله تعالى بالنسبة للنبي: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^(١) وما دام النبي لم يتقول على الله لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، كذلك فاطمة فإنها لا يمكن أن تخطئ في أي عمل، لأنها معصومة بنص القرآن الكريم في آية التطهير في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢) فهذه نزلت في الخمسة أصحاب الكساء وهم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ بإجماع المفسرين. وحتى أولئك الذين يدخلون نساء النبي في الآية فإنهم لا يخرجون فاطمة منها، ففاطمة معصومة بنص هذه الآية بإجماع الأمة الإسلامية في حين أن نساء النبي لم يدخل في

(١) الحاقة/٤٤-٤٦.

(٢) الأحزاب/٣٣.

الآية بإجماع الأمة، وإنما برأي أقلية من المفسرين الذين لا يؤخذ بقولهم علي.

وفي مكان آخر نجد الإسلام يعطل الحدود من أجل العرض الجميل أي من أجل أن يعرض الإسلام على الناس بصورة جميلة، تجتذب القلوب وتستقطب النفوس إليها وفي هذا الموضوع بحث شيق وجميل مليء بالصور التاريخية الصادقة التي تظهر النبي والوصي وقسماً من الأئمة المعصومين، وقد عطلوا الحد من أجل العرض الجيد للإسلام وسيأتي الكلام في محله إن شاء الله في هذا الكتاب.

وعلى ذكر قول النبي: لو أن فاطمة.. سرقت الخ.. أرى من المستحسن نقل الصورة بالكامل.. فعلى الرغم من أن النبي كان يريد أن يؤكد حتمية إجراء الحدود في الإسلام.. وعلى الرغم من أن النبي كان يريد أن يؤكد أنه لا شفاعاة في الحدود، وأنها من الأهمية بحيث أنه لو واحدة مثل فاطمة وقعت في هذا المحذور، وحاشاها ذلك. لنالت جزاءها.. وبالرغم من أن كلمة في فاطمة النبي تشبه كلمة القرآن في النبي نفسه.

وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ الخ.. وعلى الرغم من أن الحادثة جرت في مكة في امرأة شريفة سرقت، وإنما أقول شريفة، لأنها كانت تنتمي إلى قبيلة معروفة بالشرف والشجاعة والعزة.. أقول: على الرغم من ذلك كله، فإن النبي حينما قال كلمته هذه: «لو أن فاطمة» الخ.. وما كادت الزهراء - سلام الله عليها - تسمع بقوله حتى حزنت وبدا الانكسار على وجهها.. فما كانت إلا لحظة واحدة وإذا بجبرائيل يهبط على النبي ليخبره بحزن فاطمة من هذا الكلام وهو يقول: إن علي الأعلى يقرؤك السلام ويقول ذلك: «... لئن أشركت ليحبطن عملك».

وعلى أن هذه الآية لا تغني أن النبي مال إلى جهة المشركين، والعياذ بالله، أبداً وإنما أرادت السماء أن توضح الصورة للناس، حتى لا يتوهموا أن فاطمة يمكن أن تقع في خطأ مثل هذا، يضاف إلى ذلك أن آية: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(١)، تشبه الآية التي تقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٢) إذ إنها لم تؤكد أنه تقول.. أو أنه مال إلى الشرك. أبداً، وإنما كلها جاءت لتؤكد صفاء أهل البيت وطهارتهم وأنهم معصومون من جهة.. وتؤكد حتمية إجراء الحدود من جهة ثانية.

* ملاحظات مهمة:

في موضوع: لو أن فاطمة.. سرقت الخ.. هذا الموضوع يأتي في نظرية الزهراء في السرقة، وقانون العقوبات، لأن لفاطمة نظرية متكاملة في قانون العقوبات وكيفية تطبيقه على الناس.

على أن هذا الحديث الوارد عن النبي في ابنته فاطمة، إنما جاء ليثبت دقة الحكم الإسلامي، وإن القانون يجب أن يجري على الجميع، وذلك أن القانون عام وشامل.. ولكن السؤال هو: هل يمكن لفاطمة أن تقع في خطأ؟ كلا.. وألف كلا.. إنها معصومة وهي بعد ذلك قدوة طيبة، وأسوة حسنة لكل نساء العالمين.

إذاً: فلماذا قال النبي هذه الكلمة؟ قالها لأنه في مكة والأجواء تختلف عن المدينة، إضافة إلى ذلك أن الكلمة جاءت في سياق حادثة

(١) الزمر/٦٥.

(٢) الحاقة/٤٤.

وقعت وهي أن امرأة من بني مخزوم قد مارست السرقة بعد فتح مكة، وبعد تطبيق نظام الإسلام، وأخذ الإسلام بزمَام مكة ومن حولها.. لذلك قال النبي هذه الكلمة يريد أن يكشف عن حقيقة النظام الدقيق في الإسلام.

ثم إنه علق شيئاً مستحيلاً على شيء مستحيل آخر، كما يقول الفلاسفة وأهل المنطق والأصول.

وذلك أنه قال: لو أن فاطمة بنت محمد الخ، وفاطمة لا تخطئ وخطأ فاطمة مستحيل، أو قل: مستحيل أن تخطئ فاطمة، والمعلق على المستحيل مستحيل أيضاً، إذن: فمستحيل أن يكون مثال النبي قابلاً للتطبيق لأنه خارج عن دائرة الإمكان.

وقد مرّ علينا أن قول النبي في فاطمة يشبه قول القرآن الكريم في النبي: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾... إلخ. ولأن النبي معصوم ما ينطق عن الهوى، فهو لا يمكن أن يتقوّل على الله.. ونفس الشيء يقال في فاطمة، لأن ما ينطبق على النبي ينطبق على فاطمة الزهراء، وذلك أنها بضعة منه يؤذيه ما يؤذيها، ويفرحه ما يفرحها.

* الإفادة عامة في تطبيق قانون السرقة:

وفي موضوع السرقة، توجد أبحاث جيدة، وحلوة، ولذيذة، وكلها تدل على عظمة الإسلام، وكيف أنه إنما يطبق ويجري على الجميع.

إن نظرة معمّقة نلقيها على كتب الحديث والفقه والتفسير، والتاريخ تكفي لإعطائنا أنصع صورة لنظرية الإسلام في العقوبات، وخصوصاً

في قانون السرقة. وسنكتشف أن الإسلام ما حرّم شيئاً إلا لإضراره، وما أباح شيئاً إلا لمنافعه. فالسرقة - مثلاً - إنما حرّمها الإسلام لكي يعيش الناس في أمن وسلام وطمأنينة، وإلا فلو كان البناء فتح باب السرقة وعدم تحريما في المجتمع، فإن الدنيا ستتقلب إلى غابة ملتهبة بالنار، ليس في إمكان أحد من الناس أن يعيش فيها حتى ولا لحظة واحدة.

والقاعدة التي يذكرها بطل الإسلام والإنسانية علي أمير المؤمنين في نهج البلاغة، تقوم على معادلة جميلة ومعقولة، ومفادها: أن السرقة لو كانت مباحة وغير محرمة، فإن كل واحد منا نحن أفراد المجتمع البشري سيكون هو الأكثر خسراناً. وذلك لسبب واحد وهو: هب أنك سرقت من الناس فكم يد تطلقها من أجل ذلك؟ إنها يد واحدة وهي يدك، في حين أنك في المقابل تجد مئات الأيدي بل ألوف الأيدي تمتد إليك لتسرق منك، وتتهب.

إذن: فإذا سرقت أنت، فإنما تسرق وأنت واحد، أما إذا أراد المجتمع أن يسرق منك، فهذا يعني أن أيدٍ كثيرة ستمتد إليك.

وكلمة الإمام علي عليه السلام معناها ومفادها: أنك إذا كففت يدك عن الناس، فإنك تكف عنهم يداً واحدة ويكفون عنك أيدي كثيرة» والكلمة موجودة في نهج البلاغة فيمكن مراجعتها بنصّها لمن أراد ذلك.

إذن: فتطبيق القانون إنما يرجع بالربح والفائدة على الناس جميعاً، وهذه هي فلسفة تطبيق قانون العقوبات في الإسلام، وفي نظرية الزهراء - سلام الله عليها - في هذا المجال، ويبدو الأمر واضحاً وجلياً.

* القطع في نظر الفقهاء:

في آية السرقة. اختلف الفقهاء في القطع - فقهاء المذاهب الإسلامية - ولكن الذي عليه فقهاء الإمامية هو أن تقطع اليد من أطراف الأصابع.. وهي: أربع أصابع من اليد اليمنى، واليد تطلق على مجموع العضو.. وإلى المرفق، وإلى الزند، وعلى الأصابع فقط - كما في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾^(١) - فأطلق اليد على أطراف الأصابع التي تمسك القلم والقرآن يقول: ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٢) فيصدق الحكم.

وإنما قال: أيديهما ولم يقل يديهما - في التثنية - وذلك لما استحسن في العربية من أنه متى اجتمع تثنيتان مضافة إحداهما إلى الأخرى جيء بالأولى بلفظ الجمع كقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(٣) ولعل الأصل، هو أن الجوارح في الإنسان أكثر من واحدة. لذلك جيء بصيغة الجمع بدل المثني. وهذه فائدة لغوية ما أحببنا أن نمر عليها دون أن نبثها ونسجلها هنا.

على أن للقطع - قطع يد السارق - شروطاً مذكورة في كتب الفقه، وقد تجاوزت أصابع اليدين في العدد. وقد جمع القرآن في الآية - آية السرقة - بين الوازع الداخلي وهو الإيمان والصلاح، والوازع الخارجي وهو الخوف من العقاب والنكال.

(١) البقرة/٧٩.

(٢) المائدة/٣٨.

(٣) التحريم/٤.

* لماذا القطع بدل السجن؟

قد يتساءل المرء: لماذا القطع بدل السجن؟. وبتعبير آخر: أليس من الأفضل أن ينال السارق عقابه في مدة يقضيها في السجن، بدل قطع يده؟. الجواب.. لا.. وذلك للأسباب التالية:

أولاً- إن المجرم يجب أن ينال عقابه على الفور ودون تأخير، والعقاب هو الذي يكون رادعاً في وجه الجريمة، وسداً أمام انتشارها. ومن هنا فإن القطع أجدي وأنفع من السجن، بل إنَّ السجن ليس برادع على الإطلاق.

ثانياً- قد أثبتت البحوث الجنائية أنَّ السجون قد تحولت إلى مدارس كبيرة للإجرام. لأسباب كثيرة منها:

(أ) إنَّ السجين حين يدخل السجن فإنه يعيش مع مجموعة من المجرمين المحترفين، وهذه الحالة بدورها تؤدي إلى استسهال ممارسة الجريمة بسبب مخالطته للأشرار. من أجل ذلك يقول الشاعر:

صاحب اخا ثقة تخطى بصحبته فالطبع مكتسباً من كل مصحوب
الريح آخذة مما تمر به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب
ويقول الإمام علي عليه السلام: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار».

(ب) إنَّ اللص مثلاً حين يدخل السجن يكون في العادة محدود المعرفة والاحتيايل بممارسة هذا النشاط الشيطاني الهدام، ولكنه ما إن يخالط اللصوص، ويعاشر السراق والنشالين، حتى يتحول إلى لص محترف، وسارق مسدس مكعب، لأنه يسمع يومياً أكثر من عشرين

محاضرة في السرقة وفي طرق السطو على الآخرين، إنه يدخل السجن ورأسه فارغ إلا من معلومات أولية كان قد مارسها في السرقة والسطو.. لكنه حين يخرج من السجن يكون رأسه قد حُشي بالمعلومات حول طرق الجريمة ودروبها.. لأن كل واحد من المجرمين الذين صاحبهم قد نقل له تجاربه في هذا المجال، والنتيجة هي: أن يخرج من السجن وهو يحمل شهادة عالية في الاحتراف، وفي إتقان فن السرقة، وممارسة الجريمة هذه وغيرها.

ومن هنا، ندرك هذه الحقيقة التي تقول إن السجون أصبحت مدارس للإجرام بالمجان، يتعلم فيها السجناء كل أشكال الجريمة وكل ضروب الاحتيال وكل فنون السرقات.

ثالثاً- إن السارق حين يودع في السجن، فإن الدولة ستفق عليه وهذا بدوره يشكل عبئاً ثقيلاً في الاقتصاد الوطني.. هذا إلى جانب أن المجرم يجب أن ينال عقابه على الفور، وليس هناك لزوم لأن يدخل السجن ليمضي فترة من الوقت مكبلاً بالحديد، أو معطلاً من نشاطه الفكري أو الجسدي.

إن السجن حين يوضع في السجن فإنه يؤثر على الاقتصاد تأثيراً سلبياً من جانبين: الأول أن الدولة تتفق عليه يومياً من خزائنها مبالغ تذهب لشؤون السجن وإدارته فتصبح السجون وكأنها مؤسسات فيها أعداد كثيرة من الموظفين الدائمين مما يشكل أعباءً على الدخل العام للدولة.

والثاني: أن السجن بدخوله السجن يخلق حالة من الارتباك لدى أسرته والمشكلة ستتفاقم إذا كان يعيل صبيةً وأولاداً، مشكلة من الناحية

المادية، ومشكلة من الناحية النفسية ومشكلة من الناحية الاجتماعية، فتضاف الى مشكلته مشكلة أولاده وربما أفراد عائلته وكل أقربائه، وحتى تتوضح الصورة أكثر فليتخيل أحدنا أن والده في السجن أو ابنه أو شقيقه، وعندها سيرى مقدار الهم الذي يمكن أن يجثم على صدره، نفسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وصحياً، هذا بالنسبة لواحد فقط من أفراد أسرته، والضرر لن يقف عند هذه الحدود، إذ أن الدولة أيضاً سينالها نصيب من جرّاء هذا الضرر وهو انعكاس هذا الأمر السلبي في سلوك الغير وظهور مشاكل جديدة وأعباء جديدة يكون على هذه الدولة أمر حلّها، فهي بذلك تظن أنها تقضي على مشكلة فإذا بها تواجه مشاكل وعقبات. أقلّها مشكلة من سيعيل زوجة السجين وأطفاله؟! فهل رأيت مثلاً قانوناً في العقوبات، يحكم بالسجن على المجرم، ثم يجري مرتباً شهرياً لعائلته وأطفاله؟! كلا.. وألف كلا.. خصوصاً عندنا في العالم الثالث.. حيث يكون مجرد دخول رب الأسرة إلى السجن كافياً لتشتت الأسرة، وتمزيق العائلة، وضياع الأطفال. هذا بالإضافة إلى أن الزوجة التي يسجن زوجها تكون أكثر عرضة من غيرها للانزلاق والتحلل. والأمور واضحة لدى القارئ الفطن، وإن كان هناك نساء على مستوى عظيم من الإيمان والقوة والصبر والاحتمال، فإن هذا يعد استثناءً يؤكد القاعدة الأساسية، وهي حالة التسبب والانزلاق التي تنتظر المرأة عندما يغيب زوجها في ظلمات السجون وكربها وذلها وروتينها.

رابعاً - إن السجين يتعود على البطالة أيام السجن لأنه يكون فارغاً وخالياً من كل عمل، إلا من سماع تجارب الآخرين في فن الجريمة كما

مر علينا . وحينما يخرج من السجن يجد صعوبة في نفسه لمواصلة العمل، واسترجاع نشاطه السابق، وهذه مسألة واضحة يعرفها كل من جرب دخول السجن .

على أن الإسلام يشن حرباً شعواء ضد البطالة، ويحارب مجالس البطالين، حتى ورد في دعاء الإمام زين العابدين - سلام الله عليه-: «أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين، فبينني وبينهم خليتي.. أو رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني، أو لعلك وجدتني في مقام الكذابين فرفضتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني».

إن الإسلام ضد مجالس البطالين، ويدعو إلى حضور مجالس العلماء لأنها تعطي وعياً ورشداً، وتملأ الإنسان بالطاقة، وبروح المبادرة في العمل الصالح من أجل خدمة المجتمع الإنساني كما يريد الله سبحانه وتعالى، لا كما يريد الناس.

وهكذا يخرج السجين بعد انقضاء مدته، وقد تحول إلى كتلة من اللحم والطين والكسل. الكسل العقلي، والفكري، والعضلي، وناهيك بهذا خسارة ودماراً للإنسان. ولذلك نجد الإسلام يحارب السجون، إذ ليس فيه قانون للسجون، وإنما يوجد في كل الفقه الإسلامي أربعة أشخاص أو خمسة أشخاص هؤلاء يودعون السجن ومن جملتهم السارق الذي يسرق في المرة الثالثة، علماً بأن السجين في الإسلام ليس له إدارة ولا مدير ولا نظام خاص أبداً، وإنما هو سجن بدائي وبسيط جداً يدل على ذلك سجن الكوفة الذي كان في أيام الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، حيث ذكر المؤرخون أنه كان عبارة عن سجن قد أنشئ من الطين والقصب والبردي بحيث لو أراد السجين أن يقتل

الجدار ويهرب لاقتلعه وهرب. على أن هذا الموضوع له مجاله الخاص الذي سنبحث فيه بشكل معمق وسنتناوله في محله من هذا الكتاب إن شاء الله.

ومن أراد المزيد فعليه أن يقرأ الأخبار الواردة في موضوع السجن الذي بناه علي في الكوفة، ومن العجيب أن يكون السجن بهذه البساطة، بينما البلاد كانت تشهد ثلاث حروب: حرب الناكثين في البصرة، وحرب القاسطين في صفين، وحرب المارقين في النهروان،.. ولو كانت واحدة من هذه الحروب مشتتة في حكومة غير حكومة علي، لأعلنت حالة الطوارئ في البلاد، ولكن الإمام علياً أمير المؤمنين عليه السلام هو الإسلام، وهو الإيمان، بل إن الإسلام لينعكس من خلال أقواله وأفعاله، ومن خلال سلوكه.. إن علياً ليصور الإسلام في كل خطوة يخطوها وفي كل كلمة يقولها.. وفي كل عمل يؤديه.. ألم يقل النبي ﷺ يوم الخندق في حق علي: «برز الإسلام كله إلى الشرك كله»؟.

وهذه حقيقة.. إنه يمثل الإسلام بكل جوانبه لأنه هو والنبي من نور واحد، يؤكد ذلك قوله: وأنا من أحمد كالضوء من الضوء، أو الذراع من العضد.. والله لو تظاهرت العرب على قتالي ما وليت عنها.

خامساً- إن في السجن قتلاً لروح الإنسان، وسحقاً لكرامته.. خصوصاً في السجون التي انتعشت في ظل الحضارة الغربية، السجون القائمة على أساليب من التعذيب والوحشية بحيث تقتل روح الإنسان، أو قل: تقتل إنسانية الإنسان.. وتذهب بكرامته، وتجعله يشعر بالهوان والضيعة.

إن نظام السجون لم يزدهر إلا في عهد الأمويين والعباسيين، حيث

زرعوا الأرض بالسجون وملأها بالأحرار والشرفاء والمناضلين، وحتى نعرف كم كانت سجون بغيضة وموجعة يكفي أن نذكر سجن الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، حيث بلغت الأرقام أكثر من مائتي ألف سجين بين رجل وامرأة. كان يمر عليهم فيسمع أنينهم، وخشخشة السلاسل، وفرقة الحديد والأغلال في أيديهم وأرجلهم.. فيقولون بصوت واحد: يا أمير.. أيها الأمير - يخاطبون الحجاج لعله يرق لهم، ويعطف عليهم - أيها الأمير إن الشمس قد أحرقتنا، وأن القيود قد أكلت لحومنا، فهل إلى خروج من سبيل؟.. ألا ترحم أطفالنا، وأهلينا الذين فقدونا وانقطعت أخبارنا عنهم؟ وكان يجيبهم في غلظة وقسوة لعينة قائلاً: «اخسأوا فيها ولا تكلموني» !!!

يا للعجب العجيب.. كيف سيطر هؤلاء الأنذال على أولئك الطيبين الأخيار؟ ولكنها سنة الله في الحياة: كيفما تكونوا يولى عليكم ثم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

إن الإمام الحسين عليه السلام كان قد حذر أهل العراق، يوم عاشوراء وقال لهم: ويحكم أهؤلاء تعضدون - أي تعضدون بني أمية وتخذلون بني هاشم أبناء الرسول وأبناء فاطمة الزهراء - ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون.. من غير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيها فهلا لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن.. إلى آخر كلماته. ويقول أحد أصحابه: «إنكم لا تدركون - أي من يزيد على جذوع النخل». وبالفعل، فقد حدث ووقع كل الذي ذكره الحسين، وأصحابه، وذلك أن بني أمية لا يملكون إلا الظلم والكفر والشرك.. فهل تنتظر من الجلاذ رحمة ومحبة؟ كلا وألف كلا.



نخلص إلى القول، إن الإسلام إنما منع نظام السجون - بشكله الحالي - وذلك لأنه لا يريد أن يقتل روح المجتمع، كما أنه لا يريد أن يتكاثر عدد المجرمين، ولذلك استعاض الإسلام بالقصاص، ونظام العقوبات التي نطلق عليها اسم: الحدود، وأكد على إجراءاتها وذلك ليكون مجتمعاً طيباً، وطاهراً بين الناس، علماً بأن ألف سنة قد مرت دون أن تقطع أكثر من ثلاث أيدي فقط لا غير.

إن الإسلام يبني مجتمعاً صالحاً طيباً ليس فيه ثغرة يمكن أن تتسلل الجريمة منها إلى قلوب الناس أبداً.. إن الإسلام يضع الحلول لكل المشاكل، ويعطي الحل السريع الناجح دون أن يحتاج إلى سجون ومضاعفات السجون. علماً بأن القرآن الكريم يبيد اهتماماً بالغاً بحل مشاكل الناس والتي هي أحسن، بحيث يصل إلى درجة من الأهمية، أن نزاعاً ومشادة وقعت في أسرة فقيرة، بين رجل وامرأته، فاقترض وقوعها بنزول قرآن يتلى آناء الليل، وأطراف النهار، ونحن نقرأ ذلك في سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١)... إلخ.

إذن: فلهذه الأسباب التي تقدمت يرفض الإسلام نظام السجون، ويؤكد حتمية إجراء الحدود في المجتمع ليقوم الناس بالقسط علماً بأن إجراء الحدود يصوره الإسلام في أنصع صورة للحق والحرية والعدالة الاجتماعية، وليس بهذا الشكل الذي نراه اليوم في بعض البلاد التي تدعي أنها إسلامية وتريد تطبيق النظام الإسلامي، والإسلام بريء

(١) المجادلة/١.

منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب.. حيث نرى في بعض هذه البلاد كيف يجمعون الناس في يوم الجمعة وبعد انقضاء الصلاة وفي الساعة التي يريد أن ينصرف الناس فيها إلى أهليهم وأعمالهم، ويعترضونهم في ساحة من الساحات التي تقع أمام المسجد الجامع في العادة، ليروهم كيف يطبقون قانون العقوبات على رجل فقير اتهموه بسرقة رغيف خبز لعياله وأطفاله، بينما أصحاب الكروش المنتفخة الذين يسرقون الملايين، ويسرقون أقوات الفقراء من أموال النفط والمعادن والتمر والقمح ويحولونها إلى حساباتهم في بنوك سويسرا، أقول: هؤلاء لا شيء عليهم، وهم يتمتعون بحصانة دبلوماسية، في حين أن القانون يجري على الفقراء والمساكين الذين لا حيلة لهم ولا ملجأ.

أين العدالة وأين الحق؟. إنهما في ظل حضارة الاستبداد حيث يغيب الحق، وتموت العدالة، وتدفن الحرية في التراب، وأحياناً تركل بالأقدام، والأحذية.

في السرقة وحضارة العنكبوت

جاء أن الإسلام يوفر الأجواء التي لا تسمح بالسرقة، والتجربة قد دلت على ذلك.. فخلال قرابة ألف عام من الحكم الإسلامي - وإن كان الأحكام في انحراف عن الصراط المستقيم - إلا أن الجو العام، هو جو الإسلام، فالاقتصاد إسلامي، وإدارة البلاد تجري وفقاً لقوانين الإسلام - وإن بدت قوية تارة، وضعيفة تارة أخرى - إلا أنها كلها تشير إلى أن قوانين الإسلام هي الملاذ في الحكم، وأن الحاكم عليه أن يقوم بتطبيق مبادئ وقوانين الإسلام، وإن كان منحرفاً عن الصراط القويم.

على أن هذا لا يعني - بالضرورة - أن الإسلام كان مطبقاً بالكامل، أبداً، وإنما جوانب من الإسلام كانت مطبقة، ومن تلكم الجوانب، الجانب الاقتصادي والإداري.

أقول: لقد دلت التجارب على أنه خلال ألف سنة من تطبيق الإسلام، لم يحدث أن قطعت سوى ثلاث أيدٍ ليس أكثر. وقد ذكر بعض المؤرخين: أنه خلال فترة ألف عام تقريباً، لم تقطع من الأيدي، إلا مجموعة لا تتجاوز أصابع اليدين، وهذه حقيقة واضحة لدى كل من قرأ التاريخ، وعرف الواقع، إنها حقيقة ليس عليها غبار.

وقد جلست أكتب هذه الكلمات وأنا في ولاية كاليفورنيا في لوس أنجلوس في الولايات المتحدة الأميركية في رحلة للتبليغ الإسلامي.. أقول: جلست أكتب هذا الموضوع، وأقول: إن الإسلام في مناهجه

الاقتصادية يوفر الرغيف مع الأمن، فيقول: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا
الْبَيْتِ﴾^(١).

وهنا في أمريكا، الطعام موجود، والحرية موجودة، ولكن الأمن
مفقود، فها أنا ذا الآن أستمع إلى نشرة الأخبار من القناة ٧ وكان
الخبر الأول هو التالي:

«لقد دلت الأرقام في البحوث الجنائية، وفي علم الاجتماع حيث أكد
الخبراء أنه في كل عام تفقد أمريكا من أطفالها قرابة المليون ونصف
المليون. وهؤلاء جميعاً يتعرضون للسرقة والخطف، من أبواب بيوتهم أو
من أبواب مدارسهم، أو من قارعات الطرق، وربما أحياناً يكون الطفل
في صحبة أمه فلا تستطيع أن تحفظه من أيدي الخاطفين لأنهم
ينثرون على وجهها سائلاً يسبب عماها لدقائق معدودة، ويكونون في
هذه الدقائق أخذوا الطفل وانتزعوه من أحضان أمه وسط استغاثتها،
وصراخها ودموعها المحرقة. ولكن دون جدوى».

هذا الخبر نقلته لكم من نشرة الأخبار التي أسمعها الآن من تلفزيون
قناة ٧ في الولايات المتحدة الأمريكية.. وإنما أنقله لكم لتدركوا أن
الحضارة الغربية، حضارة العنكبوت وليس أكثر لأنها حضارة خاوية من
الإيمان والأمن، فلا إيمان فيها، ولا أمن ولا كرامة للإنسان، وإن بدت
في الظاهر أنها حضارة تطالب بحقوق الإنسان.

(١) قریش/٣.

في آفاق آية السرقة

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾.

في الفقه الإسلامي، شروط السرقة كثيرة بحيث تفوق العد على أصابع اليدين، ولكي تجيء الصورة واضحة، لابد من نقل شطر منها، وهي كالتالي:

أولاً - أن يكون السارق في كامل قواه العقلية، إذ ليس على المجنون حد ولا بأس. وذلك لحديث: «رفع القلم...» إلخ.

ثانياً - أن يكون السارق بالغاً بلوغ الرجال يميز بين الخير والشر، إذ ليس على الصبي شيء من ذلك.

ثالثاً - أن تكون الأشياء المسروقة أو التي وقعت عليها السرقة، وامتدت إليها يد السارق، أن تكون في حرز، والحرز معناه: ما تحفظ به الأشياء من صندوق ونحوه.. وهو ما يمنع من ضياع أو تلف.. وفي اللغة، الحرز: الموضع الحصين، ويقال: حرز حريز أي حصن حصين. ونقول حَرَزَ يَحْرُزُ - حَرَزاً - المال حفظه وأصابه.. وجمعه.

وأحرز الشيء، إذا حازه وصانه وأخذه.. هذا في اللغة وأما في الاصطلاح الفقهي فإنه يعني المكان الأمين الذي تودع فيه الأشياء في طمأنينة بعيداً عن أيدي اللصوص والسراق.

(١) المائدة/٣٨-٣٩.

وبالمثل: فالذي يسرق سيارة من قارعة الطريق أو من كراج ليس عليه قفل يختلف عن الشخص الذي يسرق من بيت فيه قفل أو من كراج مسدود ومقفول بابه على السيارة، فإن الحالة الأولى لا قطع فيها ولا حدٌ وإنما فقط تؤخذ السيارة من السارق وتعاد إلى صاحبها مع الاكتفاء بتأديب السارق دون إجراء الحد عليه، والتأديب قضية تظل متروكة إلى نظر الحاكم الشرعي لأنها داخلة تحت مظلة التعزيز والتعزيز لا حدود له، ولا موازين معينة وإنما هو يتبع مزاج الحاكم وذوق القاضي بالإضافة إلى الأخذ بنظر الاعتبار الحالة العامة للمجتمع، والحالة الخاصة بالسارق الذي أقدم على السرقة.

إذن: فالذي يسرق سيارة مثلاً من قارعة الطريق ليس عليه حدٌ، وإنما فقط يطلب منه إرجاع السيارة إلى أصحابها وربما أدبه الحاكم الشرعي - كما قلنا - بما يراه مناسباً للحال.. وكل هذا يحدث إذا كانت السيارة غير محروزة أي أنها لم تكن في حرز. وإنما كانت متروكة هكذا دون أن توضع في كراج ودون أن يوضع عليها وعلى الكراج قفل.. فلو كان الشيء الثمين المسروق في بيت والبيت بابه مقفول، ومع ذلك جاء اللص ونقب البيت وكسر القفل، فإن الحالة هذه وحدها تقتضي قطع يد السارق مع الأخذ بنظر الاعتبار بقية الشروط التي ذكرها الفقهاء في موسوعاتهم الفقهية الواسعة حيث ذكروا أن الشروط ممكن أن تتجاوز العشرين شرطاً أحياناً. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عظمة الإسلام، لأن الإسلام لا يريد أن ينتقم من الناس وإنما يريد أن يحميهم من الفساد، ويحفظهم من أيدي اللصوص، وقطاع الطرق.. يريد أن يصنع لهم مجتمعاً طيباً يتدفق بالأمن والأمان،

والسكنية، وتكافؤ الفرص، وذلك أن الأيدي الخبيثة إذا أُطلقت في المجتمع دمرته وقضت عليه، وسلبت منه أعز ما فيه وهو تكافؤ الفرص، واحترام الآخرين، والمحافظة على حقوق الجماهير.

والخلاصة: أن الذي يسرق من غير حرز فلا حكم عليه، كأن يسرق سيارة من مكان عام ليس فيه حرز ولا قفل، فإن السيارة تؤخذ منه ولا تقطع يده.

رابعاً- إنه ينبغي أن تكون السرقة قد وقعت في ربع دينار فصاعداً، وإلا فلا قطع ولا حد. إذ لو كان البناء هو القطع في أقل من ربع دينار لا خلت موازين المجتمع، واضطربت طبقاته باضطراب الأحكام التي فرضت عليه. وذلك يؤدي إلى عواقب وخيمة كما هو معروف لمن له أدنى إلمام بحالة المجتمع، ونفسية الجماهير.

خامساً- أن لا يكون السارق أباً، فلو سرق الوالد من مال ولده فلا حد عليه، أي أنه ليس فيه قطع ولا فيه بأس، وذلك لحديث: «أنت ومالك لأبيك» ومن الفقهاء من ألحق الأم بالأب لأنها أحد الأبوين.

قال بعض فقهاء الشيعة في تفسير حديث: «أنت ومالك لأبيك» قال: والأم مثل الأب في هذا المجال أي أنها إذا أخذت من أموال ولدها فإنه ليس عليها شيء، كما ذهب إلى ذلك بعض المذاهب الأربعة.

سادساً- أن تكون السرقة في عام المجاعة، فإذا سرق الجائع خبزاً أو طعاماً فلا حد عليه، وهذا لا علاقة له بعام المجاعة، وإنما له ارتباط وصلة بحالة الشخص الذي مارس السرقة هل هو جائع في حاجة إلى الطعام أم أنه في شبع ورفاهية من العيش لا حاجة له إلى الطعام.

إذا كان السارق جائعاً لا يجد رغيف خبز، فماذا يصنع؟ هل يظل جائعاً حتى يموت؟ أم أنه يتحين الفرص حتى إذا مرت عليه فرصة سانحة اغتتمها وأخذ ما يكفيه من الطعام؟ أيهما أفضل؟. هذا أم ذاك؟ لاشك أن الطريق الأمثل في هذه الحالة هو أن يحاول السرقة لسدّ جوعه، ويحفظ حياته.

وتصور أنك في سفر مع ثلة من الناس، وخلص بك السفر إلى أنك لا تملك رغيفاً من الخبز، وقد ضربك الجوع بسياطه، وأصحابك الذين معك لا يرحمونك ولا يعطونك لقمة واحدة حتى ولو متّ من الجوع أنت هنا أمام مجموعة من الناس الذين ماتت الرحمة في نفوسهم، وغلبت عليهم شقوتهم واستحوذ عليهم الشيطان استحوذاً أنساهم ذكر الله العظيم.. فماذا تصنع؟ هل تستسلم للأمر الواقع وتظل طاوياً حتى تنفض حياتك تحت أرجل الجوع القذرة القاسية، أم أنك تقوم بمحاولة تغافلهم فيها فتسرق من طعامهم لسدّ جوعك؟. لاشك أن الطريق الثاني هو الطريق الذي يجب أن يتبع أي أنك تسرق منهم وتأكل هنيئاً مريئاً، وهذا لا يسمى ولا يقال له: سرقة.. ولكن سياق الكلام اقتضى ذلك.. بل أكثر من ذلك إنك إذا وجدت فرصة سانحة تستطيع أن تسرق بها خبزاً منهم، فاسرق وإذا لم تسرق فأنت مأثوم وظالم لنفسك وقد تتعرض لحساب شديد وطويل من الله سبحانه وتعالى لأنه سيقول لك: منحتك فرصة تستطيع بها أن تأخذ رغيف خبز منهم فتحفظ حياتك وتُبقي على نفسك ولكنك ما انتفعت بهذه العطية.

سابعاً- ارتفاع الشبهة، أي أن السرقة ينبغي ألا تشوبها شبهة فلو شابتها شبهة لسقط الحدّ، لأن الحدود تدرأ بالشبهات. ومثال ذلك: أن

يتوهم السارق أن الشيء الذي أخذه إنما هو ملك له، فيظهر ويتبين أن المال ليس له، وإنما هو لغيره، فهذه شبهة تستوجب إسقاط الحد عنه. ولتحقيق شبهة يكفي أن يقول السارق: لقد ظننت أن هذا المال مالي وليس مال غيري.

ثامناً- إذا كان المال المسروق شراكة بين السارق وبين غيره، فإنه ينظر في القضية فإن كان الذي أخذه بمقدار نصيبه أو أقل فلا حد عليه، وإن كان آثماً للتصرف من غير إذن الشريك كما يقول الفقهاء.

إذن: فالشراكة تقتضي إعادة النظر في إصدار الحكم ضد السارق، وذلك للسبب الذي كان قد مرّ علينا آنفاً. فلو قال السارق: ظننت أن سهمي بهذا القدر فأخذته، وكان ذلك ممكناً في حقه، فإن الحدود تدرأ بالشبهات.. وهنا يسقط عنه الحد أو قل: يدرأ عنه الحد.

تاسعاً- الفقير الذي يسرق من بيت المال بمقدار حقه، فإنه لا يقام عليه الحد، كما ذهب إلى ذلك أكثر الفقهاء.. وإلا فإنه يقام عليه الحد، بمعنى إذا لم يكن فقيراً ولا محتاجاً ولا جائعاً، وإنما سرق من بيت المال، وأخذ أكثر من حقه لأن بيت المال راجع للمسلمين وإذا أخذ أكثر فإنه يأخذ حقوق الآخرين وهنا لابد من وقفة حازمة ضد من يقوم بمثل هذه الأعمال.

وقد سئل الإمام الصادق - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - عن رجل سرق من الغنيمة، أي شيء عليه؟ قال: «إن كان الذي أخذ أقل من نصيبه دفع تمام ماله، وإن كان قد أخذ مثل الذي له فلا شيء عليه، وإن كان أخذ فضلاً بقدر ربع درهم قطع...».

وهنا أود أن أنقل لكم تعليق العلامة المغفور له الشيخ محمد جواد مغنية على هذا الحديث حيث يقول بالحرف الواحد:

«وبديهة أن هذا التفصيل إنما يتأتى ويتم في عهد الإمام وما إليه، حيث كان بيت المال يوزع على الأفراد، والعائلات.. أما اليوم، حيث ينفق بيت المال في الصالح العام فلا مورد لهذا التفصيل من الأساس.. فالأولى أن يترك الأمر إلى نظر الحاكم وتقديره ومهما تكن العقوبة فلا يجوز قطع اليد، لأن القطع حدٌ، والحدود تدرأ بالشبهات، وله ما عدا ذلك مما ينطبق عليه اسم التعزير»^(١).

إذن: فمن دون شروط لا تتحقق جريمة السرقة على أحد، ولا يؤخذ حكم فيها.

على أن الشروط إذا عدها الإنسان وفقاً لما جاء في كتب الفقه فإنه يصل بها إلى أكثر من عشرين شرطاً، ومن جملتها والتي لم نكن قد ذكرناها مع الشروط السابقة، من جملتها: شروط توفر العوامل النفسية والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها.. فإذا كان السارق يعاني من عوامل نفسية أجبرته على السرقة فإنه لا تجري عليه الأحكام. مثل أن يكون يعيش ظروفاً قاسية كونه لديه أمراضاً نفسية تدفعه إلى هذا العمل دون أن تكون له أسباب في ذلك وهذا العامل يختلف عن عامل الجنون الذي قد مر علينا.

ونفس الشيء يقال في العوامل الاجتماعية، فإذا كان المجتمع غارقاً في الفساد، فإن الجريمة تنتشر فيه انتشار النار في الهشيم، وربما دفعته الحالة الاجتماعية إلى السرقة ففي بعض المجتمعات تكون حالة السطو على الآخرين دليلاً وبرهاناً على الرجولة والشجاعة كما كان

(١) فقه الإمام الصادق ٢٩٥/٦.

عليه عرب الحجاز قبل الإسلام، وكما نراه اليوم في القرى والأرياف في بعض الدول الإسلامية مما هو واضح لا يحتاج إلى دليل، فهذا برهاناً لا يحتاج إلى دليل.

ونفس الشيء في العوامل السياسية، حيث تكون ممارسة الظلم وتطبيق العقوبات على الشعب والجماهير بلا رحمة ولا رأفة كما هو الحال اليوم في العالم الثالث وخصوصاً في الدول الإسلامية حيث تتفجر الأرض بينابيع الخير والعطاء، من النفط والغاز، والذهب والفضة والمعادن الأخرى بحيث أصبحت الدول العربية والإسلامية من أغنى الدول بل هي أغنى وأكثر ثراءً من دول العالم أجمع.. ولكن مع ذلك تجد الفقر والفاقة والجهل والمرض والأمية متفشية في شعوب هذه الدول، والسبب في ذلك هم الحكام الظلمة وأعوانهم من الأجانب الذين سرقوا أموال الشعب، وأخذوا خبزهم وقوتهم وتركوهم يعانون في قسوة الجوع، وسياط الفقر.. فهل الذي يسرق الآن في هذه الأجواء، أعني في أجواء يتم فيها سرقة أموال المسلمين علناً وأمام أعين الناس وتحت أشعة الشمس وتبقى الجماهير الكادحة تتضح عرقاً ودماً في سبيل رغيف خبز فلا تحصل عليه، أقول: هل الذي يسرق الآن لقمته من هذا الحاكم الظالم هل يعد سارقاً تجري عليه عقوبات القطع والحد؟ والله، إن الذي يحمل في رأسه ذرة واحدة من الوعي والرشد يدرك أن تطبيق قانون العقوبات اليوم إنما هو أكبر جريمة بحق الناس والجماهير.

ولنا أن نتساءل: لماذا يصر الحكام عندنا على تطبيق قانون العقوبات دون بقية القوانين الإسلامية؟ ولماذا نسمع الصيحات تتطلق هنا

وهناك، بين الحين والحين تطالب بتطبيق قانون العقوبات: قطع يد السارق، ورجم الزاني، وجلد شارب الخمر.. لماذا؟ لماذا لا تطالب تلك الأصوات بتطبيق الإسلام؟ لماذا لا نطالب بتطبيق قوانين الإسلام، في الحرية والاستقلال، والمساواة والزراعة والعمارة، والاقتصاد، والسياسة والإعلام والثقافة؟ لِمَ الإصرار فقط على قانون العقوبات دون بقية قوانين الإسلام؟

الجواب واضح ومعروف سلفاً، وهو: أن أسيادهم لا يسمحون لهم بتطبيق الإسلام.. وأن الشعوب الإسلامية ما زالت في رقدة وهجعة وسبات عميق.. ومتى نهضت الأمة الإسلامية ونفضت غبار التخلف عن نفسها، والتفتت إلى رسالتها وعرفت عظمة الإسلام، فإنها عندئذ تدرك حقيقة الإسلام وتعرف قدرها ومنزلتها بين شعوب العالم، ويومها - فقط - تكون الأمم قد عرفت قدر المسلمين وأنهم سادة وقادة وليسوا أذناناً وعبيداً. كلاً، إنهم أحرار.. ولكن من يعترف أنك حرّ.. إذا كنت أنت تتصرف تصرف العبيد، وتمشي مشية المنبوذين في الأرض؟.. والحال أن المشية مشية الأحرار هي لك وحدك أيها المسلم، وليست لغيرك.. إن الآخرين هم الذين يمشون مكبون على وجوههم يتعثرون. ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

ودائماً في تطبيق قانون العقوبات نجد أنه إنما يطبق على الفقير الذي يسرق نصف دينار ليشتري به خبزاً لأطفاله، وأما الذين يسرقون الملايين.. فهؤلاء في حصن حصين من يد القانون. وأما الذين انتفضت أرصدتهم في البنوك في الخارج، فهؤلاء لا تحوم حولهم شائبة ولا

(١) الملك/٢٢.

شبهة، لإنهم منزّهون نقيات ثيابهم.. ويظل المساكين والفقراء هم الذين يدفعون الثمن ويكونون الضحية.

وأود هنا أن أنقل لكم قصة طريفة في هذا المجال يمكن أن ننتفع بها، ونستفيد من سردها، والقصة وقعت في أيام المأمون العباسي، لسارق صوفي. وإليك القصة كما ذكرها المؤرخون:

قالوا: جاؤوا بسارق صوفي وأدخلوه على المأمون العباسي، في مجلسه، وكان إلى جنبه الإمام علي بن موسى الرضا - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - . فلما مثل بين يدي المأمون، التفت إليه يسأله: أنت سارق؟.. سرقت؟.

قال: نعم أنا سارق سرقت.

المأمون: إنك الآن تقرر على نفسك، وإقرارك بهذه الجريمة يقضي بإزالة العقوبة عليك..

قال السارق في هدوء: ماذا تعني؟.

قال المأمون: أعني أنك إذا قلتها ثالثاً قطعت يدك!.

السارق: صحيح إنني سارق قد مارست السرقة ولكنك لا تقدر على قطع يدي...

هذا الجواب أثار دهشة المأمون، وتساءل مأخوذاً بالموقف: وكيف لا أقدر على قطع يدك إذا كنت سارقاً؟.

السارق: لأنك سرقت قبلي فعلمتني السرقة. إنني تعلمت السرقة منك وأنت أستاذي في السرقة. فأبدأ بنفسك واقطع يدك قبل أن تقطع يدي.



قال المأمون، والدهشة تطل من عينيه: ويلك، وكيف سرقت أنا؟ هل تستطيع أن تؤكد لي ذلك؟.

السارق: نعم.. إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^(١) وأنا مسكين وابن سبيل، فانظر هل لي نصيب واسم في بيت المال؟ طبعاً لا فأنت سرقت حقي من الفيء والغنيمة، وبذلك يجب أن تبدأ بقطع يدك أولاً لأنك جوعتني وجعلتني فقيراً لا أملك ثمن رغيف الخبز وهذا هو الذي دفعني إلى السرقة.

وهنا ارتج على المأمون ولكنه تحامل على نفسه، ومضى يواصل كلامه مع الرجل السارق ليقول له هذه المرة: أنت سارق وسأقطع يدك على كل حال.

السارق في ثقة واتزان: أولاً، أنت لا تقدر على قطع يدي لأنك نجس والنجس لا يظهر نجساً مثله.. هذا إذا كنت أنا نجساً كما تدعي.. فيدك أنت خائنة، واليد الخائنة لا يمكن أن تجري أحكام الله على العباد. هذا ثانياً، وثالثاً فأنت ليس في أمكانك قطع يدي لأنك عبد لي، ولست حراً كما تدعي!.

فقال المأمون: هذه الثالثة وهي كوني عبداً لك، إذا لم تؤكد لها، فإن حياتك في خطر.. إذ كيف صرت أنا عبداً لك وأنت سيدي؟ من أين لك هذا؟ أكدّه، وأثبتته وإلا فأنت مهدور دمك من الآن.

(١) الأنفال/٤١.

فبدأ الرجل في إثبات كلامه وادعائه بقوله: إن أمك أمة يقال لها: مراجل كان أبوك قد اشتراها من بيت مال المسلمين.. ونحن نعرف أن الولد تابع لأبويه في الرقية، في الرق، وتبعاً لهذا القانون فإنك عبد ولست سيداً ولا حراً، وأكثر من ذلك فإنه وفقاً لهذا القانون - أعني قانون الرق - فإنه يكون لكل مسلم فيك حق، وإذا أهدر المسلمون حقوقهم، فأنا أثبت حقي ولا أتنازل عنه أبداً، والنتيجة هي أنك عبد لي والعبد لا يطهر مولاه!.

وكان الإمام علي بن موسى الرضا - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - جالساً في المجلس ساعة وقوع هذا الحادث، وإجراء هذا الحوار الساخن بين المأمون وبين واحد من أفراد الشعب وقف يدافع عن نفسه.. وهنا التفت المأمون إلى الإمام الرضا يستوضحه، ويريد منه رأياً في هذه القضية، فهل من حق المأمون أن يقيم الحدّ على هذا السارق المتمرد، أو أن السارق دافع عن حقه وأنه ليس في إمكان أحد أن يقف في وجهه؟.. كل ذلك كان قد جرى في ذهن المأمون وأراد أن يعرف نظر الإمام الرضا في هذه القضية فالتفت إلى الإمام يسأله: ماذا تقول أنت يا ابن رسول الله؟ فقال الإمام الرضا: إنه يحتاجك بالدليل. إنه يدافع عن نفسه في قضية حق، وإن من حقه أن يقول ما قال.. وأن ليس أن تعاقبه ولا أن تنزل فيه أية عقوبة، إنه جائع ومضطرب للسرقة، والسرقة هنا في هذه الحالة لا تطبق عليه، ولا يجري عليه اسم السارق ولا عنوانه. «طبعاً نقلنا هنا الحديث بمؤداه لا بلفظه أي أننا حافظنا على معنى الحديث دون لفظه لأن نص الحديث ليس في متناول أيدينا».

تأثر المأمون، ثم أطلق سراح الرجل، ولكنه أضرمر حقداً ضد الإمام الرضا، وبيّت نيّة سيئة ضده، ويقال إن هذه الواقعة هي السبب المباشر في أن المأمون قضى على الإمام الرضا بالسمّ.. وإن كان هذا مستبعداً جداً، إذا أن هناك ألف سبب وسبب لعداوة المأمون للإمام الرضا عليه السلام ولمن يريد المزيد عليه أن يقرأ التاريخ الصحيح ليكتشف بنفسه كم هو الإسلام عظيم في حين يحترم الإنسان ويمنحه فرصة الدفاع عن نفسه وإبداء رأيه في كل ما يحيط به من مسائل ومشاكل.

هذا ويمكن للواحد منا إذا تابع تطورات البحوث الفقهية أن يحصل على أكبر عدد من الشروط التي من دونها لا يجوز قطع يد السارق، ومنها على سبيل المثال.

عاشراً- إخراج النصاب، وهو كل شيء كانت قيمته ربع دينار ذهباً خالصاً مضروباً بسكة المعاملة. بمعنى ربع دينار يكون من الذهب الخالص، ويكون متعاملاً به في السوق، فلو سرق شخص شيئاً قيمته أقل من ربع دينار فلا تقطع يده.

حادي عشر- أن يخرج المال أو ذلك الشيء المسروق بنفسه، يعني السارق هو نفسه الذي يتولى عملية السرقة، فلو أناب عنه شخصاً أو أمر أحداً بإخراج المال أو إخراج الشيء المسروق من المكان الفلاني فإنه حينئذ لا تقطع يد الآخذ.

ثاني عشر- أو الشرط الثاني عشر- هو أن يكون أخذ المال سراً وخفية، أما إذا أخذه علناً فلا تقطع يد الآخذ. وهذا الشرط هو من أدق الشروط إذ لو قدر لإنسان أن يأخذ مال إنسان في العلن وليس في السر والخفاء فإن الآخذ عندئذ لا يصدق عليه اسم السارق أبداً، فلا قطع ولا حد.

ومهما يكن من أمر فإن شروط السرقة في النظرية الإسلامية تفوق
العد على أصابع اليدين، فليس كل من سرق تقطع يده وليس في
الإسلام من هذا القبيل شيء على الإطلاق.

على أن الشيء الذي يدهشني هو أن الزهراء عليها السلام لم تكن قد
تحدثت عن السرقة وقانون العقوبات فيها، أي أنها لم تتحدث عن حد
السارق وإجراء العقوبات في قطع يده.. أبداً وإنما تحدثت عن ترك
السرقة. وهذا مما يدهش الإنسان، إنه يثير الدهشة لا من غرابته،
ولكن من عظمة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها -
حيث نجدها قد تركت الجوانب السلبية في الأحكام، واقتصرت في
كلامها على الجوانب الإيجابية، فهي مثلاً لم تتحدث عن الزنا وإنما
تحدثت عن القذف بدل الزنا والفرق كبير وواضح. فالحديث عن الزنا
يستوجب الدفاع عن شرف الإنسان وكرامته أي أنها حتى في موضوع
الزنا قد تناولت الجانب الإيجابي وليس السلبي.. وهكذا قل في
البواقي، فهنا نجدها تترك الحديث عن السرقة وقطع يد السارق،
وإجراء الحدود، وتكتفي بالحديث الإيجابي الذي يتمثل في ترك
السرقة وأن هذا الترك يوجب العفة في النفس، والإبقاء على كرامة
الإنسان، وإنعاش المجتمع. وهذا يعتبر من درر فكر الصديقة الطاهرة
فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - فكلما أمعن الواحد منا في التدبر
في كلامها أخرج جواهر مكنونة في خطابها وكلماتها المليئة بالنور
والعلم والعطاء.

والسرقة إهدار للكرامات والدماء، فالسارق الذي يتسلق الجدران
- في سدف الظلام - لينهب مصفي أعمال السنين القاسية، لا يجد

من نفسه حرجاً، في أن ينعطف على أعراض الناس - مهما أرخى له الموقف - وصاحب الدار لن يقف مكتوف الأيدي تجاه اعتداءاته القذرة.. ولا ينكشف النضال إلا عن سابح في الدماء..»^(١) من هنا ندرك كم هي عظيمة الفلسفة التي وضعتها الزهراء لترك السرقة حيث قالت:

وجعل الله سبحانه: «ترك السرقة إيجاباً للعفة» لأن الذي يسرق تموت العفة في داخله، فيعتدي على أعراض الناس، ويسطو على نواميس المجتمع.

(١) كتاب الاقتصاد للسيد حسن الشيرازي ٢/٢٥٩.

أحاديث في السرقة

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «لا يقطع الأجير والضيف إذا سرقا، لأنهما مؤتمنان»^(١).

وجاء عن رجل يقال له سماعة قال: سألته - أي الإمام - عن رجل استأجر أجيراً فأخذ الأجير متاعه فسرقة، فقال: هو مؤتمن، ثم قال: «الأجير والضيف أمينان، ليس يقع عليهما حد السرقة»^(٢).

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «الضيف إذا سرق لم يقطع، وإن أضاف الضيف ضيفاً فسرق قطع ضيف الضيف»^(٣).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال في رجل استأجر أجيراً فأقعه على متاعه فسرقة، قال: «هو مؤتمن»^(٤).

وقال في رجل أتى رجلاً، فقال: أرسلني فلان إليك لترسل إليه بكذا وكذا، فأعطاه وصدقته قال: فلقية صاحبه فقال له: إن رسولك أتاني فبعثت معه بكذا وكذا، فقال: ما أرسلته إليك، وما أتاني بشيء، وزعم الرسول أنه قد أرسله وقد دفعه إليه، قال: إن وجد عليه بينه أنه لم يرسله قطعت يده (ومعنى ذلك أن يكون الرسول قد أقر مرة أنه لم

(١) بحار الأنوار ١٨٣/٧٦.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) بحار الأنوار ١٨٣/٧٦.

(٤) المصدر ذاته.

يرسله) - وإن لم يجد بيّنة فيمينه بالله ما أرسلت، ويستوفي الآخر من الرسول المال، قال: رأيت إن زعم أنه إنما حمله على ذلك الحاجة، قال: يقطع لأنه سرق مال الرجل»^(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن التيمّم، فتلا هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

وقال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، قال: فامسح على كفيك من حيث موضع القطع، قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

وجاء في البحار أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا قطع يد السارق ترك الإبهام والراحة، ف قيل له: يا أمير المؤمنين تركت عامّة يده؟ قال: فقال لهم: فإن تاب فبأي شيء يتوضأ؟ لأن الله يقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨) فَمَن تَابَ مِّنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢).

وأكثر من ذلك فقد ورد في سيرة الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان إذا جيء إليه بسارق يقطع يده من الأشاجع وهي أطراف الأصابع وكان يستدل بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فأنت حين تمسك القلم إنما تمسكه بأصابعك أليس كذلك؟ والأصابع يطلق عليها القرآن اسم اليد، ثم يقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فيصدق

(١) بحار الأنوار ١٨٣/٧٦. (وفي هذا الحديث تأمل وكلام لا بد من مراجعته في البحار في نفس الصفحة تحت عنوان باب السرقة والغلول وحدهما) فانتبه لذلك.

(٢) المائدة/٣٨-٣٩.

الحكم على الأصابع بأنها يد، وذلك أن الإسلام لا يريد أن ينتقم من السارق وإنما يريد أن يؤدبه ويريد أن يجعل المجتمع مجتمع الأمن والرخاء لا مجتمع السطو والنهب.

* أمير المؤمنين يأمر بقطع يده والمقطوع يمدحه:

رُوي أن رجلاً أسود أدخل على عليٍّ عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إني سرقت فطهرني، فقال: لعلك سرقت من غير حرز، ونحى رأسه عنه (بمعنى أراد الإمام علي أن يذهب الرجل الأسود ويتوب بينه وبين الله دون أن يقر على نفسه بالسرقه فتقطع يده) فقال: يا أمير المؤمنين سرقت من حرز فطهرني، فقال عليه السلام: لعلك سرقت غير نصاب - ونحى رأسه - فقال: يا أمير المؤمنين سرقت نصاباً.

فلما أقر ثلاث مرات قطعه أمير المؤمنين - أي أجرى عليه الحد وكانت عداته أنه إذا أراد أن يقطع يد سارق فإنه يقطعها من أطراف الأصابع كما مر علينا - فذهب الرجل الأسود بعد إجراء الحد عليه - وجعل يقول في الطريق: قطعني أمير المؤمنين، وإمام المتقين، وقائد الفر المحجلين، ويعسوب الدين، وسيد الوصيين، وجعل يمدحه فسمعا منه ذلك الحسن والحسين - سلام الله عليهما - وقد استقبلاه فدخلا على أمير المؤمنين علي عليه السلام وقالوا: رأينا أسود يمدحك في الطريق فبعث أمير المؤمنين عليه السلام من أعاده إلى عنده، فقال له: قطعك وأنت تمدحني؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنك طهرتني وإن حبك من قلبي قد خالط لحمي وعظمي، فلو قطعتي إرباً إرباً، لما ذهب حبك من قلبي،

فدعا له أمير المؤمنين ووضع المقطوع إلى موضعه فصيح وصلاح كما كان»^(١).

وفي هذه القصة أبحاث ودروس وعبر. يمكن لنا أن نستفيد منها إذا وقفنا عندها متأملين الموقف من كل جوانبه.

أولاً- إن الرجل الأسود إنما دفعه إيمانه للاعتراف والإقرار بالسرقة وإلا فلم يكن هناك أي داعٍ لأن يأتي ويعترف ويقر على نفسه لتقطع يده.

ثانياً- إن الإمام علياً أمير المؤمنين كان ينحي رأسه عنه بعد كل مرة يعترف بها ويقر على نفسه بالسرقة، وكان هدف الإمام من تتحية رأسه هو أن يذهب الرجل ويتوب بينه وبين الله فطريق التوبة مفتوح لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

ثالثاً- إن الإمام كان يذكر الرجل الأسود، بالأسباب التي تدرأ الحد، وتسقط القطع، وهي من قبيل أن يكون الشيء المسروق غير محروز أي لم يكن في حرز وإنما كان متروكاً هكذا فجاء هذا الرجل وأخذه، وهنا لا قطع ولا حد. ثم كان يذكر بالنصاب أي لعلك سرقت أقل من النصاب الذي هو ربع دينار - فما فوق، وكان الرجل يرد بالنفي أي أنه سرق النصاب بكامله.

رابعاً- إن الإيمان أقوى من كل عوائق الحياة، ومشاكل المجتمع والنفس.. إنه أولاً وقبل كل شيء مؤمن، وإذا كان مؤمناً فإنه يقبل حكم الله في طمأنينة وثبات، وقد قال القرآن الكريم عن صفة المؤمنين أنهم

(١) بحار الأنوار ١٨/٧٦.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١).

إذن: فالؤمن لا يجد حرجاً في نفسه من إجراء حكم الله عليه، ولهذا السبب خرج الرجل المقطوع وهو يمتدح بطل الإسلام الخالد علي بن أبي طالب، وهذه أعجب القصص التي رأيتها وسمعتها.. وقد جاء في كتب التاريخ أن الإمام أمير المؤمنين حين طلب حضور الرجل الأسود، قال لولده الحسن: هات عمك الأسود.

يضاف إلى ذلك كله، الوعيد وأثره في صياغة الإنسان المسلم، وتربية النفس، فهذه القضية مماثلة للمرأة الغامدية التي جاءت إلى الرسول الأعظم ﷺ وقالت: طهرني إني زنت، وتشبهها قصة المرأة التي جاءت هي الأخرى إلى الإمام علي عليه السلام وقالت: يا أمير المؤمنين طهرني إني زنت... إلخ.

والخلاصة التي نستفيد منها من هذه القصة هي أن الإيمان أقوى من الحتميات الأخرى، فما دام الرجل مؤمناً، وما دام جاء ليظهر نفسه من الذنب الذي اقترفه، فإنه مهما يكن العقاب به قوياً فإنه لا يزداد إلا إيماناً وتسليماً.. خصوصاً وأن حب علي علامة الإيمان. فلا عجب إذا سمعنا أن هذا الرجل أخذ يده المقطوعة وهو يسير في الطرقات يمتدح علماً أمير المؤمنين، عليه السلام وطبعاً قطعت يده من الأصابع وليس من الزند كما هو معروف لدى علماء العامة.

وصدق علي حين يقول: «لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني..» إلخ.

(٢) النساء / ٦٥.

* رأي فقهاء أهل البيت في قطع يد السارق:

أود أن أسجل هنا، أن التاريخ الصحيح يؤكد لنا، أنه في غضون ألف عام لم يحدث أن قطعت سوى ثلاث أيدي.. ومما يدل على ذلك أن السرقة إذا وقعت يظل الفقهاء في حيرة من أمرهم إذ لكل واحدة منهم رأي في قطع اليد، وفي إجراء الحد.

على أن الحكم واحد، ومعروف، وواضح في الإسلام، غير أن الفقهاء الذين أخذوا فقههم من غير أهل البيت تراهم يتكأون في إجراء الحكم، وفي معرفته تماماً كما وقع في مجلس المعتصم العباسي حيث ذكروا: أن سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه فما كان من المعتصم إلا أن أمر بإحضار الفقهاء لإعطاء الحكم الشرعي بقطع يد السارق..، جاء الفقهاء وكان عددهم كبيراً وكان من بينهم القاضي المعروف ابن أبي دؤاد الذي جعله المعتصم قاضي قضاياه وهو رجل معروف بعدواته لأهل البيت، بيت العصمة والنبوة والطهارة. وكان المعتصم قد أحضر الإمام محمد بن علي الجواد - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام -.

وبدأ المعتصم يسأل الفقهاء واحداً بعد الآخر، وهم يبدون آراءهم في تعيين الحد، ومكان القطع، مثلاً هل تقطع اليد من المرفق أم من المفصل أم من الزند، أم من أي مكان لأن القرآن الكريم قال: ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمْ﴾.

والأيدي مطلقة غير مقيدة بشيء، إذن: فلا بدّ من معرفة الحكم الشرعي وفقاً للقرآن والسنة النبوية الشريفة، وهذه المسألة تعتمد على قوة الاستنباط لدى الفقيه، والاستنباط ملاكه العلم الغزير، والتقوى،

والصفاء الروحي والذهني، وأننى لفقهاء السلاطين بهذه الشروط؟ من أين يأتي الصفاء والتقوى لفقيره باع نفسه للحاكم الظالم، فصار يدافع عن الظلمة وأعوانهم بدل أن يدافع عن المظلومين. وصار صوتاً للحاكم بدل أن يكون صوتاً للشعب وال جماهير؟..

إن فقهاء البلاط معروفون بتفانيهم في سبيل إرضاء الحاكم الظالم ولو على حساب الشعب المحروم، وسخط رب العالمين. إنهم يشتركون مرضاة الحكام بسخط الله رب العرش العظيم. وفي التاريخ ألف شاهد وشاهد على ذلك، بل إن التاريخ كتاب حافل بألف دليل ودليل على المسيرة المنحرفة، والطريقة المعوجة التي يتعرج فيها فقهاء السوء.. فقهاء السلاطين..

على كل حال لنعد إلى مجلس المعتصم لنرى وقائع الجلسة.. فها هو الرجل السارق قد جاء إلى مجلس المعتصم في طواعية دون إكراه ولا جبر.. جاء ليعلن الحق، ويقر على نفسه بالسرقة.. وهؤلاء الفقهاء تراهم أمامك جالسين في انتظار ما يقوله أميرهم المعتصم.. وهناك في صدر المجلس قد جلس حجة الله في الأرض، والإمام الحق محمد بن علي الجواد - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - جلس في هيبة ووقار، له نور يجتذب القلوب الطيبة نحوه، ويشد الأعناق إليه ويستقطب الأبصار. ولكنه ساكت لا يتكلم وسكوته إنما هو بفعل الجو الذي كان يسود المجلس حيث كان عدد المنافقين يفوق عدد المؤمنين الذين حضروا هناك ليسمعوا أول حكم في قطع يد السارق منذ مئات السنين التي لم تقع فيها سرقة في العالم الإسلامي رغم انحراف الحكام ورغم وجود خلفاء الجور، ولكن الطابع العام، والجو السائد هو

الجو الإسلامي والاقتصاد الإسلامي المطبق في العالم، فالخمس والزكاة، والجزية، والمناهج الاقتصادية كانت تسير بشكل رائع وجميل بحيث تسد حاجات الناس الضرورية فلم يعد هناك مبرر للسرقة، ومن هنا كانت حوادث السرقة والسطو قد اختفت من المجتمع الإسلامي، وخصوصاً إذا عرفنا أن الإسلام لا يقطع يد السارق إلا بعد توفر الشروط الكثيرة التي تفوق العد على أصابع اليدين كما أسلفنا.

نستطرد أحياناً لأننا نرى ضرورة لذلك لتوضيح بعض الأمور، المهم، أرجع بكم إلى مجلس المعتصم، إذ ها هو الآن يسأل الفقهاء الواحد تلو الآخر عن رأيهم في الحكم، فيقول أحدهم: تقطع اليد من الكر سوع، وهو أصل الكف. ويقول آخر: القطع يجب أن يكون من المرفق لأن الله يقول: «وأيديكم إلى المرافق». في حين يقول ثالث: إن القطع يكون من أصل اليد لأن الآية مطلقة غير مقيدة، ويقول رابع، وخامس... وتعددت الآراء، وتضاربت الأقوال... والإمام الجواد -روحي فداء-، ساكت لا يتكلم، ينتظر الفرصة السانحة التي تظهر عظمة الإسلام أمام العالم أجمع.

وما كاد يتم الفقهاء أقوالهم، ويدلون بأرائهم حتى التفت المعتصم إلى الإمام الجواد فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ -لأن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام كان يكنى بأبي جعفر-.

فقال الإمام: قد تكلم القوم فيه يا أمير المؤمنين.

قال المعتصم: دعني مما تكلموا به، أي شيء عندك؟.

قال الإمام: اعفني من هذا يا أمير المؤمنين.



قال المعتصم: أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه.

فقال الإمام الجواد عليه السلام: أما إذا أقسمت عليّ بالله فإنني أقول: إنهم أخطأوا فيه السنة، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيترك الكف...

قال المعتصم: وما الحجة في ذلك؟

قال الإمام: قول رسول الله: السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرّسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾. يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها، «فلا تدعوا مع الله أحداً! وما كان لله لم يقطع»^(١).

وأثار الحكم دهشة الحاضرين وحرك إعجاب المعتصم تحريكاً قوياً فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف.. وهنا ثارت ثائرة الفقهاء وجنّ جنون ابن أبي داؤد القاضي إذ كيف ينتصر عليهم الإمام الجواد في مجلس الخليفة العباسي، ويعطي الحكم الصحيح، في حين أنهم منوا بهزيمة نكراء أمام هذا الواقع الذي يجري بين أيديهم؟.

وهنا قامت قيامة القاضي ابن أبي داؤد رأس فتنة القول بخلق القرآن، وتمنى أنه لم يك حياً فيسمع هذا الذي جرى اليوم. وراح يتريص الدوائر بالإمام الجواد، وينسج المؤامرات ضده، فما زال به حتى أوغر صدر المعتصم حقداً وبغضاً ضد الإمام الجواد - عليه أفضل

(١) بحار الأنوار ٥/٥٠. وتفسير الميزان ٥/٣٣٥.

الصلاة وأزكى السلام-. ومنذ ذلك الحين صار الخليفة العباسي يحسب للإمام الجواد ألف حساب وحساب، وصار يتحين الفرص، وينتهاز الساعات التي تساعد على القضاء على الإمام محمد بن علي الجواد.. وهذا ما حدث بالفعل، حيث أغرى زوجة الإمام بإطعامه السم.

على أن الإمام الجواد حين كان يتباطأ في الإجابة عن السؤال، إنما كان يقصد أن يثير شوقهم أكثر إلى معرفة الفكر الإسلامي، وثانياً أن الإمام أراد أن يعطي أنصع صورة للقاضي حين يقضي، وفي الوقت نفسه أراد الإمام أن يخلق جواً ربانياً حول حكم الإسلام، ولذلك فهو لم يتعجل إعطاء الحكم.. هذا بالإضافة إلى أن الموقف كان قائماً على السباق والمنافسة، بين الفقهاء لمعرفة من يُصدر الحكم ويثبته بالدلائل، ليكون أقرب إلى قلب السلطان، وأحظى عند الخليفة، ولذلك تأخر الإمام قليلاً في إبداء الرأي وإعطاء الحكم، وذلك ليكون الحكم خالصاً لله سبحانه وتعالى من جهة، ومن جهة ثانية أراد أن يبين أنه لم يكن من طلاب الدنيا، ولا من الذين يتهالون على التقرب من الخليفة بواسطة الحكم الشرعي.. وهي - أي هذه القصة - تشبه إلى حدٍ بعيد تباطؤ جده علي أمير المؤمنين في قطع رأس عمرو بن عبد ودّ العامري يوم الخندق، وذلك حين شتم العامري علياً، فأثار غضبه فما أراد الإمام علي أن يقتله تشفياً لغضبه، وإنما أراد أن يقتله لله وحده، لذلك تأخر الإمام علي لحظات عن قتل عمرو بني ودّ - كما هو معروف في التاريخ - ثم حتى إذا سكت عنه الغضب قتله وجاء برأسه إلى رسول الله ﷺ ومن هنا أصبحت ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين، لأنها كانت خالصة لله وحده لا شريك له، وهذا دين أهل البيت وهذه

طريقتهم، فالطريق واحد، والنور واحد، وما يفعله علي أمير المؤمنين، يفعله الإمام الجواد لأنهما من نور واحد ولا فرق في مواقفهم ومواقف أهل البيت عامة فالمحرك واحد، والهدف واحد، والانطلاق واحد.. وإذا عرفنا ذلك فإننا سندرك المعنى الدقيق لتأخر الإمام الجواد عليه السلام قليلاً عن إعطاء الجواب.

* العفة والخيانة:

وعن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: في كم تقطع يد السارق؟

فقال: في ربع دينار.

قال: قلت له: في درهمين؟

فقال: في ربع دينار بلغ الدينار ما بلغ.

قال: فقلت له: من سرق أقل من ربع الدينار أيقال له سارق؟ وهل هو عند الله سارق في تلك الحال؟

فقال الإمام الصادق عليه السلام: «كل من سرق من مسلم شيئاً قد حواه وأحرزه، فهو يقع عليه اسم السارق، وهو عند الله سارق، ولكن لا تقطع يده إلا في ربع دينار أو أكثر، ولو قطعت يد السارق فيما هو أقل من ربع دينار، لألفيت عامة الناس مقطعين»^(١).

على أن في قول الإمام: «لو قطعت يد السارق فيما هو أقل من ربع

(١) تفسير الميزان في آية السرقة في سورة المائدة نقلاً عن كتاب التهذيب.

دينار لألفيت عامة الناس مقطعين» أقول: على أن في قول الإمام هذا، تخفيفاً من الله رحمة منه بالعباد.. فإله الذي كتب على نفسه الرحمة، لا يريد ظلماً بالعباد، وإنما يريد أن يجعل المجتمع مجتمع عفاف وكفاءة، ومجتمع أمن وسلام وحرية، كما قالت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- حين تناولت موضوع السرقة قالت: وجعل الله سبحانه: «ترك السرقة إيجاباً للعفة» وفي نسخة أخرى «ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة» .

والفلسفة واضحة في هذا القانون الإسلامي الاجتماعي، فاليد إذا عفت عفت الجوارح، واليد العفيفة هي اليد التي تقبل، وتحترم. لأنها لم تكن قد عفت عن أموال الناس، بل وأيضاً أعطت أثراً تربوياً في النفس يجعلها تتدفق بالعفة، والحياء. أجل.. اليد العفيفة هي التي استغنت عن غيرها، واتكلت على الله سبحانه، وراحت تفتش عن الرغيف بين الشوك والعرق والصخور. إنها يد لا تأكل الخبز إلا ممزوجاً بالتراب والشوك والعرق، وهذه هي اليد التي قبلها رسول الله ﷺ حين قال: إنها يد يحبها الله ورسوله - ثلاث مرات - . وتفسير ذلك أن الخيانة تسبب ضعف النفس وإذلالها وتصغيرها، في حين أن الأمانة تسبب عظم النفس وتكبيرها.. إن الأمانة تكبر النفس وتصعد بها إلى أعلى قمة في المجد.. بينما الخيانة تذلل النفس وتحقرها وتجعلها صغيرة لا تسمو إلى شأٍ ولا تتطلع إلى قمة.



ومرةً سأل الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري السيد علم الهدى
الشريف المرتضى، قال:

يدُ بخمسِ مئتينِ عسجدٍ فديتُ ما بالها قُطعتُ في ربعِ دينارٍ
فأجابه الشريف المرتضى بقوله:

عزَّ الأمانةُ أغلاها وأرخصها ذلَّ الخيانةُ فافهمْ حكمةَ الباري
أجل إنَّ الخيانةَ تجعلُ النفسَ صغيرة، بخلاف الأمانة التي تعطي
النفسَ سموً وعظمة. وقال الشريف الرضي:

صيانة النفس أغلاها وأرخصها صيانة المال فانظر حكمةَ الباري
وقال شاعر آخر:

هناك مظلومة غالت بقيمتها وها هنا ظلمت هانت على الباري
وقيل في هذا الموضوع:

«لما كانت أمانةً كانت ثمينة، فلما خانت هانت..»^(١).

* تعريف العفة ورأي الزهراء فيها:

العفة من المسائل التي أولاها الإسلام أهمية عظيمة، ولهذا علينا أن
نبحث في موضوعها، لأن الزهراء، قد جعلت العفة ثمرة طيبة من ثمر
ترك السرقة.. فكأن ترك السرقة شجرة فيها ثمر، ومن ثمرها، ثمرة
العفة. وبتعبير آخر نجد الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها -

(١) كتاب التحصيل في أيام التعطيل ص ٣٩.

تجعل ترك السرقة من الأسباب المؤدية إلى إنبات العفة في جسم الفرد، والمجتمع فما هي العفة؟.

العفة لا تعني - بالضرورة - قتل الشهوات، ومحاربة الغرائز، وإنما تعني ضبط الشهوات، وتنظيم الغرائز، فالله سبحانه لم يخلق الغرائز عبثاً بغير هدف، ولا خلق الشهوات من دون حكمة ومبرر وإنما خلق كل شيء في حكمة وجعله وفق ميزان دقيق.. والعفة تعني سيطرة الإنسان على نفسه، وضبطها حتى لا تتزلق وتذهب بها الشياطين يميناً وشمالاً. وأجمل تعبير للعفة، هو وصفها بأنها ميزان لضبط الغرائز، وتنظيمها، فلا يتركها مكبوتة، ولا يطلقها في إفلات.. فلا الكبت صحيح، ولا الانفلات صحيح.. وإنما الصحيح هو أن تتحرك الغرائز والشهوات تحت ضوء العقل، وانضباطه وهذا لا يكون إلا إذا لبينا نداء الغريزة وقت الحاجة فقط، وليس طوال الوقت، لأن الغرائز إذا انطلقت في حمى مسعورة وظلت باستمرار متروكة في اشتعال فإنها تؤدي إلى إلغاء العقل، وقتل العفة، ودفن مكارم الأخلاق.

وقد ورد ذكر العفة في القرآن الكريم، وفي فكر أهل البيت عليهم السلام على أن القرآن وأهل البيت نور واحد. فالقرآن الكريم يقول : ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١).

وفي آية ثانية يقول : ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

(١) النور/٣٣.

(٢) النور/٦٠.

وفي آية ثالثة يقول : ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾^(١).

وفي آية رابعة يقول القرآن الكريم : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾^(٢).

وكما ترى إن هذه الآيات الكريمة، نصفها جاء في تنظيم الغريزة الجنسية، وفي النكاح وبناء الأسرة.. في حين أن النصف الثاني منها جاء في غريزة حب المال، وتنظيم المعاش، والقضايا الاقتصادية.. وذلك أن الجنس والمال هما من أقوى المؤثرات التي تحرك الغرائز والشهوات في النفس، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آية واحدة جمعت الجنس والمال فقال : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ﴾^(٣)... إلخ.

على أن القرآن لا يغفل عن ذكر العفة أبداً، فإننا نراه يذكر الناس ولكنه يذكر البنين بعد الناس مباشرة، ليدل على أن الشهوة لها وظيفة وهي من أجل الحصول على الذرية الصالحة، وليس إشباع الغريزة هكذا، فيقول : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ فربط النساء بالبنين لأن المرأة يمكن أن تكون وعاءً صالحاً للذرية، وحجراً طاهراً للتربية الصحيحة السليمة.

والعفة عند أهل البيت من الموضوعات البالغة الأهمية التي عالجوها بموضوعية ودعوا إليها، يتبين لنا ذلك عبر سلسلة من الأقوال والأحاديث الشريفة نوجزها هنا على الشكل التالي :

(١) النساء/٦.

(٢) البقرة/٢٧٣.

(٣) آل عمران/١٤.

* كان علي أمير المؤمنين عليه السلام يقول : «أفضل العبادة العفاف»^(١).

* ويقول في كتابه لعثمان بن حنيف: «ألا وإن لكل مأموم إماما، يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمرية، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد»^(٢).

والذي يقدر على أن يمارس الغريزة ، ويشبع شهوته ولكنه يذكر الله سبحانه فتفيض عيناه بالدموع، ويعف بعد أن قدر على المنكر، أقول: إن مثل هذا الإنسان يجعله الإسلام في قمة القمم إذ يعتبره في مصاف المجاهدين في سبيل الله، وفي عداد الشهداء الذين أراقوا دماءهم الزكية لنصرة الحق، والعدل والحرية.

* يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: « ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجرا ممن قد قَدِرَ فعفٌ، لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة»^(٣).

والعفة صفة ملازمة للمؤمن الكيس الفطن اللبيب. يقول الإمام علي عليه السلام: «العفة شيمة الأكياس، والشره سجية الأرجاس»^(٤).

إذن فالعفة يقابلها الشره.. العفة شيمة الطيبين، لأنها ثمرة من الشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .. في حين أن الشره سجية من سجايا الأرجاس أو قل : رذيلة من رذائل الخبيثاء.

(١) الكافي ٧٩/٢.

(٢) نهج البلاغة رقم الكتاب ٤٥.

(٣) نهج البلاغة حكم ٤٧٤.

(٤) من كتاب غرر الحكم.

* ويخطو الإمام علي خطوة أوسع من هذه حيث يجعل العفة مفتاحاً لكل سبيل، وطريقاً لكل نجاح وانتصار فيقول في كلمة قصيرة موجزة ولكنها جمعت التعبير كله، يقول:

«العفة رأس كل خير».

و: «العفة أصل الفتوة».

و: «العفاف أفضل شيمة».

و: «العفاف يصون النفس، وينزّهاها عن الدنيا».

ويقول أيضاً: «العفاف زهادة».

و: «العفاف زينة الفقر»، ثم يوصي بالعفاف، يوصي الأجيال والشعوب، والأمم من خلال الأفراد فيقول: «عليك بالعفاف فإنه أفضل شيم الأشراف».

ويقول: «أهل العفاف أشرف الأشراف».

ثم نجد الإمام علياً - روعي فداء - يجعل العفاف زكاة الجمال، لأن الجمال يغري صاحبه بالإنطلاق مع الشيطان، وبالذهاب مع صوت الغريزة، ونداء الشهوة.. فيقول: «زكاة الجمال العفاف».

ويقول: «عليك بالعفاف، فإنه نعم القرين..»^(١).

* ويقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «عفوا عن نساء الناس، تعف نساؤكم»^(٢).

(١) هذه الأحاديث جاءت في كتاب غرر الحكم.

(٢) بحار الأنوار ٢٧٠/٧١.

* وجاء في كتاب: من لا يحضره الفقيه^(١): « أن امرأة كانت على عهد داود عليه السلام، يأتيها رجل يستكرها على نفسها، فألقى الله عز وجل في قلبها، فقالت له: إنك لا تأتيني مرة، إلا وعند أهلك من يأتيهم.. فذهب إلى أهله فوجد عند أهله رجلا فأتى به داود عليه السلام، فقال: يا نبي الله أتى إليّ ما يؤتى إلى أحد! قال: وما ذاك؟ قال: وجدت هذا الرجل عند أهلي فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل له عليه السلام: « كما تدين تدان ».

* وقال رسول الله ﷺ: « إن الله يحب الحي المتعفف، ويبغض البذي السائل الملحف »^(٢).

* وفي خطبة الإمام علي عليه السلام التي يصف فيها المتقين جاء قوله في وصفهم بأنهم: « حاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة »^(٣).

* ويقول الإمام علي: « الحرفة مع العفة، خير من الغنى مع الفجور »^(٤).

* ويقول الرسول الأعظم ﷺ: « ثلاثة كلهم حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد التعفف »^(٥).

(١) من لا يحضره الفقيه ١٤/٤.

(٢) بحار الأنوار ٢٧٠/٧١.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣.

(٤) نهج البلاغة: رقم الكتاب ٣١.

(٥) سنن ابن ماجه ٨٤٢/٢.

ويقول في حديث آخر: « إن الله يحب عبده المؤمن الفقير المتعفف أبا العيال»^(١).

ويقول أيضا: «من طالب حقا، فليطلبه في عفاف واف، أمر غير واف»^(٢).

* وجاء في صحيح الترمذي: «إن النبي ﷺ كان يدعو: اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(٣).

* وعن أبي سعيد الخدري، أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال: «ما يكون عندي من خير فلن أدّخره، عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يُغنّه الله»^(٤).

* أحاديث في عفة البطن والفرج:

وهناك آيات وأحاديث كثيرة تُعنى بعفة البطن والفرج، نثبت هنا ما تيسر لنا منها. يقول القرآن الكريم: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾^(٥).

(١) سنن ابن ماجه ٢/١٣٨٠.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/٨٠٩.

(٣) صحيح الترمذي ١٣/٢٦.

(٤) سنن أبي داود ٢/١٢١ باب في الاستعفاف حديث رقم ١٦٤٤.

(٥) الأحزاب / ٣٥.

وفي آية ثانية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أحب العفاف الى الله تعالى، عفة البطن والفرج»^(٢).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج»^(٣) ومعنى ذلك أن العفة ترفع الإنسان الى أعلى مستويات العبادة، والتقرب من الله تعالى.

وعن أبي بصير قال: قال رجل لأبي جعفر - عليه السلام وأبو جعفر هو الإمام محمد بن علي الباقر - قال له: «إني ضعيف العمل قليل الصيام، ولكنني أرجو أن لا أكل إلا حلالاً، قال: فقال له: أي الاجتهاد أفضل، من عفة بطن وفرج»^(٤).

وجاء الحديث نفسه في البحار حيث قال الرجل: ولكن أرجو أن لا أكل إلا حلالاً، ولا أنكح إلا حلالاً، فقال الباقر: «وأي جهاد أفضل عفة بطن وفرج»^(٥).

وجاء عن علي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أنه قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً، عفّ بطنه وفرجه»^(٦).

(١) المعارج / ٢٩-٣٠.

(٢) تنبيه الخواطر ٢٨٢.

(٣) الكافي ٧٩/٢.

(٤) الكافي ٧٩/٢.

(٥) بحار الأنوار ٢٧٣/٧١.

(٦) غرر الحكم.

وحتى نعرف خطورة شهوتي البطن والفرج، يكفي أن نقرأ الحديث التالي الذي ورد عن الرسول الأعظم ﷺ حيث يقول: «أكثر ما تلج به أمتي النار، الأجوفان البطن والفرج»^(١).

وكان النبي يقول: «ثلاث أخافهن على أمتي من بعدي: الضلالة بعد المعرفة، ومضلات الفتن، وشهوة البطن والفرج»^(٢).

وجاء أيضاً عن النبي أنه قال: «إن موسى عليه السلام، أجر نفسه ثمانين سنين أو عشرأً على عفة فرجه وطعام بطنه»^(٣).

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «أصل العفاف القناعة، وثمرتها قلة الأحران».

ويقول: «سبب القناعة العفاف».

وقال في حديث ثالث: «الرضا بالكفاف يؤدي الى العفاف».

وقال أمير المؤمنين أيضاً في حديث راجع في هذا المجال: «قدر الرجل على قدر همته، وعفته على قدر غيرته»^(٤).

ويقول: «دليل غيرة الرجل عفته، ومن عقل عف».

وجاء في الأثران أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الصبر عن الشهوة عفة.. وعن الغضب نجدة..» وهذا أجمل وأوضح تفسير لمعنى العفة، حيث فسرها بالصبر عند هياج الشهوة وثورتها.. كما أنه بالمقابل فسر

(١) الكافي ٧٩/٢.

(٢) الكافي ٧٩/٢.

(٣) سنن ابن ماجه ٨١٧/٢.

(٤) بحار الأنوار ٤/٧٠ وفي نهج البلاغة رقم الحكمة ٤٧.

النجدة بأنها الصبر عند الغضب، أي الذي يملك نفسه عند الغضب يكون ذا جدة. وأريحية، بينما الذي يمسك نفسه ويضبط شهوته عند فورتها، واشتعالها، فإنه يقال له: عفيف أو قل: هو العفيف بعينه.

وفي حقل النفس وعلم الاجتماع ورد حديث مهم عن الإمام علي - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - في بحار الأنوار، يقول فيه «الفضائل أربعة أجناس: أحدهما: الحكمة، وقوامها في الفكرة.. والثاني: العفة وقوامها في الشهوة.. والثالث: القوة، وقوامها في الغضب، والرابع: العدل، وقوامها في اعتدال قوى النفس».

والحديث كما تراه يحتاج الى تفسير وتوضيح، لأن الحكمة إنما تثبت وتتشأ في أرض الفكرة أو عند التفكير الصحيح، تكون الحكمة، فعلى قدر العمق الفكري، تأتي الحكمة عميقة وواضحة وقوية، ولذلك صار قوام الحكمة في الفكرة.. ولو انطفأت الفكرة، فإن الحكمة ستموت في ظلام الجهل. ولذلك يثير القرآن الكريم عقولنا، ويفك أدمغتنا لتتطلق الحكمة من نواحي العقل، ووضفاف الفكر. وما يقال في الحكمة يقال في العفة، حيث تبدو العفة واضحة وجلية من خلال قدرة الإنسان على ضبط شهوته، وخضوع الشهوة لإرادة الإنسان، وكأنما الأشياء تعرف بأضدادها، والشهوة ضد العفة، كما أن العفة ضد الشهوة، وعندما نقول: ضد الشهوة، فإننا لا نعني - بالضرورة - إلغاء الشهوة واقتلاع الغريزة من أرضية الإنسان.. وإنما نعني بالعفة ضد الشهوة، أي أنها ضد انفلات الشهوة، وانطلاقها دون قيد أو شرط.

وكما في الحكمة والعفة، كذلك في القوة والعدل، حيث تظهر قوة



الإنسان من خلال تمالكه نفسه عند الغضب، بينما تظهر قوة العدل في اعتدال قوى النفس، وهذا الحديث من أدق الأحاديث التي تحمل فكراً عميقاً في علم النفس وعلم الاجتماع، ونتركه الى مكان آخر في الكتاب حيث نتناوله بشيء من التفصيل أكثر.

* فوائد العفة نقلاً عن النبي ﷺ

والإمام علي والزهراء عليهما السلام:

وأما حصيلة العفة التي يحصدها الإنسان العفيف فتتلخص في الروايات التالية التي وردت عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام والتي نقلها كتاب غرر الحكم وهي كالتالي:

- ١ - العفة تضعف الشهوة.
- ٢ - ثمرة العفة القناعة.
- ٣ - ثمرة العفة الصيانة.
- ٤ - من عَفَّ خَفَّ وزره، وعظم عند الله قدره.
- ٥ - من عفت أطرافه، حسنت أوصافه.
- ٦ - لم يتحل بالعفة من اشتهى ما لا يجد.
- ٧ - النزاهة آية العفة.
- ٨ - بالعفاف تزكو الأعمال.
- ٩ - من أتحف العفة، والقناعة حالفه العز.
- ١٠ - القناعة أفضل العفتين.



١١ - ألا وإن القناعة وغلبة الشهوة من أكبر العفاف.

١٢ - على قدر العفة تكون القناعة.

١٣ - ينبغي لمن عرف نفسه، أن يلزم القناعة والعفة.

وفي حديث آخر يوجهه الى الحاكم، والى القيادة الاسلامية التي تقود الناس يقول فيه: يا محمد - والخطاب موجه من الإمام علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاء مصر أي جعله والياً وحاكماً على مصر - فيقول علي عليه السلام: يا محمد بن أبي بكر أعلم أن أفضل العفة الورع في دين الله، والعمل بطاعته، وإني أوصيك بتقوى الله في أمر سرّك، وعلاانيتك^(١).

ثم يجيء حديث الرسول الأعظم محمد ﷺ فيجمع كل حصائل العفة، وثمارها فيقول: «أما العفاف: فيتشعب منه الرضا، والاستكانة، والحظ، والراحة، والتفقد، والخشوع، والتذكر، والتفكر، والجود، والسخاء، فهذا ما يتشعب للعاقل بعفاهه رضى الله وبقسامه^(٢)».

وواضح أن كل واحدة من هذه الصفات التي ذكرت في الحديث تحفظها العفة في النفس، وتجذرها أكثر فأكثر، وعلى سبيل المثال نجد ترك العفة يقتل الخشوع في النفس.. وهذه قضية مسلّمة ومجرية وواضحة وهي حقيقة لا يرقى إليها الشك.

وإذا كانت العفة مطلوبة من الناس العاديين، فكيف بالحاكم الذي بيده مقدرات الأمور؟ يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام - لمحمد بن أبي

(١) بحار الأنوار ٣٩/٧٧.

(٢) تحف العقول ١٣.



بكر - لما ولاه مصر: «يا محمد بن أبي بكر، إعلم أن أفضل العفة الورع في دين الله، والعمل بطاعته»^(١).

والزهراء عليها السلام لم تنس في أحاديثها وخطبها موضوع العفة، وهي التي شاركت في بحث كل المسائل الإسلامية المهمة.

تقول الزهراء: «وترك السرقة إيجاباً للعفة» لأن تعويد اليد على الخيانة يؤدي الى تعويد البطن على الخيانة، وهذا بدوره ينتهي الى الخيانة بالفروج، فالذي تمتد يده ويخونك في دينار، يخونك في لقمة حرام ثم يخونك في عرضك. وهنا لا بد من تسجيل ملاحظة ذات أهمية بالغة وهي: أن السرقة معناها أكل الحرام، سواء سرقت أموال الناس أو أموال اليتامى، فأنت بالتالي تأكل حراماً وتودع بطنك ناراً، وإذا ملئت البطن حراماً، أنزلت إلى زحالف الشيطان، وارتكبت الآثام والمحرمات الأخرى. وإلى تعاطي المنكرات والجرائم.

يقول الإمام الحسين عليه السلام حين خاطب طلائع الجيش الأموي: «ملئت بطونهم من الحرام» والذي تمتلئ بطنه من الحرام، تموت العفة في داخله، فينطلق انطلاق الحيوان المسعور في الحياة. وبما أن العفة ثمرة من ثمرات ترك السرقة.. لذلك فالعفاف أفضل أنواع العبادة لأنه فرع من الورع عن محارم الله. على أن العبادة لا تعني فقط الطاعة، وإنما تعني العمل بالواجبات، والامتناع عن المحرمات، فالذي يكف أذاه عن أعراض الناس، هذا الإنسان عابد حتى ولو اقتصر عبادته على الصلاة الواجبة فقط، إنه يعتبر من أهل صلاة الليل لأنه تورع عن ارتكاب المحارم. ولهذا عندما سأل علي أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله

(١) بحار الأنوار ٧٧/٣٩٠.

ﷺ عن أفضل الأعمال في هذا الشهر، أجابه النبي ﷺ «أفضل الأعمال هذا الشهر الورع عن محارم الله...».

ويقول: «إن في بضع أحدكم لأجر» فقيل: يا رسول الله أيأتي أحدنا أهله فيصيب أجراً؟ قال: رأيتم لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر؟ قالوا: بلى.. قال: فكذلك إذا أتى أحدكم أهله فإنه يصيب خيراً لأنه وضع نطفته في حلال.. هذا كان مضمون الحديث وليس بالنص.

إذن: فالكف عن المحرمات، والورع عن محارم الله، إنما هما نوعان من أنواع العبادة، بل هما أرقى ألوان العبادة.

وقول الزهراء - سلام الله عليها - «ترك السرقة إيجاباً للعفة» وهو إذا قاعدة ذهبية، وقمة من قمم الفكر الإسلامي المشعة المتألقة نفيذ منها: أن ترك السرقة معناه ترك المعصية، وترك المعاصي يضيء على النفس حالة من الاتزان، والنورانية، تؤدي إلى رضوان الله تعالى، ولذلك نجد النفس التي لا تتعاطى المعاصي ولا تقارب الذنوب، نجدها نفساً مطمئنة متزنة حافلة بالنور، والخير والإيمان، وهي في النهاية ستكون راضية بما أعطاها الله من الخير وما منحها من العطاء، ومرضية عند ربها في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (١). وقد قال رسول الله ﷺ: «من ترك معصية الله، مخافة الله تبارك وتعالى، أرضاه الله يوم القيامة» (٢).

(١) الفجر/٢٧-٣٠.

(٢) الكافي ٨١/٢.



السرققة، والجرائم الأخرى
ففي قانون الحقبوبات
ففي الإسلام

الفكر الحضاري في مدرسة الزهراء عليها السلام

في خطبة الزهراء - سلام الله عليها - نطالع نمطاً جديداً من العرض الجيد للإسلام، لم يسبق له مثيل قط، وإنما هو نمط فريد في بابه، ووحيد في أسلوبه، إن خطبة فاطمة، قد احتوت على كل عناصر الفكر الإسلامي، وجميع أبواب الإسلام، وفصول الرسالة، ولكنها جاءت كلها في أسلوب عصري يأخذ بمجامع القلوب، وتستولي روعته على الأذهان والأبصار.. وليس هذا غريباً عن بيت فاطمة وأسلوبها في عرض الحقائق أمام الجماهير، إن الزهراء - سلام الله عليها - لتصور الإسلام في كل كلمة تقولها، وكل صنيع تصنعه.. إن خطواتها، وقولها، وفعلها، وتقريرها، هي الإسلام بأحلى صورته، وأعذب مشاربه، وأطيب مطاعمه وأذواقه.

وحتى لا يشط بنا القلم بعيداً عن صلب الفكرة، ورأس الموضوع، أسارع هنا لأسجل لكم إعجابي بروعة العرض الجيد للإسلام الذي قدمته الصديقة فاطمة الزهراء، للجماهير. فمثلاً نقرأ في الخطبة فلسفة الأحكام الشرعية، فنواجه أسلوباً في العرض الجيد، والطرح الجديد، وهو من الروعة بحيث يثير دفائن العقول، ويحرك الدهشة في النفوس.

وهاكم هذا المثال: في فلسفة الأحكام تتحدث الزهراء، عن الأحكام الشرعية من واجبات، ومحرمات، بشكل موجز ولكنه عميق، ومختصر ولكنه واضح ومفيد، تتحدث عن الإيمان، والصلاة والحرب والسلام،

وتتحدث عن صلة الأرحام، وعن الصدقات، وعن مبادئ الاقتصاد الإسلامي، ومبادئ السياسة في الإسلام، ثم تتحدث عن شعائر الله، وأن من شجعها فإنه من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

هذا كله وأكثر منه نقرأ في قطعة واحدة، بل قل: لوحة فكرية رائعة من فم الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء، كما يتدفق النور من فم الفجر، وانسابت هذه الأفكار في خطبتها، كما تتساب المياه الطيبة في الحقول الخضراء.

وحين نمعن النظر في الخطبة، نجد أن فاطمة قد عرضت هذه الأحكام الإسلامية من خلال هلالين مشرقين: هلال يبدأ بالواجبات، وهلال يبدأ بالمحرمات؛ جعلت الأحكام بين وجوب الإيمان بالله وبين حرمة الشرك به.

والإيمان بالله هو أعظم شعائر الإسلام الواجبة، بل قل: إن التوحيد وهو الإيمان بالله، هو أعظم الواجبات، وأحب الأعمال إلى الله، في حين إن الشرك هو أعظم المحرمات، وأبغض الأشياء إلى الله تعالى لأنه خيانة عظمى. ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

بينما الإيمان هو قمة أداء الأمانة، أو قل: إن الإيمان هو أعلى ذروة، وأرفع قمة في قمم التوحيد، بخلاف الشرك الذي يمثل انحداراً ساحقاً في الدرك الأسفل من النار والظلام، في الدنيا والآخرة.

على أن الذي يثير الدهشة، هو أن الزهراء - سلام الله عليها - حين ذكرت المحرمات أغفلت الزنا، ولم تشر إلى هذه الجريمة لا من قريب

(١) لقمان/١٣.



ولا من بعيد، وإنما استعاضت عن ذكر الزنا، بذكر القذف، فقالت: «وجعل الله اجتناب القذف حجاباً عن اللعنة». ونحن هنا أمام مدرسة إسلامية كبرى وليس فقط أمام مجموعة من كلمات الأحكام الشرعية.

إن النظرة العميقة التي يلقيها القارئ الفطن على هذا الموقف بالذات - أقصد أنها جاءت بذكر القذف بدلاً من الزنا، أو أنها أغفلت موضوع الزنا بالكامل ولم تتعرض له قط - أقول : إن نظرة عميقة نلقيها على هذا الموقف بالذات، تستطيع أن تكشف لنا ليس عن حقيقة واحدة وإنما عن حقائق كبيرة وكثيرة. ومن التأمل والتدبر لهذا الموقف نخرج بالنقاط التالية:

أولاً: إن هناك اختلافاً كبيراً بين جريمة الزنا، وجريمة القذف. والاختلاف يتمثل في أن الزنا إنما هو تهمة توجه لرجل والمرأة على حد سواء، في حين أن مجيء القذف معناه الدفاع عن كرامة المرأة والرجل، وبتعبير أكثر دقة ووضوحاً أقول: إننا حينما نتحدث عن الزنا، فإنما نتحدث عن تهمة قائمة قد وقعت بالفعل، وتم إثباتها وتأكيدا من خلال شهود أربعة، وذلك أن الزنا لا يوجد إلا حقيقة، أي أنه يقع فعلاً، ويكون هناك أربعة شهداء يرون العملية كالليل في المكحلة. فإذا حصل هذا ووقعت هذه الشروط فحينئذٍ فقط يقع الزنا.

بينما في مسألة القذف نجد أن الجريمة أي جريمة القذف وهي إشاعة الفاحشة بين الناس، ورمي الأبرياء بالباطل، نجد هذه الجريمة يمكن أن تقع في كل آن، فهي لا تحتاج إلى شيء أكثر من قلب حقود ولسان ينشر هذا الحقد الأسود على الناس.



ولذلك تناولت الزهراء مشكلة القذف لأنها تهدم البيوت وتمزق المجتمع في حين أنها لم تذكر الزنا لأن الزنا لا يحصل إلا بعد رؤية العملية بوضوح وجلاء، هذا بالإضافة إلى الذين يرون العملية بهذا الشكل تسقط عدالتهم، وهنا ترفض شهادتهم أيضاً لأنهم فاسقون.

إذاً: فذكر الزنا يختلف عن ذكر القذف، بشيء واحد، وهو أن ذكر الزنا معناه توجيه تهمة إلى الناس أو أنها وقعت بالفعل، وذكر حرمة القذف، واجتناب القذف معناه الدفاع عن شرف الناس، والدفاع عن كرامة المرأة..

وأنا هنا لا أدري إذا تمكنت وقدرت أن أعكس هذا المعنى الدقيق الذي ورد في خطبتها أم لا؟.. ولكن على الأكثر إنني استطعت أن أوضح الفكرة للقارئ الكريم بشكل لا يدع ريباً، ولا غباراً على ذهنه وقلبه.

وفذلكة الكلام: أن الزنا وذكره إنما هو قائم على جانب سلبي لأنه عبارة عن كشف عورة الإنسان، وتسليط العقاب عليه، وإبداء ضعفه، وحيوانيته، بينما في القذف نجد الجانب الإيجابي حاضراً بكل قوته، وذلك أن حرمة القذف، واجتناب القذف، إنما هو حجاب عن اللعنة وحفظ لكرامة الإنسان وشرفه وعرضه وناموسه.

ونستطيع بكلمة واحدة أن نقول: إن ذكر الزنا ضد الإنسان، في حين أن اجتناب القذف هو دفاع عن الإنسان وعن شرفه، ولذلك نجد في القرآن أن الزنا لم يرد كحقيقة ثابتة، وإنما جاء اجتناب الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾. (١)

(١) الإسراء/٣٢.



ثم بعد ذلك يأمر القرآن بعدم إذاعة هذه الفاحشة بين الناس فيقول:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (١)

ثانياً - إن امرأة - أي امرأة - في مثل موقف الزهراء، وهي بين
حشود من الرجال لا يليق بها أن تتحدث عن الزنا وسط الرجال
الأجانب، فما بالكم بسيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي
التي أذهب الله عنها الرجس، وطهرها تطهيراً؟.

إن الذوق السليم الذي منحه الله لأهل البيت يرفض أن تتحدث
الزهراء عن جريمة الزنا في مثل هذا الموقف، لأنه لا ينسجم مع نورها،
وسموها وهيبتها، فلم تتحدث عنه حتى ولا بالإشارة ولكنها ذكرت
اجتتاب القذف، كما قلنا لأن القذف فيه دفاع عن المرأة وحقوقها
بخلاف الزنا الذي يوجه ذكره تهمة للمرأة.

إذاً: ففي خطبة الزهراء، لم تتعرض فاطمة لذكر الزنا وذلك كرامة
لموقفها وعفتها، وسمو مكانتها، وهذا شيء يحدث كثيراً في نقل
الأحكام، والصور والاختبار، فيحدث أن يسقط خبر من الأخبار وذلك
كرامة للذي يسمع الخبر، كما حدث أن ورد ذكر ألوان النعيم في الجنة
دون ذكر الحور العين، كرامة للزهراء، ففي سورة الدهر، نقرأ كل ألوان
النعيم في الجنة، ولكن دون أن نقرأ ذكر الحور العين، وهي أي سورة
الدهر، هي السورة الأولى في القرآن الكريم التي تتحدث عن ألوان
النعيم، وضروب آلاء الجنة ولكن دون الحور العين. وحينما سُئِلَ الإمام

(١) النور/ ١٩.



الصادق عليه السلام عن سبب ذلك، قال: «إن الله سبحانه لم يذكر الحور العين في سورة الدهر، وذلك كرامة لجدي فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها -».

ثالثاً - أرادت الزهراء أن تعرض الإسلام بالعرض الجميل، والعرض الجيد، فأحبت أن تركز على إيجابيات الإسلام دون سلبياته، وإن كانت سلبيات الإسلام تعني المحرمات واجتنابها.

جريمة الزنا:

حوار بين أستاذ وتلميذه!

حول قانون العقوبات في الإسلام، وبالذات قانون رجم الزانية والزاني وجلدهما إذا كانا غير محصنين، حول هذا القانون جرى الحوار التالي بين أستاذ وتلميذه أحمد.

الأستاذ: إن مسألة الشهوة، مسألة عميقة وقد عالجها الإسلام من الأساس وأعطى حلولاً ناجعة.. إن علاج الإسلام لطغيان الشهوة ينبع من كون الإسلام دين الفطرة.. والفطرة التي فطر الله الناس عليها، تقضي أن نقف لحظات نتأمل فيها أحكام الشريعة.. فمثلاً، في قضية الغريزة وإشباع الشهوة، نجد الإسلام قد فتح عدة طرق لرواء ظمأ الجنس، آخذاً بعين الاعتبار أن الشهوة الجنسية هي أصلب غريزة وأقوى شهوة في الإنسان، وقد أشار القرآن الكريم إلى قوتها في قصة يوسف وذلك حينما بلغت من قوتها لدى بعض النسوة فقطعن أصابعهن بالمدى والسكاكين دون أن يشعرن بالألم، وذلك بفعل هياج (هيجان) وغليان الشهوة اللذين أحدثهما خروج يوسف عليهن.

التلميذ أحمد: ولكن يوسف غالب نفسه، واستعصم ولم ينزلق في منحدرات الغريزة، وإنما ظل مستمسكاً بعروة العفة، وثبات العزيمة والهمة. الأستاذ: هذا صحيح يا بني.. وكان المنتظر من يوسف هذا الموقف

أي موقف الاعتصام بالعفة لأن يوسف نبيّ معصوم والمعصوم لا يقترب
الذنب...

التلميذ: وإذا كان المعصوم لا يقترب الذنب فما هي الفضيلة إذاً
ليوسف، لأنه لو كان يوسف أحداً من سائر الناس لاقترب الذنب، ولكن
بما أنه معصوم كما تفضلتم، فقد جنبه الله الوقوع في حبال الشيطان،
فما هو وجه الفضيلة ليوسف إذا كان الأمر هكذا؟.

الأستاذ: يا أحمد.. اسمح لي أن أوضح لك فكرة بشيء من
التفصيل.. إن العصمة لا تسلب المعصوم قدرته على المعصية.. إن
العصمة لا تعني أبداً كون المعصوم مكبلاً بحبالها لا يستطيع أن يمارس
الذنب.. لا.. أبداً.. إذ لو كان الأمر كذلك لسقط كونه أسوة وقدوة لنا..
ولكنه يستطيع أن يمارس الذنب ومع ذلك فهو لا يقترب ذنباً، لأن
العظمة أن تكون قادراً على ممارسة الشيء ثم تتركه تعظماً ونزاهة..
وليس عجزاً وقصواً أبداً.. إن الأعمى لا فضل له في عدم رؤيته الفتاة
الجميلة.. وإنه لا يستطيع أن يدعي أن له فضيلة هي إنه لا ينظر إلى
النساء ولا ينظر إلى المرأة الجميلة أبداً.. لأنه أساساً لا يملك حاسة
النظر فإذا كان لا يملك عيناً ينظر بها فمن أين له أن يدعي الفضيلة
بعدم النظر للمرأة الأجنبية؟.. إن الفضيلة إنما تكون إذا كان قادراً على
النظر وهو مع ذلك يحدّ من قدرته ويغض من بصره ولا ينظر إلى
النساء.. والشيء نفسه يقال في المعصوم، إذ لو أن المعصوم يفتقد
القدرة على ممارسة الذنب فأى فضيلة له في ابتعاده عن الجنس
والشهوة والغريزة في الحرام طبعاً؟.



هذا جانب، والجانب الثاني هو فهم مدى قوة الغريزة عند الرجل، وهذه مسألة مهمة أيضاً.

إذن: فالمعصوم لا يقترب ذنباً.. ليس لأنه لا قدرة له على الممارسة للذنب، وإنما لأنه يملك إرادة جبارة تمكنه من اجتناب المعاصي.. وهذه الإرادة موجودة عند كل إنسان، ولدى كل شخص ويستطيع الجميع أن يثبتوا في كل المواقع والمواقف إذا كانوا يتحلون بإرادة صلبة، هذا من حيث المبدأ، ومن حيث الشكل والأساس. وعلى كل حال فهذا ليس أساس بحثنا، وإنما أردت فقط أن أدلل لك على قوة الغريزة الجنسية لدى الرجال والنساء، وأقول: بما أن الإسلام دين الفطرة فإنه قد شرع أبواباً ومناهج وسنناً وقوانين تضمن إشباع هذه الغريزة بالطرق السليمة الموضوعية التي ليس فيها أية شائبة.

يا أحمد.. لقد شرع الدين الحنيف الزواج الدائم، والزواج المؤقت.. والزواج الدائم من واحدة إلى أربع.. فقال: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فجعل الأصل في الزواج هو التعدد أي الزواج بأكثر من واحدة بينما جعل الواحدة الاستثناء الذي يؤكد الأصل ويؤكد القاعدة، لأنه بدأ هكذا: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾^(١).

إذن: فقد بدأ بـ مثنى إلى أربعة، وهذا هو الأصل في الزواج.. لأن تعدد الزوجات مثل تعدد الأخوات، وتعدد البنات وتعدد العمات وتعدد الخالات، فكما أن في البيت الواحد أخوات متعدّدات وبنات متعدّدات،

(١) النساء/٣.

كذلك يمكن أن يكون في الأسرة زوجات متعدّدات كما فعل الأنبياء والرسل. ومنهم النبي الأعظم محمد ﷺ حيث كان تحته تسعة من النساء وهن أمهات المؤمنين، ونفس الشيء يقال في أهل البيت وفي الأئمة المعصومين حيث لا يوجد عندنا إمام قد اكتفى بزوجة واحدة وإنما بات من المؤكّد الثابت أنه كان لكل واحد منهم أكثر من زوجة وهذه سنة الله في الحياة وجوهر الدين والإيمان ولأن أهل البيت هم أولى الناس بتطبيق الإسلام فلذلك نراهم قد تزوجوا بأكثر من زوجة.. هذا في العقد الدائم أما في المنقطع وهو زواج المتعة أو الزواج المؤقت فكان أهل البيت يمارسونه ويطبّقونه على أكمل وأحسن وجه.. لأنه سنة من سنن الله، وأهل البيت لا يعطون سنة الله وإنما يطبقونها ليكونوا أسوة حسنة للمجتمع وخصوصاً للشباب في هذا المجال حيث تشكّل مشكلة الجنس عقبة كؤوداً في طريق الشباب وأغلبهم يسقط في هذا المجال ويقع في هذا المسعى. أعني الشباب الذين لا حيلة لهم ولا طريق أمامهم في الزواج سوى الزواج المؤقت، فإذا أغلقنا هذا الباب عليهم فإنهم سيلجأون إلى جدران الشيطان وحيطان البؤس.

هذا الإسلام لم يكتف بفتح الزواج الدائم، والزواج المؤقت في هذا المسعى وإنما خطا خطوة أوسع، وأشمل وذلك حين فتح باب الزواج بملك اليمين، فترى بيوت الأولياء والصالحين مليئة بالفتيات الحسان، والنساء الحسنات، وهذا يعني أن المؤمن يستطيع أن يمارس الجنس مع أكثر من امرأة في بيته وليس في مكان آخر، وطبعاً عندما نقول: وليس في مكان آخر فإنه لا يعني بالضرورة، حرمان الإنسان من المتعة والبهجة والأنس، وإنما معناه أن الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة، ما دام

الأمر في حدود الشرع فإنه ليس هناك شيء ممنوع عليهما في هذا الجانب بالذات.

التلميذ: هل أفهم من كلامك أنه ليس هناك شيء اسمه زنا؟

الأستاذ: كلا يا أحمد أنا لم أقل هذا أبداً، لأن الزنا حرام، وقد ورد فيه نص من الكتاب والسنة، فالقرآن يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(١).

أنا يا أحمد لا أتحدث عن حرمة الزنا أو غيره، فهذه قضايا معروفة ليس فيها ريب ولا شك وإنما أتحدث عن موضوع آخر، أو قل: عن شيء آخر يختلف اختلافاً كبيراً عما تقول وتذهب إليه.. وأظن أنك بشيء من التأمل، وقليل من التركيز سوف تفهمني وتدرک ما أقول لك.

انتبه يا أحمد: إن الغريزة الجنسية من أقوى الفرائز عند الإنسان، وحين نفتش نجد أنها أقوى شيء عند المرأة منها عند الرجل.. ولا فرق بين الذكور والإناث في هذا المجال فالكل يشتعل بنار الشهوة، ولأن الإنسان ليس معصوماً فإنه حتماً سيقع يوماً ما في هذا الكمين الذي نسميه الشهوة أو الغريزة.. وهنا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد فتح أبواب العودة لكل الذين عصوا، فتح لهم أبواب التوبة وأعلمهم أنه ليس فقط يقبل التوبة من عباده، بل وأيضاً يحبهم ويحبونه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢).

هذا جانب، وجانب آخر نجد الإسلام بتشريعاته الفطرية قد أقام

(١) الإسراء/٣٢.

(٢) البقرة/٢٢٢.

أسواراً وجدراناً قوية متماسكة حول الأسرة، حتى بدت الأسرة وكأنها محصنة بحصن قوي وجبار ومنيع، ومن هنا نجد الإسلام يطلق الإحصان على من ينتسب للأسرة، فيسمى الرجل محصناً، ويسمى المرأة محصنة أيضاً.. وكل ذلك إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن الإسلام قد سور الأسرة بسور حصين تحسباً من دخول أية شبهة أو ريب إليها وذلك حتى لا يتصدع بناؤها من الداخل. هذا بالاضافة إلى أن الإسلام قد جعل شروطاً تعجيزية لإثبات جريمة الزنا إذا وقعت في الأسرة. فمثلاً يشترط الإسلام لإثبات هذه الجريمة، الشروط التالية:

أولاً - إن الشهود الذين يشهدون يجب أن يتوفر فيهم شيئان: العدالة، والنصاب.. والعدالة تعني أنهم عدول أمناء شرفاء ليست فيهم سفلة ولا أنذال.. وأما النصاب فمعناه أن يكون عددهم أربعة وليس أقل من أربعة.. وإنما طلب الإسلام أربعة شهود في جريمة الزنا ولم يطلب شاهدين كما هي عادته في بقية الجرائم والذنوب، أقول: إنما جعل عددهم أربعة وليس اثنين، وذلك أن العقاب الذي سيقع على الزانية والزاني إنما هو عقاب مضاعف لأن الجريمة مضاعفة، ففيها الزنا وفيها القتل. أي أن فيها هتك الفروج وسفك الدماء.. وأعظم شيء في الحرمات هو الدماء والفروج، ولذلك نجد الإسلام يقدم احتياطاً كبيراً في هذا المجال. إذن: فالشرط الأول أن يكون عدد الشهود أربعة...

والشرط الثاني: أن يكون الشهود عدولاً وأصحاب دين وكراماً أي أنهم لا يكذبون ولا يأفكون.

والشرط الثالث: أن يحضروا عند الحاكم الشرعي دفعة واحدة أي أن يكون حضورهم في وقت واحد، وليس متقطعاً.. وبالمثل فإنه إذا

حضر ثلاثة منهم ولحق بهم الرابع بعد وقت قصير فإن الأربعة سيتعرضون لعقوبة الجلد بحيث سينال كل واحد منهم ثمانين جلدة.

يقول الحق: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

أما الشرط الرابع، فيجب على هؤلاء الشهود أن يروا العملية الجنسية رأي العين، بمعنى أن يشاهدوا الإدخال والإخراج، بحيث يرون آلة الرجل تدخل بآلة المرأة كاملياً في المكحلة، وغير هذا الشرط يكون باطلاً من الأساس، وعلى هذا فلو فرضنا أن أربعة من الرجال رأوا رجلاً على بطن امرأة وهو يهتز عليها بشهيق وزفير، ولكن لم يتمكنوا من رؤية العملية كاملياً في المكحلة فإنهم لا تقبل منهم شهادة أبداً، وإذا شهدوا فإنهم سيتعرضون لعقوبة الجلد. والسؤال هو: كيف يستطيع الواحد منا أن يشاهد العملية كاملياً في المكحلة وعلى أي أساس؟.

ثم أضف إلى ذلك أنه لو وجد شاهد وقد رأى العملية كاملياً في المكحلة فإنه لا يكون عادلاً أبداً لأن العدالة تسقط هنا عندما ينظر هذا الشاهد إلى هذا العمل كمن يفتش عليه والإسلام يحرم التجسس ويحرم أن يسطو الواحد على الآخر. هذا وبالإضافة إلى كل ما تقدم فإن الشرط الرابع، وهو المشاهدة كاملياً في المكحلة لا يتحقق إلا عند البغايا ذوات الرايات، وهذا قطعاً حرام لأنه يفسد المجتمع وينشر الأمراض، ويلوث النفس.

(١) النور/ ٤.

إذن: فجريمة الزنا لا يمكن أن تتحقق بأي شكل من الأشكال إلا عن طريق الاعتراف أي أن الزانية أو الزاني يجيء إلى الحاكم الشرعي ويعترف أمامه باقتراف هذا الذنب.. ولذلك نجد أن حد الرجم ما تحقق إلا بالاعتراف. بمعنى أن صاحب الجريمة يأتي إلى النبي أو إلى الإمام فيعترف بجريمته كما حصل للغامدية مع النبي ﷺ، وكما حصل للمرأة الكوفية مع الإمام علي عليه السلام، حيث جاءت المرأة واعترفت بأنها زانية.. ومع ذلك فالحكام الشرعي يحاول قدر الإمكان أن يبعدها عنه لتذهب هي وتتوب إلى الله من دون أن ينفذ ويطبق عليها حد الزنا الخ...

وهنا لابد من ملاحظة وهي أن قصة المرأة التي جاءت إلى الإمام علي عليه السلام موجودة في كتاب بحار الأنوار، وسنتحدث عنها في حينها إن شاء الله تعالى.

التلميذ: ولكن عندي سؤال: هل معني ذلك أن الله سبحانه قد أسقط المسؤولية عن الذي يتعاطى هذا النوع من الحرام؟

الأستاذ: أبداً.. أبداً.. يا أحمد إن هذا لا يعني إسقاط الذنب عن المذنب ولا يعني إسقاط العقاب عن المعتدي. أبداً أنا لم أقل مثل هذا على الإطلاق.. وإنما أقول: إن الشروط التي وضعها الإسلام في هذا المجال جعلت من الصعوبة إمكان إثبات جريمة الزنا، وتحقيق وقوعها، هذا طبعاً في الظاهر، وأما الباطن فقد تركه الإسلام للناس أنفسهم، فهم الذين يتوجهون إلى الله فيتوبون وليس أكثر من ذلك.

طبعاً، هذا لا يعني - بالضرورة - إلغاء عقوبة الزنا من مناهج الإسلام أبداً، فالحكم موجود في القرآن الكريم والسنة الشريفة،



الرجم في زنا المحصن والمحصنة والجلد لغير المتزوجين أو غير المحصنين، كما يقال في الفقه.. ولكن ذلك لا يمنع أن يكون هذا القانون لتأديب الناس وتهذيب المجتمع وحفظ الأسرة، أكثر مما هو للتطبيق العشوائي الذي يجري الآن في بعض ديار المسلمين بعنوان تطبيق قانون العقوبات في الإسلام، والإسلام بريء من هذا الإجراء الذي يطبق بهذا الشكل الفوضائي المفتقر إلى الذوق السليم. فالذي يجري اليوم في بعض البلاد هو تطبيق قانون العقوبات والغاء قانون الحريات ومصادرة حقوق الإنسان.

إن الإسلام دين الفطرة وصاحب الدين حكيم وعليم والحكيم لا يصنع العبث أبداً وإلاً لكانت البيوت مهددة بالفناء.

ومن هنا تدرك يا أحمد كم هي الجريمة كبيرة وعظيمة التي اقترفها ويقترفها بعض الحكام الذين يرفعون اسم الإسلام ذريعة للوصول إلى الكرسي، والإسلام منهم براء. أقول: ستدرك كم هي جريمتهم نكراء التي يقترفونها حينما يعلنون تطبيق قانون العقوبات في الإسلام على الجماهير الكادحة المسلمة وقانون العقوبات هو قانون الجلد والرجم وقطع يد السارق وجلد شارب الخمر وما شابه ذلك.. وياليتهم أعلنوا في الوقت ذاته قوانين الإسلام في الاقتصاد والسياسة، وإعطاء الحريات للناس.. ولكنهم لم يفعلوا ذلك.. إنهم لم يعطوا الجانب الجميل من الإسلام وإنما عرضوا عليهم الجانب القاتم الأسود وهو جانب العقوبات حيث يعملون على تطبيقه لوحده دون النظر إلى تطبيق بقية القوانين الإسلامية المهمة حتى حُقَّ لكل مسلم أن يتساءل: لماذا فصل هذا عن ذاك، ولماذا الاهتمام بالجانب السلبي والتفاضي عن

الجانب الإيجابي الإسلامي؟ ألا يحق لنا أن نتساءل. لماذا هذا؟ المزيد من الدمار والخراب، والضياع، والمزيد من هتك الأعراض، وسفك الدماء ونهب الأموال، كما حصل ويحصل في بلاد المسلمين وخصوصاً عند أولئك الحكام الذين يجعلون من أنفسهم أوصياء على الأمة؟.

ألا ترى الواحد منهم كيف يطلق على نفسه أنه من المسلمين ولكن في حقيقته هو من ألد أعداء الإسلام والمسلمين؟.

ألم نرَ بأم أعيننا كيف أن النساء والأطفال تسحقهم الدبابات في بلاد العراق وغيره والحكام يرون ذلك ويسمعون ذلك دون أن تطرف لهم عين.

* مأساة الشيعة في العراق:

ألم تشن قوات العدو هجوماً بالدبابات على حرم الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء؟

ألم تشن هذه القوات هجوماً مماثلاً على حرم الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام؟.

ألم يبعثوا حرم أبي الفضل العباس.. ويدمروا القباب الذهبية.. ويشوهوا معالم الدين.. ويحطموا أضرحة الأولياء.. ويحرقوا المساجد ويدنسوا عفاف المحصنات.. ويبقروا بطون النساء الحوامل؟.

اسمع يا أحمد ماذا وردني وأنا أتحدث إليك، وعفواً إذا كنا ابتعدنا قليلاً عن الموضوع الذي نبثه، لكن في النهاية فالموضوع واحد والهدف واحد. جاءني الان ما يلي:



جاؤوا بأكثر من فتاة عذراء فاعتدوا عليهن ثم ربطوهن بالحبال
ودلقوا البترول عليهم وأضرموا فيهن النار فاشتعلن محترقات ينادين:
باسم الحسين وأهل البيت، وقد تمت هذه العملية ونفذت هذه الجريمة
في صحن الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدسة... وجاء في الخبر
أنه في نفس الوقت والتاريخ هاجمت قوة مدرعة حرم الإمام علي أمير
المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف، وكان في الحرم من النساء والأطفال
والشيوخ مئات وآلاف فأبادوهم جميعاً وصبغوا حرم علي بالدماء
الزكية.. واليوم هو يوم ٢٥ شوال لسنة ١٤١١ هجرية. وما عشت أراك
الدهر عجباً.

التلميذ: يا أستاذ بالله عليك إنني أرتعد لهول الصدمة.. وأتساءل
لماذا لم يتحرك الشيعة في العالم للمطالبة بحقوقهم ولوقف هذه
المذبحة؟

الأستاذ: يا أحمد إننا نعيش اليوم في عصر الهزيمة والانحطاط..
وحين تكون الأمة في عصر الانحطاط فإنه يجري عليها هذا وأشد
منه. وإلا فإنني يا عزيزي أنقل لك بعضاً من مشاهداتي وتجاربي التي
مرت عليّ في أيام عمري.. وكلها تدل على أن الأمم لا تسمح بأن تدنس
مقدساتها.. ففي الحرب العالمية الثانية جاءت قذيفة وضربت جدار
القاتيكان في روما.. وما أن سمع العالم بذلك حتى قامت القيامة..
وإذا بالمسيحيين يشعلون الدنيا ناراً ولا يطفئونها.. حتى ظهر هتلر على
الراديو يعتذر بلسانه ويقول: إن هذه القذيفة جاءت بالغلط ولم تكن
مقصودة.. إنما هي قذيفة طائشة وقعت صدفةً على جدار القاتيكان..
وهكذا هدأت الرنة والزفرة، وأطفئت كلمات هتلر النائرة...

هذا كان في الحرب العالمية الثانية لأن المدن المقدسة لا تضرب ولا يعتدى عليها.. هكذا.

ومثال آخر.. بالأمس القريب حدث أن أطلق النار أحد جنود أنديرا غاندي على المعبد الذهبي للشيخ في الهند.. فماذا صنع الشيخ حيال هذا الاعتداء الأثيم؟.. إنهم ردوا الطلقة والرصاصات التي أصابت قبة المعبد الذهبي ردها على رأس أنديرا غاندي فأردوها قتيلا تتخبط بدمائها. وهذا شأن كل الأمم في العالم، فما من أمة إلا وهي تحترم مقدساتها ورموزها.. ولكن تعال معي إلى الشيعة.. فهذه مقدساتهم ضربت وأضرمت فيها النار.. إن الدبابات كانت تدخل في صحن الإمام الحسين عليه السلام وتلقي قنابلها ضد ضريح الحسين.. ونفس الشيء حصل في النجف الأشرف حيث كانت الدبابات تسحق الرجال والنساء والأطفال الذين تحصنوا بصحن أمير المؤمنين علي عليه السلام ثم نفس الشيء يقال بالنسبة لحرم أبي الفضل العباس عليه السلام في كربلاء المقدسة، حيث لم تسلم قبته النوراء من شراسة الصواريخ أو رعونة القنابل.

هذا بالنسبة للمقدسات التي دُنست.. أما المرجعية فقد أُهينت وسحقت بالأرجل والسياط.. والمواقف كانت تدمي القلوب، وتشعل النار في الفؤاد. وهكذا دواليك، إذ قُتل من العلماء من قتل، وسُبي من النساء من سبي، وسجن من الشيوخ من سجن، وعذب من الشباب من عذب.. هذا كله كان يجري وتجري فصوله على مرأى ومسمع من المسلمين، يا عزيزي يا أحمد.. إنَّ الموقف لا تشرحه العبارات.. وأنَّ المحنة التي حلت بالشعب العراقي، وبالذات بالشيعة في العراق لهي أكبر من الكلمات،



أخص الشيعة وأنا لا أفرق بين أحد من المسلمين.. ونحن نحترم الشعب العراقي ونجله ونقدر مواقفه عرباً وأكراداً وأقليات، سنة وشيعة وغير ذلك من الطوائف، أقول: إنما ذكرت الشيعة دون غيرهم لأنهم تعرضوا لآبادة جماعية كاملة.. بالإضافة إلى التجاهل الإعلامي الذي حصل.. فقد وقع على ما أصاب الشيعة تعميم إعلامي مدهش فالإعلام لا يتحدث إلا عن الأكراد، وكأن العراق ما فيه إلا الأكراد علماً بأننا نتعاطف مع الأكراد في محنتهم ونشعر بشعورهم ونحزن لحزنهم لأنهم يعانون من الظلم والجور والحرمان أيضاً، لكن هذا لا يعني أبداً أن نتجاهل الشيعة الذين يشكلون أكبر نسبة من سكان العراق.

التلميذ: يا سيدي إنني لا أقوى على سماع هذا الحديث ولكن بالله عليك هل رأيت أكبر من هذه المحنة والمصيبة التي حلت بشعب وأمة غير العراق؟

الأستاذ: لا والله يا أحمد إن محنة العراق محنة كبرى.. وإنه لبلاء تطول مدته ويدوم مقامه، لأنه لم يحدث إلا بذنوب الناس.. وهذا ليس مبرراً للقمع والنار والحديد وإنما أقول: نحن الذين دفعنا العراق إلى هذا المنحدر السحيق.. دفعناه بجهلنا وبانعدام المسؤولية لدينا إذ كنا مشغولين بضرب بعضنا بعضاً وبدل أن نلتفت إلى تربية الشعب وتثقيفه، نجد أنفسنا نسارع في طلب الدنيا لافي الخيرات وما شابه ذلك من الأشياء التي لا تغني عن جوع، ولا تشبع أحداً ولا ترويه أبداً.. هذا بالإضافة إلى التناحر والتطاحن وقد وصلت الحالة بالناس أنه كانت تلاحقهم طائرات عمودية فتلقي عليهم شباكاً ثم ترفعه إلى السماء وتنتشرهم من أعلى طبقات الجو إلى الأرض فيتناثرون مهشمين محطمين في الأحرار والهجير..!!

وأخيراً دعنا يا أحمد نذرف الدموع على هذا الشعب المسكين الذي دمره الظلمة وأعوان الظلمة، ولكن قد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم...».

كان هذا في العام ١٩٩٠ أما اليوم فنهر الدماء يجري في العراق قد صبغ الحقول والتلال والوديان وقد عمت الفوضى وعظم البلاء وانقطع الرجاء وضاعت الأرض ومنعت السماء وإلى الله المشتكى وعليه المعول في الشدة والرخاء، على اننا متفائلون رغم فداحة الأمر، وألم المصاب وقتامة الساعات، فإن الفجر قادم قادم قادم عن قريب، انشاء الله حيث يعم السلام والأمن والرخاء في بلاد الرافدين وما ذلك على الله بعزيز.

الإسلام هو العلاج الشافي

عندما نلقي نظرة على انتشار الجريمة في العالم، نجد أن السبب في ذلك إنما يعود إلى ابتعاد الناس عن مناهج السماء، وخصوصاً عندما ننظر إلى انتشار الجريمة السريع في العالم، ومن بينها انتشار السرقة على نطاق واسع.. ثم نقارن بين الواقع المروع الذي يعيشه الإنسان اليوم في ظل حضارة الكفر والظلم، وبين الواقع الذي عاشه الناس في ظل الحضارة الإسلامية، وكيف استطاع الإسلام أن يقضي على هذه الظاهرة بسهولة ويسر.. هذا مع التأكيد على أن الحضارة المعاصرة فشلت فشلاً ذريعاً في هذا المسعى؛ أقول: إنَّ الذي يلقي نظرة هنا، ونظرة هناك، ثم يقارن يخرج بنتيجة تؤكد له أن العالم لا علاج له إلا بالعودة إلى الإسلام، وانبعث الحضارة الإسلامية من جديد، تلك الحضارة التي لم تسجل في ملف جرائم السرقة خلال ألف سنة إلا ثلاث حوادث وقعت في العالم الإسلامي، حوادث سرقة ثلاث وليس أكثر!.. وما عشت أراك الدهر عجباً!..

ونتساءل: لماذا يسرق الإنسان ويسحق كرامته وعزته تحت أقدامه؟.. لماذا يسرق إذا كان الاقتصاد الإسلامي يوفر له كل حاجاته الضرورية؟ ولماذا يسرق السارق إذا كان الضمان الاجتماعي يوفر له حتى لقمة العيش في حال كونه عاجزاً عن العمل؟..

ولماذا يسرق إذا كان النظام الاجتماعي في الإسلام يوفر للإنسان فرص الحياة، ويعطيه فرصة جميلة في الحياة ليبني نفسه ويستعيد

كرامته، ويسترجع عزته؟.. لماذا يسرق الواحد منا إذا كان الإسلام يتفقد الفقراء والمساكين والمحتاجين؟.

ولماذا السرقة، وبيت المال يتدفق بالعطاء لكل الناس؟.

ولماذا السرقة وبيت المال كان يفرغه الإمام علي أمير المؤمنين صبيحة كل خميس من كل أسبوع ثم يوزعه على طبقات الناس فما من أحد في أفراد المجتمع إلا ويصل إليه شيء من بيت مال المسلمين؟.

وألف لماذا ولماذا؟.. اقرأوا الإسلام، واقرأوا التاريخ الإسلامي، والاقتصاد الإسلامي، اقرأوا علوم الإسلام في مجال النفس، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة والأخلاق، والتربية والعمل، لتعرفوا أن الإسلام بمبادئه الإنسانية الرحيمة استطاع أن يقضي على كل ألوان الجرائم ويدفنها في المجتمع، حين حافظ على عزة الإنسان وكرامته وأعطاه حرياته، ووفر له كل ما يحتاج.

ولتعلموا - أيها الأحبة - أنه ما انفجرت المشاكل في وجوهنا، إلا بعد أن هجرنا القانون الإسلامي، واكتفينا بالشعارات الفارغة التي ليس فيها ذرة واحدة من الإسلام. يوم ابتلينا بحكام خونة، من الظلمة وأعوان الظلمة، ثم ابتلينا بشعوب جاهلة لا تملك الوعي ولا الرشداً، لأن الحاكم الظالم لا يسمح لأبناء الشعب أن يستضيئوا بالعلم والمعرفة والرشد والوعي.. وفي المقابل أيضاً ابتلينا بحالة انحطاط مدمرة تجتاح العالم الإسلامي يساعدها في ترسيخها وتركيزها، الاستعمار الكافر الظالم الفاجر الذي كان وما زال منذ أكثر من ثلثمائة عام جائماً على صدر العالم الإسلامي.. أقول: يوم ابتلينا بهذا الثأني الخبيث فإنه لا علاج لنا إلا بالانعتاق والتحرير من هذا الداء الويل والمرض

الخبيث، حتي نستعيد شخصيتنا الضائعة، وهويتنا المسحوقة. ولكن يجب أن تعلموا «أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فهبوا أيها المسلمون إلى العمل، وانفضوا عن أكتافكم غبار العجز والكسل. وانطلقوا فإنكم إذا انطلقتم لا تتطلقون من فراغ وإنما تتطلقون من أقوى وأعظم وأوسع قاعدة عرفتتها الحياة، إنكم تتطلقون من الفكر الإسلامي العظيم، الذي تكفل به وحفظه لنا القرآن الكريم، والعترة الطاهرة، كما جاء في حديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي، وقد نبأني اللطيف الخبير، أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

أذى فاطمة

يعني الشرك بالله

وعلى فكرة تفسير الآية: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(١) يعني آخر في التفسير، أو قل: في سبب نزول الآية، وهو أن أذى فاطمة يعني الشرك بالله.. والنبي لم يشرك طرفة عين، لأن الآية جعلت ملاك الشرك هنا، هو أذى فاطمة.. والنبي لم يؤذ فاطمة، وكيف يؤذيها وهو القائل: من أذى فاطمة فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله.. ويقول في موطن آخر: إن رضا فاطمة من رضاي، وسخطها من سخطي.

وفي حديث ثالث يقول: «إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها»، كما جاءت هذه الأحاديث في صحاح المسلمين وفي البحار والكتب الأربعة وغيرها من كتب التفسير والحديث والتاريخ.

إذن: فالآية لا تعني أن النبي أذى فاطمة.. أبداً وإنما الآية تريد أن تربي الأمة الإسلامية على احترام الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها وعلى أبيها وبعليها وبنيتها، والسر المستودع فيها -.

إنها فاطمة وما أدراك ما فاطمة.. إن من أدركها أو أدرك معرفتها فقد أدرك ليلة القدر.

(١) الزمر/٦٥.



رؤية لخروج المرأة

في هذه الرؤية يبرز سؤال ملح يقول: هل يجوز للمرأة أن تخرج من بيتها للمطالبة بالحق -وطبعاً هذا السؤال عام وشامل- وإذا كان الجواب إيجابياً فما معنى الحديث النبوي الشهير الذي يقول: ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة أو ما شابه ذلك نقلته لكم بالمعنى لا بالنص وسيأتي نص الحديث في سياق الموضوع؟

على أنني أود هنا في المقدمة أن أذكر نقاطاً ذات أهمية تخص هذا البحث فأقول: يجوز خروج المرأة من البيت على الأعم والأشمل بغض النظر عن وضعها الاجتماعي سواء كانت أمّاً أو بنتاً أو أختاً أو زوجة، لأن المرأة المتزوجة وغير المتزوجة في هذا الأمر سواء ليس فقط يجوز خروجها من البيت بل يجب أحياناً كثيرة أن تخرج من البيت من غير أن تستأذن أحداً من الخلق وذلك للأمور التالية:

أولاً: الاستئذان الذي ورد في المسائل الفقهية وفي الروايات إنما هو للمرأة المتزوجة في الأمور المستحبة لا في الأمور الواجبة ففي ذهابها لحج بيت الله الحرام لا تحتاج إلى إذن من زوجها ولا من غيره.. وفي خروجها لزيارة الإمام الحسين عليه السلام وفي حضور المآتم والعزاء، وصلاتها في المساجد لا تحتاج إلى الإذن والاستئذان، لأن منعها من الخروج لهذه المواطن يخالف العشرة بالمعروف التي أمر الله بها الرجال في حق النساء إذ يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١).

(١) النساء / ١٩.

- المقدمة ٥
- فاطمة متى تقطم شيعتها من النار ومن الجهل ومن لكل ذنب وسوء؟ ١٦
- نصرة الحق في معرفة النعم ٢٩
- مدرسة الوعي عند الزهراء عليها السلام ٥٥
- رؤية فاطمة عليها السلام لمنزلة العالم الفقيه ٦٦
- إلحاق الزهراء بالمعصومين ٨١
- وجعلناهم أئمة ٨٧
- تمهيد لخطبة فاطمة الزهراء عليها السلام ٩٣
- المقدمة الثانية ١٠٢
- فاطمة عليها السلام ومشية الرسول ﷺ ١٣٣
- تاريخ الحسين عليه السلام ١٣٧
- الحج عند الحسين عليه السلام ١٤١
- في ولادة الحسين عليه السلام ١٤٣
- صور لأبناء فاطمة عليها السلام ١٧٦
- فكرة حول وجود فضة في سورة الدهر ١٨١
- آفاق ورؤى جديدة في خطاب فاطمة عليها السلام ١٩١
- إفتتاح الخطاب ٢٤٨
- فاطمة الزهراء عليها السلام كلمة الحمد ٢٧٩
- الوعي الإسلامي في مدرسة الزهراء عليها السلام ٢٨٧
- الوعي الإسلامي للإنسان ٢٩٤
- مسألة في الفقه ٣١٨
- كلام الزهراء عليها السلام خلاصة الخلاصة ٣٢٣
- مخالفة الأمويين والعباسيين أحكام الله في قطع الأيدي ٣٢٨

- ٣٣٢ - قصة السارق والشيطان
- ٣٣٥ - أول حد أقيم على سارق في الإسلام!
- ٣٤٠ - النبي العظيم وحزمه في تطبيق قوانين السرقة
- ٣٤٩ - لو أن فاطمة بنت محمد
- ٣٦٣ - في السرقة وحضارة العنكبوت
- ٣٥٦ - في آفاق آية السرقة
- ٣٧٩ - أحاديث في السرقة
- ٤٠٧ - الفكر الحضاري في مدرسة الزهراء عليها السلام
- ٤١٣ - جريمة الزنا حوار بين أستاذ وتلميذه
- ٤٢٧ - الإسلام هو العلاج الشافي
- ٤٣٠ - أذى فاطمة يعني الشرك بالله
- ٤٣١ - رؤية لخروج المرأة